

٤٤

أدب .. ونقد

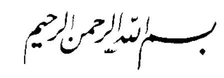
محمد المجذوب

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م

ملتزم النشر والتوزيع دار الاعتصام بالقاهرة





مقدمة

فى هذا الكتاب بحوث ومقالات وخواطر كُتبت فى مناسبات مختلفة ، وتناولت من الأفكار ألواناً متعددة ، وقد اخترنا لها عنواناً واحداً هو (أدب ونقد) لأن الإطار الذى يضمها ـ على تعدد أشكالها ـ لا يعدو حدود الأدب والنقد ، ذلك لأن الأدب عام وخاص ، وفى الأول متسع لكل ما ينشئه أولو العلم والفكر فى لغةٍ ما ، على أن يتقيد المنشىء بأساليبها وقوانينها البلاغية ، على حين يقتصر الثانى على الجوانب الخاصة بشئون النثر والشعر والمشاركين فى إنتاجها ، على امتداد الزمن واختلاف فنون القول ومذاهبه .

وفى هذه المقالات ـ قديمها وحديثها ـ ما ينضوى تحت مظلة الأدب الخاص ، إذ يتناول تحرك الكلمة فى آفاق النفس والفكر من خلال العبارة الفنية ، تسجيلاً لخاطرة ، أو تعبيراً عن شعور ، أو تصويراً لواقع ، فى حين تؤلف بينها جميعاً وحدةُ المنبع النفسى ، الذى منه ينطلق كل روافد الإبداع ..

ومن هنا كان الكتاب حقيقاً بعنوانه الجامع (أدب ونقد) وللقارىء المثقف بعد ذلك رأيه فى هذا الضرب من الأدب والنقد ..

ولله الأمر من قبل ومن بعد ...

محمد المجذوب

المدينة المنورة ـ ساحة مسجد قباء

ملحمة الحرب المقدسة
نقد وتحليل

ـ ١ ـ

ناظم الملحمة

هو محمود محمد صادق ، شاعر مصرى معاصر ، عرف بقصائده الحماسية أثناء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ م حتى لقبه سعد باشا زغلول (شاعر الثورة) وقد جاء فى كلمة منشورة فى آخر كتيب الملحمة أن سعدا قال له « إن فى شعرك لروح شباب دافق وقلب وطنى خافق ، عذوبة فى المبنى وجلال فى المعنى » وإن امير الشعراء قال له أيضاً « جمع الله لك الأسلوب والروح الموهوب ، والخيال اللعوب ، وهذه الثلاثة هى الشعر كله » ومن شعره نشيد مصر القومى ونشيد العروبة فى تحرير فلسطين . وكان نشيده فى مسابقة الجامعة العربية هو ثانى الثلاثة الفائزة[1] . ويظهر أن له أشعاراً كثيرة فى النواحى القومية يشير إليها فى غضون الملحمة بقوله :

ربع قرن أدعو صباح مساء　　أترانى بلغت يوماً منانا

نشر الشاعر هذه الملحمة فى جريدة الاهرام المصرية صباح ١٩٤٧/٢/٢٨ إثر صدور قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين . وقد قامت أمانة الجامعة العربية بتعميمها بناء على اقتراح عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية ، فأهدت الطبعة الأولى منها إلى قادة العرب ومراكز الجهاد . ثم طبعها الشاعر ثانية فى كتيب يقع فى عشرين صفحة من القطع الوسط صدره بتقاريظ ثلاثة . الأول بقلم سماحة مفتى فلسطين الأكبر ، والثانى بقلم السيد على ماهر رئيس وزراء مصر السابق ، والثالث بقلم سماحة مفتى الديار

(١) الأول لكاتب هذه الدراسة والثالث للشيخ صاوى شعلان .

المصرية ، وكتب له الشاعر خاتمة نثرية فى صفحتين يتحدث بها عن واجب العرب نحو فلسطين ، والوسائل التى يجب أن يتذرعوا بها لمحاربة العدو من (الذكاء والإيمان والعلم والاتحاد) .

- ٢ -

عناصر الملحمة

من التجوز أن تطلق على هذه المنظومة اسم (ملحمة) بالمعنى الفنى ، لأنه ينقصها المهم من عناصر الفن الملحمى (الذى يقوم على وصف الوقائع الحربية والمناقب القومية فى أسلوب قصصى) كما عرفه اليونان فى (الإلياذة) والفرس فى(الشاهنامة) ولأن أكثر ما جاء فيها من حديث عن الحرب لا يعدو إشارات عابرة إلى بعض أحداث التاريخ ، عرض لها الشاعر فى أثناء الأغراض الأخرى دون أى تفصيل ، ففقدت المنظومة بذلك عنصر الملحمة الرئيسى ، حتى قصرت من هذه الناحية ـ ناحية القصص الحربى ـ عن بعض القصص الصغيرة الساذجة التى نراها فى شعر الجاهليين والأمويين كعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة والأعشى وعنترة والأخطل وصاحبيه فى نقائضهم . أما ناحية المناقب القومية فقد توافر للمنظومة جانب كبير منها ، بل لعلها الناحية الوحيدة التى تصلها بالشعر الملحمى ، خصوصاً ما يجلل هذه الناحية من الروح الدينى الذى يعتبره مترجم الإلياذة ـ البستانى ـ من أسس الفن الملحمى عند اليونان .

وليس من الحق أن تعذر الشاعر فى قصوره هذا بدعوى أن ملحمته إنما هى دعوة للمعركة لا تصوير لها . فقد كان لديه مجال لاستدراك ذلك فى الكلام عن الحروب الماضية التى اجتزأ بالإشارة إليها ، وكان لديه كذلك متسع كبير فى تصوير معارك الثورات المتتابعة التى أوقدها المجاهدون فى جبال فلسطين طوال سنى الانتداب البريطانى الثلاثين ، وفى تصوير وحشية المستعمرين باضطهاد الأحرار وتعذيبهم مما لم يظفر من الشاعر بأى التفاتة .

وقد جاء فى الكلمة الأخيرة من الكتيب أن هذه القصيدة ، مع واحدة أخرى تخص مصر ، يشكلان مقدمة لملحمة عربية شاملة من طراز الالياذة ، ولذلك ترى أن تسميها (قصيدة قومية) ريثما يتم إدماجها فى الملحمة الموعودة .

ــ٣ــ
أقسام الملحمة

تستغرق هذه القصيدة اثنتى عشرة صفحة من الكتيب ، وعدد أبياتها ١٧٧ ، وهى من البحر الخفيف تجرى على روى واحد هو النون المفتوحة ، وقافيتها من المتواتر ، وقد طبعت طبعاً حسناً بحرف مشكول ، وذيلت بعض صفحاتها بشرح لبعض الألفاظ والأفكار ، ولكنه شرح غير مستوف ، إذ يشتط أحياناً عن الغرض المفهوم من النص .

والقصيدة مقسمة سبعة مقاطع غير متساوية ينتقل بها الشاعر من نقطة إلى نقطة من الموضوع ، ويبدأ كل مقطع بصيغة خطابية ، ففى الأول يوجه نداءه إلى العرب ، وفى الثانى إلى فلسطين ، وفى الثالث إلى مجلس الجامعة العربية ، وفى الرابع إلى أبطال العروبة . وفى الخامس إلى البابا ثم إلى العالم المسيحى ، وفى السادس والسابع إلى قادة الشرق والعرب جميعاً .

ـ ٤ ـ
أغـراض الملحمــة

إن الأغراض الرئيسية فى هذه القصيدة من النوع العادى إجمالاً يستمدها الشاعر من روح الجماعات العربية ومن الشعور الدينى الذى يتصل بقضية فلسطين سواء فى ذلك الأقطار العربية بخاصة أو الإسلامية بعامة ، وبعض هذه الأفكار يمثل مشاعر العامة من الشعب ، وبعضها يمثل مشاعر الخاصة من المثقفين ولا سيما فى النواحى السياسية العالمية .. ويمكن إجمال هذه الأغراض فى النقاط التالية :

١ ـ الأغراض العامــة

ا ـ مكانة فلسطين بالنسبة إلى العرب والإسلام فى الماضى والحاضر والمستقبل وحاجتها إلى نصرتهم .

ب ـ أمل العرب فى مجلس الجامعة العربية لإنقاذ فلسطين .

ج ـ إثارة روح الحقد على اليهود بذكر فضل العرب والشرقيين عليهم وجحودهم لهذا الفضل .

د ـ عرض لأمجاد التاريخ العربى بغية إيقاد الحماسة والكرامة القومية .

هـ ـ إيقاظ الروح الدينى لبعث النفوس المؤمنة على التضحية لحماية المقدسات .

٢ ـ الأغراض الخاصة

ا ـ حملة على مجلس الأمن ودعوة للتمرد على قراره لأن فلسطين ملك العرب منذ القديم فلا علاقة لغيرهم بها .

ب ـ اتحاد العرب وتعاون الأقطار الشرقية ضد عدوان الغرب .

ج ـ نقد العرب على أخطائهم السياسية فى معاونتهم السكسون ضد أعدائهم فى الحربين العالميتين وانخداعهم بوعودهم الكاذبة .

د ـ استنجاد البابا والعالم المسيحى وتقريع الدول النصرانية لتواطئها مع اليهود على العرب .

هـ ـ دعوة الحكومات الشرقية إلى التكتل وإلى الإصلاح الداخلى لرفع مستوى شعوبهم .

وهناك نواح أخرى ثانوية يستطرد إليها الشاعر أثناء القصيدة كحبه لوطنه وذكره لآلامه واعتزازه بنسبه وأدبه ورأيه فى الشعر ، وأكثر هذا نجده مبثوثاً فى مطلع القصيدة وخاتمتها .

ـ ٥ ـ
طريقـة العـرض

لا يعنى الشاعر بترتيب أفكاره رغم تقسيمه القصيدة ، فكثيراً ما نراه يكرر الفكرة الواحدة فى عدة مواطن وفى تعابير مختلفة ، وكثيراً ما نجده يمزج بين الفكر المختلفة ولا رابط بينها من حيث التسلسل ، حتى نعثر على أبيات مقسورة على مواضعها قسراً .. مما أفقد القصيدة جامع الوحدة العصرية ونزع بها إلى الطريقة القديمة التى تعنى بوحدة البيت . ومن أهم مظاهر هذا التفكك إكثاره من الالتفاتات المشوشة إذ ينتقل من الإخبار إلى الإنشاء ومن الغائب إلى المخاطب ومن المفرد إلى الجمع و ... دون مناسبة وفى قفزات سريعة ولعل الشاعر قد نظم قصيدته متفرقات ثم عمد إلى ترتيبها فتعذر عليه الحصول على الانسجام التام .

دراسة نماذج من القصيدة

١ - يبدأ الشاعر المقطع الأول من قصيدته بهذا المطلع :

خطب السيف ، أسكتوا سحبانا   يا لقومى ، وودعوا حسانا
وخذوها من الطريق المؤدى   لا تطيلوا البيان والتبيانا

ولا شك أن (خطب السيف) تعبير جميل ولكن ينقصه الجدة ، وهو ترديد لقول الآخر (تكلم السيف فاسكت أيها القلم) وكلاهما يستمدان من قول أبى تمام (السيف أصدق أنباء ...) مع الاحتفاظ بالفارق بين التقليد والأصل فإن الفصل بين الخبر والإنشاء فى صدر البيت الأول ، واعتراض الجملة الندائية الأخرى (يا لقومى) فى حشو العجز ، قد أثرا على البيت فوقفا به دون الغاية أما البيت الثانى فهو توسيع لسابقه ولكنه برغم ما فيه من بساطة العبارة النثرية ملائم للمقام ، إذ يعبر عن لهفة الجماهير العربية إلى العدول عن خطة الكلام إلى منطق القوة ، ويمضى الشاعر فى هذا المقطع يصور هول الموقف وشعوره به ، ويستمد قلبه العون على بكاء البلاد واستثارة العزائم :

رب نوح على البلاد ووجد   كاد فى الصخر يخلق الوجدانا

ولا بأس أن ينكر الشعر فى المطلع ويشيد بأثره فى النهاية ، فهو إنما ينكر ذلك على رجال السياسة والحرب لا على الشعراء الذين يدعوهم إلى تجنيد مواهبهم فى خدمة المجتمع وتوجيهه إلى القوة بدل العبث والمجون ، كما سيوضح ذلك فى ختام القصيدة .

٢ - وينتقل إلى المقطع الثانى فيخص فلسطين بنجوى حارة تترجم عن حب عميق وعاطفة قومية ودينية ملتاعة :

يا فلسطين ، بعد أندلس ما   ذا يريب الزمان مما دهانا
يا سويداء كل قلب وروح   شب فيك الهوى وشب صبانا
بزغت شمسنا على هدب جفنيك   وأرضعت فى البكور ندانا
ضمك الشرق للفؤاد كأمٍّ   نازعت فى وليدها القرصانا
يا لواء إذا طوته الليالى   جلل العار أرضنا وسمانا

لا ريب أنه قد يتعذر على شاعر أن يقول خيراً من هذا فى فلسطين ، انظر إلى اسم

(أندلس) بجانب فلسطين . ألا تحس بدفق من المعانى الموحية يعجز القلم عن ترجمتها ! ... ثم انظر إلى البيت الثانى ألا تحس فيه تعبيراً عن أعمق مشاعرك نحو هذا الحبيب السليب ! ! .. ولا شك بأنك تلمس معى روعة الإستعارات الجديدة (شمسنا على هدب جفنيك .. أرضعت فى البكور ندانا ..) إنه خيال موفق يصور لك مجد العرب منذ الفتح الأول . وفى البيت الرابع أسلوب نثرى ولكن فيه شفيعاً من التشبيه المركب (كأم نازعت ...) وأحسن من ذلك ما تراه فى البيت الخامس أن فلسطين شعار عزة العرب وليس فقدانها سوى العار يجرف بتياره كل شىء ... أى والله هو العار .. تخوفه الشاعر أمس وتذوقه العرب اليوم ! .

ولكن لا تنتظر من الشاعر أن يستمر فى هذا (الخيال اللعوب) طويلاً ، فهو يحشد لك فى بقية الثمانية والثلاثين من أبيات المقطع صوراً وتعابير فيها الذهب والخزف :

إن يكن نعشك الذى نصبوه ... فانسجوا للعروبة الأكفانا
واجعلوا الهام موطئا لنعال ... وأهيلوا التراب فوق لحانا
هاهى الثغرة التى لو أبيحت ... أغرق السيل سهلنا وربانا
ابنة الشرق والعروبة ويحا ... ناشدتنا الإنجيل والقرآنا
ناشدت مصر والعراق ونجدا ... وشآما وناشدت لبنانا

وهكذا تتمة المقطع يتردد بين القوى الرائع كالبيت الثالث ، والضعيف المهلهل كالبيت الثانى ، وقد تتعجب مثلى أن يجتمع لشاعرٍ واحدٍ مثل هذا التعبير السوقى (التراب فوق لحانا) بجانب ذلك التعبير الفحل (... الثغرة التى لو ..) وعلى مقربة من ذلك البيت القوى الآخر الذى ينطوى عليه هذا المقطع :

ولكدنا من طول دكٍ ونسف ... نجعل الأرض توقف الدورانا

وانظر إلى هذه اللفظة الطفيلية (ويحا) ثم إلى هذه المناشدات الخمس المتتابعة[1] من بعد وتساءل معى : أى جمال توهمه الشاعر فى ترديد أسماء الأقطار العربية بهذه الطريقة الجغرافية لا الشعرية ، وكيف اضطره الوزن إلى تنكير (الشام) كما اضطره فى غير هذا المكان إلى تنكير (الكعبة) ؟ ؟.. أما أنا فلا أعلم وجهاً لذلك إلا الضعف والاستخفاف بفن الشعر .

(١) هناك بيت قبل الأخير يكرر فيه (ناشد) مرتين .

وانظر كذلك إلى هذا البيت :

ولأشفقت بعد هدى ودين أن ترانا فتحسب الشيطانا

ثم احزر ! . أذم هذا أم مدح ؟ ! أما الشاعر فيريد المدح لأنه يحاول السطو على بيت الحلي :

تدرعوا العقل جلبابا فإن حميتْ نار الوغى خلتهم فيها مجانينا

ولكنك تجد الوضوح عند شاعر القرن الثامن وتجد الإبهام والتعقيد عند شاعر القرن العشرين .

٣ ـ ويبدأ المقطع الثالث بخطاب مجلس الجامعة العربية يستحثه لنجدة فلسطين فلا يقف عليه سوى أربعة أبيات من ٣١ ليعود بعدها إلى طريقته الأولى من تعظيم البطولة ، وتحقير الجبانة ، وإثارة الكرامة ، وليحدثنا حديثاً قصيراً شجياً عن زماننا ، الذى تغيرت فيه مفهومات الأخلاق ، والشاعر أكثر توفيقاً فى هذا المقطع إذ يقل فيه التفكك ، وإن كانت بعض تعابيره من النوع العادى :

مجلس العرب ، والعروبة هيا دق ناقوسها ووقتك حانا
قَبِّلَ السيف راحتيك ابتهاجا بعد ما طال حبه أزمانا

وجميلة صورة السيف كسجين أطلق سراحه فأكب على راحة محرره يوسعها تقبيلاً ولكن هذا لا ينسينا أن (هيا) غير جميلة .

رب ! .. لا ذلَّ تحت عرشك حيٌّ فخذ الروحَ إن أردت امتحانا
إن تشأ فالخطوب عزف قيان والمنايا تحسها ألحانا

إن فى هذين البيتين لانتفاضة من العزة المؤثرة ، وروحاً من الإيمان الذى يسمو بالنفوس والبيت الثانى خاصة من روائع الشاعر . إن نشوة الإيمان تغير واقع الأشياء حتى يتحول الخطب عزفا والمنيَّةُ لحناً ، وهى صورة يحملها العمق النفسى وكلا البيتين مثل من سمو المعنى وعذوبة المبنى ، وللزوم مالا يلزم فى قافيتها أثر محبب من الموسيقى ، والشاعر لا يتعمد البديع ولا يستكثر منه ولكنه يتقبله عفوياً كشأنه هنا ، وفى هذا المقطع عدد آخر من الأبيات ترتفع إلى الذروة :

وطنى ! .. عنك ماشغلت بدنيا أحقر الشىء عندنا دنيانا

مائة تحمل والرءوس على الكف وتمضى لـتصـفـع الحدثـانـا
يا أعاصير حـرّقى فى كل شىء.. وأحيلى الجسوم منـا دخـانـا

وتأمل فى هذه الإستعارة (تصفع الحدثان) وقد كان حرياً بالشاعر ألا يفرد ضمير المتكلم فى البيت الأول (ما شغلت) ولو قال (ما شغلنا) لتماسك البيت مع تابعه دون خلل .

وهو هنا ينزع إلى الحكمة :

وإذا ريضت النفوس على الذل استبيحت ، وكل شىء كانا
رب روح حرصتَ دهراً عليها يجعل الضيم حتفها ألوانا

ولكنها كأكثر حكمه يستمد معظمها من معين المتنبى (ذل من يغبط الذليل ... من يهن يسهل الهوان عليه) حتى إن الشاعر لا يكتم تأثره بأبى الطيب فيختم مقطعه هذا بالتضمين لأحد شوارده (وإذا لم يكن من الموت بد ...) على أن فى ثانى البيتين فكرة جميلة ولعلها جديدة (الحتف ألوان) أما حديثه عن الأخلاقيات فهو حديث خاطف كان أجدر بالشاعر أن يتوسع فى شأنه ، وكان أولى به أن يضمه إلى الكلام عن مجلس الأمن فى المقطع التالى ولكنه ، كما علمت ، لا يعنى بالترتيب كثيراً ولا يطيل الوقوف إلا عند الصور الوجدانية التى لا يعوزها التعليل المنطقى والتى تسعفه فيها قوة الانفعال العاطفى :

زمن كـل مـا عـليـه ومـا فيه ومـا مـنـه داؤه أعـيـانـا
زمن تـرجـم السماحـة جبنـاً والإسـاءات قوة وجـنـانـا

أما البيت الأول فلا يعوزك الشعور بضعفه .. إنه كلام أهم ما فيه حروف الجر (على من فى ..) ولكن الجمال فى البيت الثانى حيث تجد نفسك مشاركاً للشاعر فى إحساسه بانعكاس مقاييس الحياة التى أفسدتها سياسة الغرب المادى .. ولعلّ (جنان) خطأ مطبعى صوابه (حنان) وإلا فهو تعبير عامى يريد به الشجاعة كما يقول الناس (فلان قوى القلب ..) فتكون من الكلمات التى ساقتها القافية وحشرتها حشراً كما حشرت قبلها (الصهيـانا) بدل الصهاينة لأن القافية قيد لا يرحم ! .. وهناك قبل ختام المقطع أبيات أحب أن أعرض بعضها عليك لترى كيف تخون الشاعر عبارته فيهوى دون غايته .

إنما الحرب بين أنـــداد قوم   لن تساوى أسودها الجرذانا

والشاعر يورد هذا البيت بعد ذكر صلاح الدين وركاردوس حيث تقابلت البطولات المتكافئة ليقول (إن التكافؤ مفقود هذه المرة بين أسود العرب وجرذان الصهاينة) ولكن يأبى اللفظ إلا أن يخون الشاعر فينعكس معه المعنى انعكاساً شاذاً يجعل الجرذان أقوى فى مقام التشبيه .

وعلى ذكر الصهيونية أقول إن الشاعر موفق جداً فى الإعراب عن احتقاره لهذه الشجرة الملعونة فاستمع إليه يقول فى المقطع الرابع بعد :

النـفـايات والحثالة من شذّ   إذ آفـاقـهـا خـنـا وهوانا
وإذا الأرض شىء يوماً فقاءت   لم تقىء مثل شعبهم غثيانا
بصقت نشأة الخليقة يوما   آفة شُبِّهتْ لنا إنسانا
قدر ساخر ودنيا ضحوك   أن ترى فى ثيابك الأفعوانا
نحن من أدفأ الأراقم حتى   أنشبتْ فى لحومنا الأسنانا

إلى آخر ما هنالك من صور يدعمها الشاعر بشواهد من التاريخ وأخرى من قصص التوراة ـ شمشون ودليلة ـ ومن قصص شكسبير ـ تاجر البندقية ـ ويسكب عليها من روح الحقد فيخرج من هذا وذاك تصاوير لاذعة تمس الوتر الحساس فى قلب كل عربى ـ غير يهودى ـ انظر إلى هذه الاستعارات (قاءت ، غثيان ، بصقت ، آفة ، أفعوان ، أراقم ..) إنها ليست ألفاظاً فحسب ولكنها مجموعة ألوان ليس أشد منها ملاءمة لتصوير النفس اليهودية . ولنغتفر للشاعر شىء مجهول (شاء) إنه قبيح حقاً ولكن الحسنات يذهبن السيئات . ولعلك تعجب معى كيف يزلق لسان الشعر بمثل هذا القول (قدر ساخر ..) وهو من عرفت ديناً وتُقى ، ولكنها روح العصر تطغى فيها تعابير المستهترين حتى تجرى على أقلام المتقين المتورعين .

ولا حاجة إلى لفتك لجمال البيتين (قدر ساخر .. نحن من أدفأ الأراقم ..) فهنا فكرة وصورة لا أحكم منهما فى رسم الواقع التاريخى لغدر النفس اليهودية التى أسبغنا عليها حمايتنا فكان لنا منها جزاء سنمار ... ثم هذا البيت الأخير من المقطع نفسه والموضوع نفسه :

وعزيز أنَّ المقاييس هانت   فتلاقى من كان يخشى عصانا

حقاً إنه لمؤلم موجع أن يتنمر الكلب ويستأسد الثعلب ! .

ولا مندوحة عن تنبيهك إلى طابع التشويش فى عرض الأفكار . فالشاعر يقفز فجأة ودون سابق إنذار من قصة شمشون وتاجر البندقية إلى إرسال مثل هذا الرأى :

وأرى الدين فى فم الناس فوضى أشبعوه مَسَبَّةً ولعانا

فنتساءل : ما علاقة هذا البيت بما تقدمه ، وما الذى دفع بالشاعر إلى حشره هنا وهو شامل للناس لا خاص باليهود وحدهم ! . ولكن يظهر أن الشاعر يريد بالناس اليهود .. وظلم أن يجعل اليهود من الناس . إذ يردف البيت بقوله :

ظلموك اليهود يا دين موسى جعلوا الدين الأصفر الرنانا

وترى أن قيود الوزن قد أكرهت الشاعر على لغة أكلونى البراغيث (ظلموك اليهود) واستهواء الأصفر الرنان حتى اضعف به نغمة البيت بإعادة حشو الخفيف (مستفعلن) البطيئة بدل (مفاعلن) الرشيقة كفعله فى عدد من الأبيات ، وقد يعتذر له عن (ظلموك اليهود) بأن مثلها ورد فى القرآن ، ولكنه عذر ضعيف لأن القرآن سابق للقاعدة وفيه تعابير لا يجاز لنا استعمالها لعجزنا عن مجاراته فى الدقة المتوخاة منها .

٤ ــ والمقطع الرابع موجه إلى أبطال العرب :

أيها الأسد !.. عِيل صبر الليالى فاحطموا القيد واسحقوا القضبانا

وفيه حملة على مجلس الأمن :

كيف نرجو الذئاب عطفا علينا او نرجّى من العدى الإحسانا
فيم تحكيمهم ، وما الأمر شورى إن عنى الأمر عرضنا وحمانا

وهى جملة تعرب عن شعور كل عربى أمام هذا التدخل الوقح ، ثم فى المقطع أسف محرق على تفريط العرب بالفرص الضائعة أيام كان فى وسعهم أن يكونوا شيئاً له قيمته فى ميزان العالم ! .

عجبى ... والأنعام تدرك أحيانا ونمضى فى الغى آنا فآنا
بين حربين من فناء وهلك كم نصرنا ــ على الزمان ــ عدانا
فأعنا السكون أبلغ عون وخذلنا الألمان واليابانا

أفلتت فرصة الزمان وهيها ت ، فما أعذر الزمان ولانا

وهو أسف يشترك فيه كل عربى ، ولكنه سيظل استفهاماً لا جواب له إلا عند الساسة الكبار !.. ويستصرخ الدم العربى :

يا شرايين من دم عربى سِمة الذل لم تكن سيمانا
وأرى للأبىّ صولة نفس لم تَحَمَّلْ فى عسرها الإذعانا

والبيت الثانى نظم لحكمة الإمام على (اتقوا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع)
ويلتفت إلى تراث الماضى ليثير فى نفوسنا حنين الذكرى إلى المجد المفقود :

يا جدوداً لنا على الغرب سادوا ثم مادوا وأشهدوا الميدانا
أمسكوا بالشراع فى مسبح الخلد وساروا وودعوا الصولجانا
منذ كانت خطى الخلائق تحبو علم الطير نسرُنا الطيرانا
كل معنى من المعانى جديد شَبْح ماض مضيع من علانا

ولنقف قليلاً على هذه الأبيات ففيها ظاهرة هامة من خصائص الشاعر تأمل فى قوله (ثم مادوا ..) أظنك ستشاركنى فى التساؤل عن مؤداه ، فأنا لم أجد فيه سوى كلام مرصوف دون مدلول ، وثق بأنك لن تجد له حلاً فى المعاجم ، إذ لا غرابة فى اللفظة لكن هناك اضطراب فى الفكرة ، وكأن فى نفس الشاعر صورة جية تتمخض عنها ولكن سرعان ما يخونه التعبير فتموت قبل أن ترى النور ، وليس صدر البيت من الأهمية فى شىء فهو معنى عادى فى تعبير مثله ، ولكن الجمال الحق فى الأبيات التالية الأخرى ... إنها وثبات رائعات مردها خيال مجنح فى استعارات جبارة . (أمسكوا بالشراع فى مسبح الخلد .. علم الطير نسرنا ..) ثم تذوق بروحك العربى هذا التعبير الموحى (... شبح ماض مضيع من علانا) ألا تحس مثلى بحرقة لاذعة تضغط على قلبك ؟.. إن هذا لهو الشعر المبين والله . ولكنا لن نغتفر للشاعر هذا التجوز (شبح) وهو يرى بين يديه كلمة (طيف) التى هى خير وأحسن تأويلاً . وأحب أن تنعم النظر فى الأبيات السابقة (بين حربين ...) إذ ترى خلوها من الاستعارات والمجاز مع امتلاء هذه الأخيرة منهما ، فسندرك من ذلك أن ثمة دليلاً على مقدرة الشاعر فى وضع الأشياء موضعها الملائم ، فهو يستعمل الحقيقة حيث يكون الفكر ، ويستعمل المجاز والصور البيانية حيث يكون الخيال ... وحبذا لو وفق الشاعر إلى هذا الانسجام فى سائر

منظومته .

ولا حاجة للكلام عن بقية المقطع فقد عرضت لك ما فيه من وصف بارع لليهود ، وليس فى باقيه ما يستحق الذكر ، ومن الخير أن تعلم أن النماذج التى قدمتها لك قد جمعتها من مختلف المواضع لأن التفكك ملازم لهذا المقطع ملازمته لأكثر القصيدة كما علمت ، فالفكرة الواحدة مبثوثة هنا وهناك ، وفى وسعك أن تجمع متفرقها كما فعلت وأن تقدم أو تؤخر فيها ما شئت دون أن تؤثر على نظام القصيدة .

٥ ــ وينتقل إلى المقطع الخامس ليستنجد بالبابا والعالم المسيحى ويذكر الدول النصرانية بآلام السيد المسيح وكفران اليهود كأن وثنية الغرب أو يهوديته قد تركت أثراً للرحمة المسيحية فى صدور هؤلاء الناس :

ياولى المسيح ... يا بابا روما ... لك نشكو الآلام والأحزانا
من لعيسى ؟... وصالبوه أضلوا ... سِمةَ الروح تنشد الديانا

وانظر إلى عامية النداء الثانى (يا بابا روما) ألم يكن فى وسع الشاعر أن يتجنب هذا التكرار فيعفى نفسه من ذلك التجوز فى حذف ثانى الساكنين من (بابا) حتى أصبحت (باب) ! . ولكن أذن الشاعر كما يظهر تستسيغ هذا الخلل إذ تراه يجرى على لسانه فى غير هذا المكان حيث يقول فى المقطع السابق (نبحت ضالة الكلاب علينا) فيجمع بين ساكنين فى الحشو وهو خروج على العروض ، وأنت ترى أن الشاعر رغم إسلاميته البارزة لا يتحرج من إستعمال التعابير المسيحية بشأن عقيدة الصلب مجاراة لعواطف النصارى كما يفعل شوقى فى مثل هذه المواقف .

ثم يمضى فى وصف السيد المسيح :

قمرى الجبين فى فضة الز ... ئبق يضفى إشعاعه إيمانا
سطعت هالة البتول مع الشمس ... فأزرت بضوئها لمعانا

وهى صورة بسيطة أكثر إستعاراتها من النوع القديم ولكن نغمة دينية من نفس الشاعر تجللها فتبرزها فى ثوب قشيب فاتن ، .. على أن (فضة الزئبق) شىء سخيف بالنسبة إلى جبين المسيح ... إنه انحدار من أعلى إلى أسفل رغم ما فى الكلمة من نعومة مغرية .

ويكثر فى هذا المقطع من الالتفاتات السريعة ، فمن الخبر إلى الإنشاء ، وبالعكس ، ومن الوصف إلى التقريع والوعظ ... وأجمل ما فيه :

لكفور بآى عيسى وموسى   والنبيين من بظلم رمانا
فدعوا موطن المسيح بخير   وسلام فإنه عيسانا
نحن حراسه القدامى وهذى   آينا فيه فاسألوا الفرقانا
لا تبيعوه لليهود حراما   بعدما ضاق باليهود وعانى

فهو فى هذه الأبيات يجمع بين العتاب والتقريع ، فينزع إلى المنطق فى الدفاع عن حق العرب والإسلام ، وقد رأيت بعض مظاهر هذا الأسلوب المنطق فى ما تقدم من الكلام على مجلس الأمن وأخطاء العرب فى معونة الحلفاء ... ولكنه قليل فى مجموع القصيدة .

٦ و ٧ – وننتقل الآن إلى المقطعين الأخيرين من القصيدة ، والشاعر يوجه الخطاب فيهما إلى قادة الشرق والعرب يحضهم على الاتحاد والاستفادة من كارثة اليوم ليجعلوا منها سبباً إلى القوة والتحرر من طغيان الغرب :

قادة الشرق والعروبة !.. هذى   محنة شاءها الإله امتحانا
وحدوا جبهة المشارق صفًّا   وعلى البذل وطنوا الوجدانا
واسحقوها قطيعةً جعلتنا   نهبة الذئب ينهش القطعانا

(والذئب ينهش القطعان) استعارة مألوفة ولكنها ملائمة بتمثيلها للفكرة ، وهو يدعو القوم إلى تعبئة سائر القوى وفى مقدمتها الأخلاق ، وتلاحظ أن ثانى البيتين التاليين كان حريًّا أن يضمّ إلى الثلاثة الآنفة مراعاة لنوع الأفكار بحيث تكون الصور المادية والصور المعنوية مجتمعة معا :

جندوا الفكر والمشاعر واسموا   بهوى النفس تأمنوا الخذلانا
واجعلوا من تكتل الشرق حصنا   يُرهب الخصم تدفعوا العدوانا

وهو يدعو مع الإصلاح الخارجي إلى الإصلاح الداخلى الذى يقوم على الشورى والفضائل واتباع سنن الصالحين :

واجعلوا الحكم فى الكفايات شورى   واستباق الأخلاق فينا رهانا

فصلاح الأمور فى عضد الكفء ووحى الأطهار من أوليانا

وبعد أن يتابع نصائحه للشرقيين حاثًا على المضى فى سنن الحذر والتقدم الواعى ، مذكِّراً بعواقب الغفلات الماضيات ، مكرراً أفكاره السابقة يستأنف نداءه مرة أخرى لرجال الشرق .

قادة الشرق !.. ما المشارق إلا مشرق الروح منذ ضاعت سمانا
جانب الطور حين جلله النو ر تجلى السنا على سينانا
ووميض من كهف غار حراء إن سجا الليل ما تلاه ضحانا
جنبات مطهرات رباها داعب الوحى فوقها أنبيانا
ما عزيز على المشيئة فيها أن نلقّى فى كل حين هدانا

وفى هذه الأبيات تمثيل موفق لإحساس الشاعر الدينى ، فى وسعك أن تضمه إلى الصور الدينية الأخرى التى مرت بك فى حديثه عن الآثار المقدسة وعن الأنبياء والأولياء ، وفى مناجياته لله حيث تدرك أن الشاعر يحس فى هذه الناحية مالا يكاد يحسه فى سواها ... ألا تلمس معى جمال هذه الألوان النورانية (مشرق النور .. جلله النور .. وميض .. داعب الوحى ..) ؟ إنها لكذلك ألوان عاطفية يسكبها الشاعر من روحه المؤمن على هذه الأماكن المقدسة فيعرضها فى تهاويل من الذكريات لا يتذوقها إلا المؤمنون المخبتون . وفيها كذلك دليل جديد على براعة الشاعر فى وصف النواحى المعنوية أكثر من النواحى المادية إذ هو يكتفى كما ترى بتسجيل الإيماءات التى تتفاعل فى نفسه أمامَ الموصوف دون العناية بتفاصيله الظاهرية ... الأمر الذى تلمسه فى كل ما مر ويمر بك من مواقف الوصف ، ومرد ذلك إلى قوة الخيال ورهافة الإحساس فى قلب الشاعر .. هذا الخيال الذى يستمد معينه من روافد العاطفة المتألمة والوجدان الدينى المتوفز ، والروح القومى الواسع الذى يستطيل وينداح حتى يتجاوز حدود مصر والعروبة إلى الشرق بأجمعه ، مما يذكرك بالوجدان القومى عند شوقى .

وتأمل كذلك فى هذا الأمل (ما عزيز على المشيئة ..) إنه نفحة من اليقين بالله الذى لن يضن على موطن أنبيائه بالهداية الدائمة .

والأبيات تجرى فى مستوى واحد من فخامة الأسلوب ونصاعة المفردات ولا يؤخذ عليه فيها إلا إضافة الكهف إلى الغار (كهف غار حراء ...) وهما واحد ...

ويحسن بنا أن نجرى مع الشاعر مرحلة أخرى فى هذا الأفق الروحى ، حيث نستشف معه حكمة الله من وراء الحجب :

(خلق الموت والحياة ليبلو أينا) فى الحياة أعظم شانا
(وذرانا فى الأرض) حتى إذا ما آذنت ساعة الحساب اقتضانا
يا أخى ! .. نحن للنبيين ركب ساير الركبُ قبلنا حسَّانا

إن الشاعر يلبس هنا مسوح الواعظين ليلقى علينا خطبة مسجدية ولكنها خطبة لها طعم وفيها أريج .... تنساب من القلب لتستقر فى القلب لأنها صورة قرآنية فى تعابير قرآنية .. وقد رأيت أثر الطابع القرآنى فى الأبيات السابقة (سجا الليل .. ما تلاه ضحانا) فهو شغف بالقرآن وتعابيره ... أما ركب النبيين وحسان فهو يمهد به للكلام عن نفسه وللاعتزاز بأدبه ونسبه :

فاسمعونى ... إنى سليل نبى وحفيد مهما الزمان رمانا
عربى اللسان والقلب والر وح وجدى الحسين من شفعانا

ومن كان كذلك جدير بالعرب والمسلمين أن يستمعوا إلى نصائحه ، لأنه لا يرسل الكلام للهو والتشبيب بل يستوحيه (من الروح والمدى والزمان) (كل شعر يجىء فيض شعور .. هو من نبعة الإله ... يتجلى بالعبقرى من المعنى وسامى الأهداف ...

فابعثوا عزة الرجولة فى الشعر فإن القصيد ماء حيانا ...
زمن لم يعد لعبل وهند بل لسيف تصول فيه يدانا ..

أما (عبل) هنا فهى كـ (شبح) هناك يحذف من تلك حركة الباء ومن هذه التاء كرامة للوزن كأنما ضاق بوجهه معجم العرائس الشعرية فلا ورد ولا دعد ولا من يحزنون ! . وأحب ألا تفوتنى الإشارة إلى ناحية هامة ذات صلة بشخصية الشاعر .. تلك التى يشير إليها بقوله (مهما الزمان رمانا) وفى بيت آخر قبل ذلك وهو قوله :

أنا من بات يكتوى بالمآسى فاعذروه إذا غدا ترجمانا

ففى اعتقادى أن الشاعر يكشف لنا بهذه اللمحات السريعة الرفيعة عن مصدر كبير من مصادر هذه العاطفة الدافقة التى تطبع قصيدته كلها .. إنها حزازات عميقة فى قلبه تنبع من ألم نبيل لاذع على حظه وحظ بيته ... ألم أرهف حسه ومدّ فى شأو عاطفته

حتى جعلت منه ناصحاً وواعظاً ومرشداً فى إخلاص لا حد له ، ولا غرو فى ذلك فالألم ذخيرة الشاعر الموهوب تجلى فى المتنبى عاصفة جارفة ، وفى ابن الرومى لهفة محرقة وفى حافظ دمعة كاوية .. وأخيراً لنتته مع الشاعر إلى خاتمة المطاف ، ولا حاجة بنا إلى الوقوف على فلسفته لحياة العصر (صراع لا ينقضى وسباق لا ينتهى وعين لا تنثنى ...) فقد عرفنا اتجاهه ومدى تفكيره فى هذه الناحية منذ المقطع الرابع .

إنه يختم قصيدته بهذه النجوى الحرّى لله :

رب !. ماكان غير جاهك ركنا لا ولا كان غيرك المستعانا
رب ، لم تعدم البرية خلقا سبحوا الله جهدهم سبحانا
فامنح الصالحين رحماك .. ... وخذ الظالمين بالظلم ...

إنها كما ترى صورة طبق الأصل لخطْبة المسجد تختتم بالدعاء ولا ينقصها إلا أن تبدأ بالحمدلة . ألم أقل إن صاحبنا شيخ من المؤمنين يتناول كل شىء من أمور الحياة حتى القوميات والوطنيات والسياسيات والاجتماعيات على طريقة المؤمن الذى (ينظر بنور الله) ولو أنت شئت أن تحصى الألفاظ الدينية والصوفية فى القصيدة لرأيتها منثورة فى سائر المقاطع .. ولو شئت أن تقارن بين مواطن السمو والهبوط فيها لرأيت الأول يكاد يكون موقوفاً على العواطف الدينية والآخر على النواحى التى يضعف أو ينتفى اتصالها بالدين ، ولا بد من التنبيه إلى أن الشاعر فى هذين المقطعين الأخيرين يحتفظ بأفضل خصائصه الشاعرية واللغوية والشخصية ، فالموضوعات أقرب إلى الوحدة والتجانس والأسلوب أتم محافظة على وحدة المستوى ، والعاطفة الدينية والقومية تبلغ مدّها الأعلى الذى تذوقناه فى مجموع القصيدة ، وقد لمست برهان ذلك فى النماذج التى عرضناها لك من هذين المقطعين .

ملاحظات عامة

لقد بسطت لك فى ما تقدم أهم الخصائص التى تميز القصيدة ، وقد تعمدت أن أضع يدك على هذه الأشياء فى مواطنها من القصيدة ، وكان فى الوسع أن أجعل الكلام على كل ناحية منها منفردة فى بابها الخاص ، ولكنى آثرت هذا المزج كيلا يتقطع بك سبيل الإدراك المباشر لأهم ما يتصل بدراسة النص فنبهتك إلى مظاهر القوة والضعف ،

وإلى مناحى السمو والهبوط وإلى المآخذ اللغوية بصورة عامة ، وحسب هذه الدراسة أن تعرض نموذجاً لمجموع القصيدة فى دقة وإنصاف .

وسترى إذا تأملت فى هذه الدراسة أن لديك صورة بارزة الخطوط لأغراض القصيدة ، وطريقة العرض والأسلوب ونفسية الشاعر ، بما فى هذه النفس من قوة العاطفة ومدى الخيال والثقافة الأدبية والفكرية التى تسعفه حيناً حتى يزحم الفحول ، وتخطئه حيناً حتى تراه حائراً لا يعرف أين يتجه ، فتتوزع قوته بين الإيهام والتفكك ، وقد رأيت من هذا وذاك أن الشاعر لم يوفق فى فن الملحمة بمقدار ما وفق فى تصوير العاطفة القومية والدينية ، وأن معظم أفكاره وتعابيره من النوع العادى المحافظ ، قلما تجد فيه ظاهرة للتجديد حتى إنه ليكتفى من ذكر السلاح ، وما أقله فى ملحمته ، بالسيف والمران وهو فى عصر الصاروخ والقنابل الذرية ،فقصاراه أنه يستطيع فى الغالب أن يثير فى نفس القارىء مثل تجربته النفسية فى موقفه أمام كارثة فلسطين وصور الأمجاد الزائلة من تاريخ العرب وأن يعكس فى خيالك صورة واضحة للمشاعر القومية التى تستحوذ على قلوب العرب فى عصرهم الحاضر..

أما أسلوب القصيدة فقد لاحظت ميله فى الغالب إلى الجزالة مع عذوبة الجرس وصفاء النغم ، إلى جانب أبيات وأجزاء أبيات ينحط فيها الأسلوب إلى مستوى النثر العادى ، ويكثر فيها التكرار للمفردات والتعابير ، فيذكرك هذا بأسلوب ابن الرومى الذى يتردد بين السمو والهبوط ، ويتميز بالإكثار من التكرارات مع الاحتفاظ بالفارق بين الشاعرين ، إذ يشفع بتكرار ابن الرومى انصرافه إلى الوحدة الموضوعية عن الصورة اللفظية .. ولا شىء من هذا عند شاعرنا .

وآخر ما نقوله فى هذه القصيدة أن ناظمها شاعر بروحه أكثر مما هو شاعر بفنه ، وأن أبرز مظاهر الضعف فى شعره ، يرجع إلى ضآلة حظه من الثقافة العصرية ، التى تضن عليه بالمعانى الكبيرة ، فيعرض عن ذلك باللجوء إلى انطباعاته عن الشعراء الأقدمين ، وإلى شعوره الذاتى المرهف الفياض بروح الحماسة ، إلى حد يذهلك عن الانتباه إلى مواطن النقص فى تلك الثقافة .

شعر المتنبى
فى ميزان الصاحب بن عباد

السخر لون من الأدب قديم ، رافق الشعر العربى منذ قام على قدميه ، ومرده إلى نوع من الاستخفاف لا يجد صاحبه سبيلاً للتعبير عنه إلا بالصور المضحكة ، وهو بذلك أشد وقعاً فى النفس من الهجاء الصريح القائم على التحقير المباشر. فقد يقذف الشاعر أو الكاتب مَهجوّه بلاذع الكلام ، فينال من نفسه أكثر مما ينال من خصمه ، إذ يسجل عليها الانسياق لسلطان من الغضب تضعف إرادته عن تصريفه ، ولكنه حين يعمد إلى السخر فإنما يدلل على هدوء فى أعصابه ، يمكن له من تتبع نقائص الخصم فى أناة توهمك بأنه لا يريد تفشيا ولا انتقاماً ، وإنما يريد عرض واقع من حق الناس كلهم أن يشركوه فى تعرفه .. ولهذا كان السخر فناً جميلاً يحقق من المتعة للقارىء والأديب مالا تحققه فنون التعبير الأخرى .

● ومع ذلك فللسخر ضروب تتفاوت فى ميزان الجمال ، تفاوت النفوس الساخرة ، وكثير من الأدباء لا يجد القدرة على إحسانه ، لأن نفسه من النوع الذى لا يأتلف غير الجد ، فإذا راح يؤلف الصورة أضحك من نفسه أكثر مما يُضحِك من خصمه ، وإلى جانب هؤلاء آخرون فِطروا على هذه الموهِبة ، فهم لا يجدون نصباً ولا التواء فى حوك ما يقصدون إليه ، فإذا هم يتحفونك بما يهزك طرباً ، وربما لا يعجزون أن يهزوا خصومهم بمثل هذا الطرب .

وللسخر الجميل صور ماتعة فى القرآن الكريم ، وفى كثير من النصوص العربية قديماً وحديثاً ، تأتى حيناً هادئة رخية ، وتأتى حيناً آخر عنيفة قوية ، وفى كلتا الحالتين تعمل عملها فى تحريك المشاعر وتحقيق الغرض . ومن الذين أحسنوا هذا الفن الحطيئة والأخطل وبشار وابن الرومى والمعرى ، ثم الجاحظ وولى الدين يكن .. وهناك واحد

من أدباء العصر العباسى لم يشتهر أمره بين الساخرين ، وقد ضرب فيه بسهم وافر يجعله واحداً من هؤلاء الذين يرضون هُواةَ هذا الفن . ذلك هو الصاحب إسماعيل بن عباد من نابغى القرن الرابع .

وقد رأيت أن أقف حديثى على عرض نماذج من سُخره البارع ، الذى ينم عن ثقافة أدبية عميقة ، وتصرف حاذق فى فن القول .

● ولد إسماعيل بن عباد عام ٣٢٦ هـ وتوفى عام ٣٨٥ هـ ونشأ فى جو من العلم والأدب أحاطه به والده ، ثم اتصل بأكابر علماء عصره وأدبائه ، فأفاد ثروة وافرة من الثقافة ، إلى جانب ذخيرةٍ من الخلق والعقل والصفات الكريمة ، مما رفعه إلى مرتبة الوزراء ، فكان يعين (ركن الدين بن بويه) ثم (فخر الدولة) أخيه مدى ثمانى عشرة سنة ، وكان شديد الإخلاص لهما ، نافذ الأمر عندهما ، ومؤيد الدولة هو الذى أطلق عليه لقب (الصاحب) .

أما ثقافته فحسبنا شاهداً على قيمتها قول عدوه (أبى حيان) فى كتابه (الإمتاع) الذى حشاه بالطعن على الصاحب ، يقول أبو حيان (كان الصاحب كثير المحفوظ حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدب شيئاً ، ومن كل فن طَرَفاً ، حسن القيام بالعروض والقوافى ، يقول الشعر وليس بزالٍّ وبديهته غزارة ..) ولا شك أن مثل هذه الثقافة تؤهل صاحبها للكلام فى الشعر ونقد معانيه وأساليبه ، وتسعفه بما يعوز الناقد من فنون الكلام ، عندما يتناول أحد الشعراء بتعديل أو تجريح .

وبهذا السلاح من الذكاء المثقَّف اقتحم الصاحب بن عباد حِمى المتنبى ، فراح ينقب بين ثناياه لاستقصاء سقطاته ، فى ألوان من السخر الناجح ، لا يتمالك قارئه إلا أن يقابله بالإعجاب الكثير ، والضحك الوفير .

● أبت عنجهية المتنبى وكبرياؤه إلا أن تترفعا عن مديح الصاحب ، وهو الذى كان بابه ملاذ المئات من شعراء التكسب ، فأثار بذلك حفيظة ابن عباد ، وهاج نقمته ، فكان لا مندوحة له عن تتبع عيوبه ، لِيُسهم مع خصومه فى الغض من قيمته ، فراح يستقصى مواطن ضعفه ، فى إنصاف حيناً وفى جور حيناً آخر ، وكان لمالىء الدنيا وشاغل الناسِ أنصاره المعجبون ، الذين لا يعدمون القدرة على الذياد عن حياضه ، لذلك وجب على الصاحب الواثق من نفسه ألّا يكتفى بالقول يرسله فى مجالسة

الخاصة ، فعمد إلى القلم ، وإذا هو يخرج لنا رسالته التى يسميها (الكشف عن مساوىء شعر المتنبى) .

والرسالة هذه صغيرة لا يتجاوز ما يخص المتنبى فيها الخمس عشرة من الصفحات ، ولكنها ذخيرة من بلاغة الصاحب ومقدرته فى النقد الساخر... نقرؤها اليوم فتستعيد جو الحياة الأدبية الماتعة ، التى كانت تُظِل عهد كاتبها ، وتتبين من خلالها دفقاتٍ من جيد الكلام تكاد تكون نسيج وحدها فى كل ما عرفه الأدب العربى من هذا الفن .

● ولنأخذ الآن فى استعراض طائفة من هذا السخر الطريف .

يقول المتنبى فى مدح سيف الدولة :

نحن من ضايق الزمان له فيك .... وخانته قربَك الأيامُ

فيمسك الصاحب بتلابيبه ثم يقول : (إنه بيت رقية العقرب أقرب إلى الإفهام منه ، فإن قوله (فيك) لو وقع فى عبارات الجنيد والشبلى لتناءت عنه المتصوفة دهرا ...

ورقيةُ العقرب هذه تذكرنا قول ابن الرومى فى شعر البحترى :

رُقى العقاربِ أو هذرُ البناة إذا أضحوا على شَعَفِ الجدران فى صخبِ

ويُقلِّب الصاحب نظره فى رثاء المتنبى لأم سيف الدولة ، وفيه من الفخامة ما يليق بجلال الملوك ، فإذا هو يقذف بالقهقهات المثيرة هنا وهناك ، ثم يسجل ملاحظاته فى مثل هذه الكلمات .. يقول الصاحب : ولما أبدع المتنبى فى هذه المرثية واخترع قال :

صلاةُ اللهِ خالقِنا حَنوطٌ على الوجه المكفَّنِ بالجمال

وقد زعم بعض من يغلو فى المتنبى أن هنا استعارة ، فقلت صدقت . ولكنها استعارة حِدادٍ فى عرس . ولا يفوتنا غرابة الحِداد فى عرس ، فهى من ابتداع الصاحب فيما أظن ، وقد بقيت ملكه حتى أخذها بدوى الجبل فقال :

ضحك الأمسُ فرنَّتْ فى الدجى ضحكةُ الثاكلِ فى ليلة عرسِ

ويقرأ الصاحب قول أبى الطيب :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

فلا يهمه ما فى البيت من سخف المعنى والمبنى ، بمقدار ما تسوؤه لفظة (حينئذ) لذلك يكشف عورتها وهو ينادى : (أنها ههنا أنفر من عَيَر منفلت)

وهكذا يصنع فى ذلك البيت الآخر الذى يتساءل به المتنبى عن الطلول :

أُســائـلـهـا عن المتـديِّـريها فما تـدرى ولا تـذرى دموعاً

فإذا هو يقبض على هذه (المتديِّريها) بكلتا يديه ويقول : (لو وقعت هذه اللفظة فى بحر صافٍ لكدرته ، ولو أُلقِىَ ثقلها على جبل سام لهدته ....

ولكم ثار فضول الناس حول قول أبى الطيب الآخر :

أُحـادٌ فى سـداسٍ فى أُحـادِ لُيَيْلَتَـنا المنوطةُ بالتـنادى !

فلم ينتهوا إلى الكلمة الأخيرة فيه حتى اليوم ، ولكن الصاحب لا يرى فيه إلا نوعاً من الهذر يجمع من الحساب مالا يدرك بالارثماطيقى ، وبالأعداد الموضوعة للموسيقى ، ثم يجهز عليه بهذه الطعنة النجلاء إذ يقول : هذا كلام الحكل ورطانة الزط .. وما ظنك بممدوح قد تهيأ للسماع من مادحه ، فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة والمعانى المنبوذة ! ..

وقد يقع الصاحب على كلمة بارعة قالها أحد النقاد فى شعر المتنبى ، فيكتفى بها معبراً عن رضاه ، كما صنع فى هذا البيت :

فما للنوى جُدَّ النوى ، قُطِع النوى كـذاك النـوى قطاعة لوصال !

فيورد عنه كلمة أحد شيوخ الأدب إذ يقول : (لو سلط الله على هذا البيت شاة لأكلت هذا النوى كله ...)

ثم استمع إلى قول المتنبى هذا :

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففى النـاس بوقاتٌ لها وطبول

وقديما شُغِل الشراح عن معنى هذا البيت بالجدل على (بوقات) .. بعضهم يصححها وبعضهم يخطئها ، أما الصاحب فينصرف عن كل هذا ليقول : (إن هذا التحاذق كغزل العجائز ، ودلال الشيوخ ..) ويحلق الصاحب فى فن التعبير ، حين يقع على قول المتنبى :

جواب مُسائِلِى : أَلَه نظيرٌ؟ ولا لك فى سؤالك لا .. ألالا

فإذا هو يعقب عليه بهذا السهم الذى شنى به واشتفى ، يقول : لقد سمعت بالتمتام ولم أسمع باللألاء ، حتى رأيت هذا المتكلف المتعسف ، الذى لا يقف حيث يعرف ...)

ويتابع الصاحب الساخر سقطاتِ أبى الطيب ، أو ما يراه هو سقطات ، بهذا المبضع الذى لا يرحم فما إن يصل إلى قوله :

عَظُمتَ فلما لم تكلم مهابةً تواضعت وهو العظم عظما عن العظم

حتى يصرح : (ما أكثر عظام هذا البيت ؟ ...)

وما أروع عبارته حين يعرض لقول أبى الطيب فى وصف أسير أخذ منه الخوف حتى هبط إلى مرتبة الأطفال فى اللفائف :

فغدا أسيراً قد بللتَ ثيابه بدم ، وبل ببوله الأفخاذا
فكأنه حسب الأسنةَ حلوةً أو ظنهـــــا البرنىَّ والآذاذا

وإذا علمت أن (البرنى والآذاذ) من التمر أدركت جودة التعليق الذى أتحفنا به الصاحب عندما قال : (لا أدرى أكان فى الحرب أم فى سوق التمارين فى البصرة ! .)

ولا ينكر ناقد منصف أن الصاحب لم يكن عادلاً فى جميع نقده للمتنبى ، فَشَدَّ ما جار عليه ، وكثيراً ما أبرز لآلئه فى صورة الخرز .. ولكنه لم يعدم التوفيق فى كثير من تجريحه . ولعل أفضل ما يقع عليه قارىء هذه الرسالة ، تلك النفحة التى بلغ بها قمة السخر الفنى حين يعرض قول أبى الطيب :

لو استطعت ركبتُ الناسَ كلَّهم إلى سعيد بن عبد الله بُعرانا

ثم يعقب بهذه الوخزة البارعة : (ومن الناس أُمه .. فهل ينشط لركوبها ؟ ! . والممدوح أيضاً لعل له عصبة لا يحب أن يُركبوا إليه ....)

● وبعد فهذه طائفة من طرائف تلك الرسالة التى تنفس عنها صدر ذلك الأديب الناقم من كبرياء أبى الطيب . وليس الصاحب بن عباد هو الخصمَ الوحيد الذى دفعه المتنبى إلى صفوف أعدائه بتعاليه وتعاظمه وعنجهيته ، ولكنه واحد من الذين يحسنون الرمى عن خبرة ... فليس بوسعه أن يحشره بين عضاريط الفسطاط وشُويعرى بغداد ...

ونحن إذ نستعرض غمزاته هذه لا يسعنا أن نؤيده فى كل ما ذهب إليه من رأى فى النماذج التى تناولها من شعر أبى الطيب ، ففى كثير من مآخذه تحامل بيّن لا يمكن الزعم بأن الناقد على جهل منه ، ولذلك اكتفينا من تلك الغمزات بما هو أقرب إلى الإنصاف ، وقليل من التروى فى تقويم هذه الأبيات المجروحة يؤكد صدق ما أطلقه الصاحب عليها من أحكام ...

ومن الحق أن نقول : إن الصاحب لم يستسلم لهواه بإزاء أبى الطيب إلى الحد الذى يخرجه عن كل تقدير له ، فإلى جانب هذه الطعنات القليلة إنصاف غير قليل عالج به مجموعة من أمثال المتنبى فى كتاب خاص لم يبخس فيه الشاعر الحكيم حقه ، وهو نفسه لا يهجم على المتنبى فى رسالته الساخرة هذه هجوم المنكر لعبقريته ، وإنما دفعه إلى تأليفها حديث دار بينه وبين بعض المتعصبين لأبى الطيب ، فقد سأله هذا عن رأيه فى شعره فأجاب بما يلى : (إنه بعيد المرمى كثير الإصابة ، إلا أنه ربما يأتى بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء ، فلم يرق ذلك للسائل بل تحداه أن يثبت زعمه كتابة ، فاضطُر إلى تأليف هذه الرسالة تسويغاً لما ذهب إليه ..

على أن من طرائف القدر أن يُبتلى الصاحب بمثل ما ابتلىَ به المتنبى من خصومته ... فلقد رماه الدهر بباقعة من فطاحل كتاب العربية ، لا يعجزه أن يجعل من الحق باطلاً ومن الباطل حقاً .... ذلك هو أبو حيان صاحب كتاب (الإمتاع والمؤانسة) الذى خص الصاحب بصفحات من النقمة المبدعة ، توشك أن تجعل منه ضحكة الأبد .

* * *

شعر شوقي
في ميزان النقد

ولد أحمد شوقى فى مصر عام ١٢٨٥ هـ وفيها توفى عام ١٣٥١ هـ ، وتعتبر هذه الفترة مطلع النهضة فى حركة الشعر العربى الحديث ، ويعد شوقى أكثر شعراء العربية إنتاجاً ، وقد أوتى شاعرية فياضة ومخيلة قوية دعمت بالعلم وغذيت بالأسفار ، ووراء ذلك طموح شديد إلى بلوغ أعلى ذرى القريض ، فهو يحاكى عدداً من أكابر شعراء العربية والفرنجة ففى شعره قوة المتنبى وروعة البحترى ، وعمق أبى تمام ، ورقة ابن زيدون . ويجارى من شعراء الفرنجة فيكتور هيجو فى السياسة والتاريخ والأساطير ، ولافنتين فى الحكايات الخرافية ، وكرناى فى المآسى التمثيلية وهو يريد أن يبلغ شأوهم جميعاً .

لذلك تعددت أغراض شعره ، ففيه التاريخ والسياسة والاجتماع والدين والوصف والغزل والمدح والرثاء والفخر والحكمة . وفيه الشعر التعليمى والتمثيلى . وهو فى كل أغراضه ذو طابع خاص يميزه عن جميع الشعراء ، الذين حاول محاكاتهم ، وإن كان يشبههم فى كثير من الخصائص .

١ ــ شعره السياسى :

تتفاوت نظرة شوقى السياسية تبعاً لظروفه الشخصية وظروف الحياة العامة . ففى المرحلة الأولى من حياته ــ حياة القصر ــ يدور مع رأى ولى أمره فيعادى خصومه ويصادق مؤيديه . لذلك نراه يحمل على أحمد عرابى ويعده خائناً :

صغار فى الذهاب وفى الإياب   أهـذا كل شأنك يا عرابى ؟

وهو يعبر بذلك عن نظرة البلاط إلى عرابى . وبمثل ذلك يواجه (رياض باشا) رئيس الوزارة لأنه أثنى على اللورد كرومر بكلمة أساءت إلى مصر وإلى الخديوى عباس

الذى كان شوقى شاعره :

خطبت فكنت خطباً لا خطيباً ... أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه ... وجرحك منه لو أحسست دامى

ولنستمع إليه يحمل على الأمير حسين واللورد كرومر والشيخ عبد الكريم سلمان بمناسبة سفر كرومر إلى بلاده ، وقد خطب هذا فى حفلة أقيمت لوداعه فهاجم الخديوى عباساً والمصريين على مسمع من حسين والشيخ دون أن يحركا ساكناً :

لما رحلت عن البلاد تشهدت ... فكأنك الداء العياء رحيلا
أوسعتنا يوم الوداع إهانة ... أدب لعمرك لا يصيب مثيلا
فى ملعب للمضحكات مشيد ... مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد الحسين عليه لعن أصوله ... وتصدر الأعمى به تطفيلا
جبن أقل وحط من قدريهما ... والمرء إن يجبن يعش مرذولا

ولكن من العجائب أن ينسى شوقى إساءة الأمير حسين هذا بعد حين ، فيمدحه ويمدح معه الإنكليز ، الذين خلعوا سيده عباساً وجاءوا بحسين سلطاناً مكانه على مصر . فيعتبر عمل الإنكليز هذا خدمة لمصر وحفظاً للوائها ، ويشبههم بالمسلمين الأولين ويسميهم الأحرار العادلين :

حلفاؤنا الأحرار إلا أنهم ... أرق الشعوب عواطفاً وميولا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ... ساروا سماحاً فى البلاد عدولا
وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها ... ملكاً عليها صالحاً مأمولا

والأغرب من ذلك أن يتوارد فى كلتا القصيدتين على روى واحد وبحر واحد دون أن يتذكر تناقضه العجيب !

ولكن شوقى لا يفوته أن يعتذر عن هذا التناقض بين أمس واليوم ، فالذى يهمه هو أن يظل الحكم فى آل محمد على لا فرق بين واحد وواحد منهم . لذلك يرى من الوفاء أن ينصر كل ذى سلطان يقوم من أبناء إسماعيل :

أأخون إسماعيل فى أبنائه ... ولقد ولدت بباب إسماعيلا !

وهكذا كان موقف شوقى من الأتراك فهو بدافع من عرقه التركى يرى الخلافة لا تصلح إلا لهم ، ويؤيد سياسة عبد الحميد فيعتبر عهده عهد الرحمة والعدالة والخير ، إلا أنه لا يرى بأساً أن تنتقل الخلافة إلى أخيه محمد رشاد بعد ذلك ، فيبايع هذا ويمدح الدستوريين الذى خلعوا عبد الحميد ! .. لأن المهم فى نظره أن يبقى السلطان للأتراك ، ولذلك نقم شوقى أول الأمر من الشريف حسين لثورته وتعاونه مع الإنكليز ، ولما ألغى مصطفى كمال الخلافة خشى أن توسد إلى الشريف حسين ، فأخذ يحذر المسلمين من ذلك ، ويصف الشريف حسيناً بالعجز والإضرار للمسلمين :

لا تبذلوا برد النبى لعاجز	عُزُلٍ يدافع دونه بالراح
بالأمس أوهى المسلمين جراحة	واليوم مدّ لهم يد الجراح

وعلى الرغم من انقطاع علاقة الأتراك بمصر والبلاد العربية ظل شوقى متصل القلب بهم يراقب حوادثهم ، وبهذا الحافز اندفع إلى مدح مصطفى كمال عند انتصاره على اليونان ، بقصيدة عارض بها (عمورية) أبى تمام ، فكانت صورة عن عواطفه نحو الأتراك ، وترجماناً عن شعوره العميق بالأخوة الإسلامية التى لا تفرق بين جنس وجنس :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب !	يا خالد الترك جدد خالد العرب
يوم كبدر فخيل الحق راقصة	على الصعيد وخيل الله فى السحب
غر تظللها غراء وارفة	بدرية العود والديباج والعذب
نشوى من الظفر العالى مرنحة	من سكرة النصر لا من سكرة النصب
حتى تعالى أذان الفتح فاتأدت	مشى المجلى إذا استولى على القصب

٢ ـ التطور فى أفكاره السياسية :

على أن تبدل الأوضاع السياسية فى البلاد العربية والإسلامية عقيب الحرب العالمية الأولى أثر فى عقلية شوقى تأثيراً كبيراً ، فقد عاد شوقى من منفاه فى الأندلس بعد الحرب ، فوجد كل شىء قد تغيّر ، فقل اتصاله بالقصر ، ويئس من موقف الأتراك بعد إلغائهم الخلافة ، فأتيح له بذلك أن يلتفت إلى الشعب المصرى وأن يتأثر بحوادث النضال الوطنى فى البلاد العربية . وهكذا بدأ مرحلته الجديدة كشاعر[١] للمجتمع ،

(١) الكاف زائدة ، والاسم المجرور بها محله الحال ، وهو من فصيح الكلام .

ومذ ذلك العهد أقبل شوقى على الاهتمام بقضايا الشعب المصرى والأمة العربية ، يسجل آلام العرب وآمالهم وكفاحهم فى شعر وجدانى رفيع .

وقد تفتقت بواكير حنينه إلى وطنه أثناء نفيه عنه ، ففى المنفى نظم شوقى طائفة من أروع شعره الوطنى الخافق بالعواطف :

وسلا مصر : هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسى !
وطنى لو شُغِلْتُ بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وهكذا اتجه همّ شوقى إلى الدفاع عن مصر وحريتها ، فيرسل أشعاره الثائرة هجوماً على الأجنبى وتنديداً بأعماله ، وإثارة للأحزاب المصرية إلى التعاون ونبذ التخاصم :

إلام الخلف بينكمو إلام وهذى الضجة الكبرى علام ؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما ؟

وفى هذا الجو الجديد من حياة شوقى ينسى حملته على الشريف حسين بالأمس ، ويرثيه بقصيدة من خير شعره ، حتى لَيَشغَل بمأتمه السماء والأرض :

لك فى الأرض والسماء مآتم قام فيها أبو الملائك هاشم

وبديل التهم الجارحة التى وجهها إليه فى خروجه على الخلافة يعود الآن ليفرغ على عمله طابع القداسة ، فيشبهه بالحق الذى يؤلف بين المؤمنين :

أنت كالحق ألف الناس يقظا ن وزاد ائتلافهم وهو نائم

ويعتبر ثورته إلى جانب الإنجليز موقفاً يستحق أحسن المديح :

حبذا موقف غلبت عليه لم يقفه للعرب قبلك خادم

ولذلك لا يرى كفؤاً لغسله إلا وضوء النبيين ، ولا لتكفينه إلا رقعاً من مواضع صلواتهم ، ولا يصلح لضم جثمانه إلا نعش مؤلف من أعواد المنبر النبوى ، ولا لحمله إلا ظهر البراق الذى كان مركب الرسل من قبل :

اغسلوه بطيب من وضوء الر سل كالورد فى رباه البواسم
وخذوا من وسادهم فى المصلى رقعة كفنوا بها فرع هاشم
واستعيروا لنعشه من ذرى المنبر عوداً ومن شريف القوائم
واحملوه على البراق إن اسطعتم فقد جل عن ظهور الرواسم

على أن أروع ما انطوت عليه تلك القصيدة حديثه عن واقع المسلمين تحت أوزار الاستعمار ، وما خبره من مغامرة المرئى فى نصرة هؤلاء الأراقم :

قـم تحدث أبـا على إلـيـنـا كيف غامرت فى جوار الأراقم
كـلـنـا وارد السّـراب ، وكـل حـملٌ فى وليمة الذئب طاعم
قد رجونا من الغنائم حظاً ووردنـا الوغى فكنا الغنائم

وأكثر ما يتجلى هذا التطور فى قصائده التى يسجل بها كفاح دمشق وسورية فى طلب الحرية ، ومن أشهر شعره الجديد قصيدتاه عن دمشق (سلام من صبا بردى ..) و (قم ناج جلق ..) وفى كلتيهما يقف شوقى موقف المؤرخ الواصف الناصح المحرض :

ألست دمشق للإسلام ظئرا ومـرضـعـة الأبـوة لا تـعـق
بنى سوريـة اطّـرحوا الأمـانى وألـقوا عنكم الأحلام ألقوا
فمن خدع السياسة أن تغروا بـألـقـاب الإمـارة وهى رق
وقـفتم بين موت أو حـيـاة فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
ولـلـحـريـة الحمـراء بـاب بـكـل يـد مضرجة يدق

وهكذا أصبح شعر شوقى وتراً حساساً يسجل جميع الاهتزازات التى تعترى البلاد العربية فلا تجدُ حادثة من حوادثها السياسية إلا تركت آثارها فى قلبه وشعره . فهو بذلك صاحب فكرة توجيهية تستهدف بعث الحمية بتذكير العرب ماضيهم المجيد ، ودفعهم إلى بناء حاضرهم الجديد ، وإلى هذا يشير بقوله :

كان شعرى الغناء فى فرح الشر ق وكـان الـعـزاء فى أحزانه

وليس الشرق فى نظر شوقى إلا وطن العرب والإسلام ، تربطه به روابط اللغة والتاريخ ثم الآلام والآمال المشتركة :

نصـحت ونحن مختـلـفون داراً ولـكـن كـلـنـا فى الهم شرق
ويجمعنا ـ إذا اختلفت بلاد ـ بـيـان غير مختلف ونـطـق

٣ ـ شعر شوقى الاجتماعى :

والاجتماعيات عند شوقى ممزوجة بشعره السياسى والتاريخى أو مستقلة فى قصائد خاصة ، وقد أفرد لهذه الأغراض الثلاثة باباً خاصاً فى ديوانه .

وتتفاوت أساليب شوقى فى الاجتماعيات ، فبعضها أناشيد للأحداث ، وبعضها حكايات خرافية على ألسن الحيوان ، وبعضها الآخر يتناول موضوعات عامة ممّا يتصل بحياة المجتمع مباشرة ، كالمرأة والتعليم والعمال والأخلاق والعلاقات الدينية وغير ذلك .

أ ـ المرأة : كان موضوع المرأة : تعليمها وحجابها وسفورها ، من مشاكل العصر أيام شوقى ، لذلك لم يجد مندوحة عن الكلام فى هذا الشأن فهو يرى أن تعليم المرأة أمر لا بد منه لإنشاء الجيل الصالح :

وإذا النساء نشأن فى أمية	رضع الرجال جهالة وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أبواه من	هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له	أماً تخلت أو أباً مشغولا

ويا ليته وقف عند مثل هذه الجوانب الهامة من قضية المرأة ، فوعظ وأرشد وأصلح ، ولكنه لم يستطع فزج بنفسه إلى مواقف لم يحسن التخلص منها ، إذ راح أولاً يؤيد ميول البلاط بالدفاع عن الحجاب ، ثم لم يلبث أن انساق فى التيار الذى ألفه فى أوروبة والبوسفور ، فانقلب يزين للمرأة سبيل الزيغ ، الذى بدأ فى مصر منذ الاحتلال

الفرنسى ، ثم استأنف مسيرته على يد السافرة الأولى هدى شعراوى ...

ب ـ الدين فى شعر شوقى : ويرى شوقى كيف يستغل الأجنبى الفوارق الدينية بين أبناء وطنه ، فيهاجم التعصب ويدعو إلى الأخوة ، ويلفت نظر المواطنين إلى الأهداف الإنسانية المشتركة بين المسيحية والإسلام ، صيانة للمجتمع من التفكك الذى يستهدفه العدو ، وكثيراً ما يكرر شوقى هذه المعانى توكيداً لها ، كما يفعل فى مدح السيد المسيح والإشادة برسالته الإنسانية القائمة على المحبة والرحمة :

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحيـــــاء
وسرت آية المسيح كما يسرى من الفجر فى الوجود الضياء

وكما تعثر شوقى فى ميدان المرأة أخذه (الشطح) فى ميدان التزلف إلى أصدقائه من النصارى ، فأكثر من التعابير النصرانية ، وخص الصليب بالكثير من الرعاية فى أكثر من قصيدة .. حتى إن المدقق فى معانيه هذه لا يكاد يحس فرقاً بين لهجته تلك ولهجة أى نصرانى يؤمن بهذه المصطلحات .

ولا غرابة فشوقى مأخوذ بجواذب البيئة التى افتعلتها السياسة فى مصر وغير مصر من البلاد العربية ، التى حاول رجال السياسة المسلمون فيها إحباط للساعى الاستعمارية لاستغلال الأقليات المسيحية ، فراحوا يتزلفون إلى هذه الأقليات بكل ما يظنونه محققاً لأهدافهم الوطنية ... ولو أدى ذلك إلى تقديس ما يعتبر فى عقيدتهم الإسلامية من المنكرات بل المكفرات ...

وبمثل هذا الاندفاع غير الواعى استسلم شوقى لبعض الأفكار غير السليمة فى مدائحه النبوية ، فشوه جمالها بتلك الانحرافات ، التى التقطها من ألسنة (الدراويش) وكتبهم .. دون أن يسمح لعقله بالتفكير فى محتوياتها الشاردة عن نطاق التوحيد .. وحسبنا أن نشير من ذلك إلى قوله ــ فى نهج البردة ــ مخاطباً رسول الله ﷺ :

ألقى رجائى ــ إذا عز المجير ــ على مفرج الكرب فى الدارين والغُمَمِ
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة الندم

وقد نسى شوقى فى غمرة التقليد ألا مفرج لكرب إلا الله ، وأن عبرة الندم لا تسكب إلا بين يديه سبحانه .. كما علمنا رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

وأبعد فى التقليد من ذلك قوله فى همزيته :

ما جئت بابك مادحاً بل داعياً ومن المديح تضرع ودعـــــاء
أدعوك عن قومى الضعاف لأمة فى مثلها يلقى عليك رجاء

ومثل شوقى لا يعذر إذا جهل قول رسول الله ﷺ (الدعاء هو العبادة) و (الدعاء مخ العبادة) ولكنه التقليد الضرير الذى يحشر العقلاء فى زمرة السفهاء .

ولعل وصفه رسول الله ﷺ فى هذه الهمزية بمثل قوله :

الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء

لا يقل تخبطاً عن زلاته تلك ، فهو بهذا النعت يسىء إلى رسول الله ﷺ من حيث يظن أنه يمدحه ، كأولئك ﴿ **الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾ . وليت شوقيّاً تأخرت به الأيام إلى عهود (الثوريات الاشتراكية) وشاهد ما لقيت أمته على أيدى هؤلاء الاشتراكيين من الذل والعار والضياع .. إذن لعض يديه ندماً على ما فرط .. ولحاول تدارك ما تفلت به لسانه بقصائد تكفر بعض هاتيك السيئات .

ومما يلفت النظر فى هنوات شوقى هذه أنها تلاحقه فى معظم إسلامياته حتى ليقول للسلطان عبد الحميد عليه رحمة الله :

بحمد الله رب العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنينا

فيسوى فى استحقاق المحمدة بينه وبين الله عز وجل ، دون أن يفطن لخطر التعبير ، الذى حذر منه رسول الله ﷺ أشد التحذير ، حين قال للرجل الذى سوى بين مشيئة الله ومشيئة رسوله : « أجعلتنى لله نداً ؟ ... قل ما شاء الله ثم شئت » .

٤ ـ شوقى والعمال :

ويدعو شوقى لإتقان العمل ، ويرى أن العمال المتقنين هم عمار الأرض ، لذلك يحث عمال مصر على الجد والاتقان ، ويذكرهم بماضى أجدادهم وما تركوه من آثار عمرانية رائعة ، ليستعيدوا بعزائمهم ذلك العهد المجيد :

أيها العمال : أفنوا العمر.... كداً واكتسابا
واعمروا الأرض فلولا... سعيكم أمست يبابا
إن للمتقن عند الله والناس ثوابا
أرضيتم أن ترى مصر من الفن خرابا
بعدما كانت سماء للصناعات وغابا

٥ ـ الأخلاق فى نظر شوقى :

كان شوقى كثير الدعوة إلى الأخلاق يراها الأساس الأول لقوة الأمة ، وقد حرص على ترديد هذه الدعوة فى كثير من قصائده ، ومن مشهور أقواله فى ذلك :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهذا الرأى فى قيمة الأخلاق دعاه إلى مخالفة القول المألوف (الحق للقوة) إذ راح يذكر القائد الصليبى الجديد ، اللورد (اللنبى) بأن للحق لا للقوة الغلبا ..

وهناك قصائد عديدة من شعر شوقى الاجتماعى يتغلغل بها إلى صميم القضايا الإجتماعية الوطنية والإنسانية تتفاوت فى مقدار حظها من الجمال . ومن أروعها قصيدة (مصاير الأيام) وفيها يتحدث عن حياة الطفولة والمدرسة ، و (مملكة النحل) وفيها يضرب المثل للجد وأثر العمل فى ميزان الحياة .

وبالإجمال فشوقى فى شعره الإجتماعى مصلح يريد الأمة قبل الفرد . وقد بلغ من أمره هذا ما جعله شاعر الشعب بل شاعر الشرق الإسلامى كما يقول أحد دارسيه .

٦ ـ شعره الوصفى :

للوصف فى شعر شوقى نصيب كبير وفى وصفه روائع حلق بها إلى آفاق بعيدة ، ويعتبر من أبرع الوصافين فى عصر النهضة وبخاصة من حيث الصور المادية التى كان بها أكثر توفيقاً منه فى الصور المعنوية .

ومن وصفه القديم كوصف الخمرة والمرأة والطبيعة ، ومنه الحديث كوصف الرقص والطيارة والغواصة وحضارة الغرب ، وقد تناول فى وصفه بعض الموضوعات المطروقة من قبل فأخرجها فى صور جديدة بارعة ، كوصفه آثار الفراعنة والحرب والمدن المنكوبة ، وهو غنى الصور فى وصفه يمتاز بسعة الخيال ووفرة الألوان ، ولعل أفضل وصفه ما قصد به إلى العبرة والموعظة ، كوصفه نكبة دمشق والمسجد الأموى وقصر الحمراء .

ولقد فتن شوقى بجمال دمشق فهو يراها جنة من جنان الله ، بل هى بالنسبة للأرض حديقتها التى تسكب عليها الجمال ، وبردى فى نظره حارس هذه الجنة ، يخرج مصفقاً لاستقبال نزلائها ، أما غوطتها فهى زمردة خضراء ، وليست متنزهاتها إلا ملاعب ومسارح ...

جرى وصفق يلقانا بها بَرَدى كما تلقاك دون الخلد رضوان

دخلتها وحواشيها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقيان

والحَوَرْ فى دمرّ أو حول هامتها حُور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد فى جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان
وقد صفا بردى للريح فابتردت لدى ستور حواشيهن أفنان

هكذا يمضى شوقى فى هذا الوصف المترف لدمشق ، فيجمع فيه من الألوان والظلال وصور البهجة واللهو ما يعبر عن طبيعته المشبعة بالترف النزاعة إلى اللذائذ .

وإذا وقف شوقى أمام آثار مصر القديمة غَمَره الخشوع ، وتفاعلت نفسه بذكريات حزينة على مجد ضائع ، وحاضر فاجع ، فيعرض ما يراه من تلك الآثار ممزوجاً بأحاسيسه النفسية ، فى صور دقيقة تفرغ الحياة على تلك الجمادات . فلنستمع إليه يصف هيكل أنس الوجود بأسوان وقد غرق بعضه فى الماء ، وانتصب بعضه فى الفضاء :

أيها المنتحى بأسوان داراً كالثريا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع لا تحاول من آية الدهر غضا
قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون مازال غضا

وليست أطلال العرب بأقل أثراً فى نفس شوقى من أطلال الفراعنة ، ففى كلتيهما ما يوقظ أساه على ماضى هذه الأمة ، التى خسرت أمجادها ، فلم يبق لها منها سوى هذه الأطلال المحركة لعميق الذكريات .

هاهو ذا يصف قصر الحمراء فى الأندلس ، فتكاد تلمح الدموع تجول فى مقلتيه ، وتسمع الآهات تسيل على شفتيه :

مشت الحادثات فى غرف الحمرا ء مَشْىَ النعىِّ فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس
وترى مجلس السباع خلاء مقفر القاع من ظباء وخُنس
مرمر قامت الأسود عليه كلّة الظفر لينات المجس

وكدأبه فى مثل هذا الموقف تتداعى فى خياله صور الماضى ممزوجة بعبر الحاضر ، فيعرض هذا المشهد التاريخى الرهيب لخروج آخر فوج لمسلمى الأندلس :

خرج القوم فى كتائبَ صمٌّ ... عن حفاظ كموكب الدفن خُرس
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت ... تحت آبائهم هى العرش أمس

فهذا وصف دقيق عميق ، تمتزج فيه المعنويات بالمحسوسات ، امتزاجاً حياً مؤثراً يبعث الروح فى أطلال الماضى بما فيها من الروعة والرهبة .

أما وصفه لمظاهر المدنية الحديثة ، فلا نكاد نلمس من خلاله ما ألفناه من ذلك التأثر العميق الذى نحسه فى وصفه لآثار العرب والفراعنة ، أنظر إليه يصف الغواصة تجده يدقق فى وصف خطرها ، وتتبع حركاتها ، وسرعة عملها ، دون أن تحس بحرارة العاطفة :

بعث البحر بها كالموج من ... لجج السند وخلجان الخزر
ضربتها وهى سر فى الدجى ... ليس دون الله تحت الليل سر
وجفت قلباً وخارت جوءاً جوءاً ... ونزت جنباً وناءت من أُخَر
طُعنت فانبجست فاستصرخت ... فأتاها حَيْنها فهى خبر

فهو وصف معركة بين الغواصة والسفينة يروعنا بقوة تعبيره دون تأثيره . ومثل ذلك ما نراه فى وصفه للطائرة ، فهى لا تخرج عن كونها مركباً عجيباً ، أشبه بالجواد ، ملجماً مهيأً للركوب فى كل لحظة :

مركب لو سلف الدهر به ... كان إحدى معجزات القدماء
نصفه طير ونصف بشر ... يا لها إحدى أعاجيب القضاء
مسرج فى كل حين ملجم ... كامل العدة مرموق الرواء

٧ ـ الرثاء فى شعر شوقى :

أكثر شوقى من الرثاء حتى عيب عليه ذلك فرد عن نفسه مدافعاً :

يقولون : يرثى الراحلين . فويحهم ... أأملت عند الراحلين الجوازيا ؟

لم يتكسب برثائه ولكنه لم يرث بدافع من الحزن وحده ، بل هناك دوافع شتى ، كالمجاملة وحب الشهرة . ومرثيوه من طبقات مختلفة ؛ سياسيون وأدباء وأجانب .. ومن خصائص رثائه ضعف العاطفة ـ حتى فى أبويه ـ ثم التفلسف وكثرة الحكم ، تقليداً للقدامى ، فهو رثاء عقلى واعٍ ، يقوم على هذه العناصر مضافاً إليها تعداد المناقب

والمآثر . لنستمع إليه يرثى والده فينسى وصف حزنه بهذا التفلسف البارد :

أنا من مات ومن مات أنا   لقى الموت كلانـــا مـــرتين
نحن كـنـا مـهـجـة فى بـدن   ثم صرنـا مـهـجـة فى بـدنين

وتموت أمه وهو منفى فلا يتمالك أن يتخذ من موتها فرصة لمعارضة قصيدة المتنبى فى جدته قافية ووزناً ومعنى ، فيصيبه الإخفاق لما يبدو على قصيدته من التقليد الباهت ، وبخاصة فى الحكمة التى حاول أن يحاكى بها المتنبى ، فجاءت فارغة جوفاء أو مسروقة محرفة :

إلى الله أشكو من عوادى النوى سهما   أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى
ولم أر حكمـاً كـالمقـادير نـافذاً   ولا كلقاء الموت من بينها ختما
إلى حيث آباء الفتى يذهب الفتى   سبيـل يديـن العالمون به قدما
زجرت تصاريف الزمان فما يقع   لى اليوم منها كان بالأمس لى وهما

وهكذا تخون العاطفة شوقياً فى رثاء أقرب الناس إليه ، فلا ينتظر أن يكون أشد عاطفة فى رثاء الآخرين .

ولكن هذا لا يمنعه أن يجعل من بعض مراثيه صوراً بارعة ، تهز النفوس بما فيها من قوة الحبك وروعة العبرة ، كالذى نجده فى رثائه لسعد وعمر المختار والحسين وفوزى الغزى ، ولقد يبالغ فى بعض هذه المراثى كما يصنع فى سعد على طريقة أبى تمام :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها   وانحنى الشرق عليها فبكاها
لـيـتنى فى الـركب لما أفـلت   يوشـع همت فـنـادى فثناها

ولكنها مبالغات مقبولة فى هذا الموقف ، إذ تمثل هول الفاجعة بقائد ركزت عليه الدعاية أنظار مصر والبلاد العربية جميعاً .. ثم يأخذ فى تعداد مناقب سعد وأثر موته ...

طـافت الـكـأس بسـاق أمـة   من رحيق الوطنيات سقاها
عـطـلت آذانها من وتـر   سـاحـر رن مـلـيـاً فشجاها
قـدر بـالمدن ألـوى والـقـرى   ودها الأجيال منه ما دهاها

ومن خصائص شوقى فى رثائه أنه يتحدث إلى الأموات فيسألهم ويخبرهم ، فهو

يخاطب الحسين بن على فيسأله عن السبب الذى دفعه إلى التعاون مع الانكليز :

قم تحدث أبا على إلينا كيف غامرت فى جوار الأراقم

ويسأل رياض باشا عن أسرار الموت :

رهين الرمس حدثنى مليا حديث الموت تبد لى العظات
سألتك : ما المنية ، أى كأس وكيف مذاقها ، ومن السقاة !

ويلاحظ أن شوقياً إنما يلجأ إلى ذلك التهويل وهذه التساؤلات والتأملات ستراً لنقصه العاطفى فى مواقف الرثاء . على أن أجمل رثائه ما بكى فيه ممالك المسلمين ومدنهم المنكوبة كالحمراء ودمشق وأدرنة ، وما بكى فيه زوال الخلافة على يد أتاتورك . ففى هذه المراثى يذوب قلب شوقى حسرة وألماً ، فيأتى رثاؤه نابضاً بالحس ماثجاً بالحياة . وأنى لشاعر غير شوقى أن يعرض مسجد بنى أمية فى مثل هذه الصور الحزينة العميقة الباكية :

مررت بالمسجد المحزون أسأله هل فى المصلّى أو المحراب مروان ؟
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعُبدان
فلا الأذان أذان فى منارته إذا تعالى ، ولا الآذان آذان

وأنّى لغير الأعلين من فحول الشعراء أن يرتفعوا بمعانيهم وأخيلتهم وصياغتهم إلى مستوى الكارثة الكبرى المتمثلة بسقوط الخلافة ، كما صنع شوقى ؟

لقد أنشد فى انتصار الطاغية على أوشاب اليونان أحفل قصائده بألق البهجة والاعتزاز ، فلما فوجىء بانقلابه المجرم على خلافة المسلمين ، لم يستطع أن يحبس مشاعره الثائرة ، فانطلق يندب تلك العروس التى اغتيلت ليلة الزفاف ، بأيدى الذين تظاهروا بإنقاذها من أيدى أعدائها ، وقد أعماهم الهوى حتى نسوا أن التى بها يفتكون إنما هى وشيجة فخرهم ومرتكز مآثرهم وأمجادهم ، فعزَّهم يهدمون ، وشرفهم يثلمون ، ووحدة المسلمين يمزقون :

يا لَلرجال لحرة موءودة قتلت بغير جريرة وجناح
إن الذين أست جراحك حربهم قتلتك سلمهمو بغير جراح
هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم مَوْشِيةً بمواهب الفتاح
وعلاقة فصمت عرى أسبابها كانتْ أبر علائق الأرواح

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم في كل غدوة جمعة ورواح

وفي غمار النكبة لا يفوته أن يوجه إلى العالم الإسلامي ، وبخاصة الشعب التركي ، بعض ما يستحقه من التقريع ، على ما أحاط به ذلك الغادر من أمواج الحب والإعظام ، التي أوهمته أن المسلمين سيصفقون لكل قرار يصدره ولو كان فيه تخريب الكيان الإسلامي بأسره :

تركته كالشبح المؤلّهِ أمة لم تسلُ بعد عبادة الأشباح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهمو حتى تناول كل غير مباح

ويا لها وثبة عبقرية تلك التي تطل بشوقي على ما وراء مصرع الخلافة من فتوق ، تفتح على العالم الإسلامي مالا يمكن حصره من الآفات والكوارث ، التي كانت الخلافة الناظمة لوحدة المسلمين هي الحاجز الواقي دونها ، فبزوالها سيكون المسلمون فريسة لكل طامع ، ونهبة لكل فتنة يثيرها الدجالون من المتقاتلين على تركة الخلافة :

مَن قائل للمسلمين مقالة لم يوحها غير النصيحة واحي
فَلَتَسمعُنّ بكل أرض داعياً يدعو إلى (الكذاب) أو لـ (سجاح)
وَلَتَشهدُنّ بكل أرض فتنة فيها يباع الدين بيع سماح

ويأبى القدر إلا أن تتحقق توقعات شوقي فتمتلىء دنيا المسلمين خلال نصف قرن بالعشرات من أمثال (مسيلمة) وصاحبته (سجاح) ... ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ..

٨ ـ شعر شوقي التمثيلي :

كان اللبنانيون أسبق الجميع إلى معالجة الفن المسرحي تقليداً للغربيين ، وقد سبقوا إلى ترجمة المسرحيات الغربية ، وإلى تمثيل بعضها ، ثم ما لبثوا أن اتجهوا إلى وضع المسرحيات نثراً وشعراً .

ولما جاء شوقي كان الشعر التمثيلي العربي لا يزال يحبو في دور الطفولة ، وكان شوقي قد تشبع بهذا الفن بما قرأ من التمثيليات الغربية وبما شهد منها على المسارح الأجنبية ، مما أحدث في نفسه ميلاً إلى معالجة هذا الفن ، فكانت أولى محاولاته في فرنسا ، إذ وضع أول تمثيلية ولكنه لم ينشرها ، وانصرف عن ذلك الاتجاه زمناً حتى أتيح له أن يعود إليه

بعد عودته من المنفى ، وهنا أخذ شوقى فى وضع تمثيلياته الشعرية التى قفزت بشهرته إلى الأوج ، وكانت بنفسها حدثاً أدبياً كبيراً فى عالم الشعر العربى الحديث ، دفعه إلى ما نحسه اليوم فى هذا الفن من حيوية تضمن له البقاء . ويمكن حصر هذا التأثير فى ثلاثة أشياء :

أ ـ فى الوزن : كان الشعر التمثيلى قبل شوقى مقيداً بوحدة البحر فى مجموع التمثيلية ، فحطم شوقى هذا القيد ، وجعل تمثيليته متعددة الأوزان يتنقل بها بين البحر والبحر ، فيكسبها مرانة وحرية ..

ب ـ القافية : وكانت القافية فى الشعر التمثيلى قبله واحدة فى مجموع المسرحية ، مما يبعث الملال فى نفس القارىء والناظر ، فحطم شوقى هذا القيد الآخر ، إذ خرج بأشعار التمثيلية من القافية الواحدة إلى القوافى المتعددة ، فى رشاقة محببة تبعث فى التمثيلية القوة والحياة .

جـ ـ الحوار : وكذلك كان الحوار قبل شوقى فى جمود يخالف طبيعة الحياة ، وذلك أن شخص القصة لا يتم عبارته فى أقل من بيت ، فأجهز شوقى على هذا القيد الأخير ، فإذا هو يتصرف فى الحوار تصرفاً بارعاً ، فيوزع البيت الواحد أحياناً بين عدة متكلمين من شخصيات القصة .

وهكذا نرى لشوقى فضلاً لا يجحد فى إخضاع الشعر لفن التمثيل ، فقد حرره من ثقل القيود فخالف فى أنواعه ، وخالف فى أوزانه ، وخالف فى قوافيه ، وذلل مطية الحوار ، فقربه من طبيعة الواقع ، وبذلك اتسع أمامه مجال القول وانطلق له عنان الفكر والخيال ، وقد ساعدت شوقياً على مهمته هذه شاعريته المتدفقة ، التى حجبت الكثير من نواحى ضعفه فى هذا الفن ، فقد ينقصه التوفيق الفنى فى بعض مشاهد تمثيلياته ، ولكنه يعوض عن ذلك بوثبات شعرية رائعة تأخذ بلب السامع والقارىء ...

ومن خصائصه فى تمثيلياته أن شعره يتلاءم مع مواقفه العاطفية فيلين موضع اللين ، ويشتد موضع الشدة ، ويغرق بالصور البدوية عندما يعالج الموضوع البدوى ـ كمجنون ليلى ـ وبالصور المصرية القديمة عندما يعالج الموضوع المصرى القديم ـ مثل كليوباترة ـ وفى جو هذه الألوان المتوافقة المنسجمة يكاد الناقد ينسى مواطن الضعف فى

النواحى التمثيلية من شعر شوقى .

٩ ـ مسرحيات شوقى :

بدأ شوقى ينشر مسرحياته منذ عام ١٩٢٩ م فأخرج منها (كليوباترة ، وعلى بك الكبير ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وأميرة الأندلس) . وقد بنى شوقى مسرحياته كلها على حوادث التاريخ ، وأدخل فى بعضها الأساطير ، وجميعها من نوع المأساة الذى يقوم على الطابع الجدى المحزن .

وبعض مآسيه مستمد من التاريخ المصرى (كليوباترة .. قمبيز .. على بك الكبير) وبعضها من التاريخ العربى : مجنون ليلى .. أميرة الأندلس .. عنترة) .

ولكن شوقى لا يتقيد فى تمثيلياته بحقائق التاريخ ، بل يتصرف فيها تصرف المفِنّ ، فيغير ويبدل فى الوقائع ، ويدخل إليها أحداثاً من اختراعه ، فيوفق حيناً ويخفق أحياناً ، وقد أخذ عليه إدخال حوادث طفيلية على بعض مسرحياته كان من الخير لو تجنبها .

وهو فى مجموع هذه المسرحيات يستهدف أغراضاً أخلاقية ومبادىء سامية كخير المجتمع ، وتغليب الواجب على شهوات النفس . والحب عنصر رئيس فى كل مآسيه ، ولكن الواجب هو الذى ينتصر دائماً على الحب ، كما هو الشأن فى مآسى كورنى .

* * *

الأدب كما يريده الإسلام (*)

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده المصطفى محمد بن عبد الله الذى أرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً :

أما بعد فمن حق ندوة العلماء على حملة القلم الإسلامى فى كل مكان أن يسجلوا لها بمزيد من التقدير المحمدة التى سبقت إليها بالدعوة إلى هذا الحفل ، الذى يُتَوقع أن يكون له أثره البعيد فى إضاءة الطريق أمام الكلمة المؤمنة ، لتنطلق على نور ، وتعالج قضايا الحياة على بينة ، ليس فقط فى نطاق العربية ، لغة الإسلام الأولى والعليا ، بل فى كل وسائل البيان الذى يترجم به الأديب المسلم أفكاره وتصوراته وتأملاته ووجداناته ..

وليست هذه هى المأثرة الأولى ولا الأخيرة التى تقدمها هذه المؤسسة الإسلامية العريقة للفكر الإسلامى ، ففى تاريخها الحافل بالجلائل ما يجعلها محط الآمال لتحقيق الكبير الكريم من الأعمال فى خدمة الإسلام العظيم ، الشامل لكل ما يصلح الحياة من فكر وعلم وتشريع وفنون رفيعة نظيفة .

وأنه ليسعدنى بوجه خاص أن هذه الدعوة تحقق لى حلماً جميلاً طالما دغدغ خيالى ، فكتبت وخطبت وحاضرت فى توجيه العزائم والأذهان إليه ... وفى كتابى الموسوم بعنوان (أفكار إسلامية) بحث مفصل لما أتصوره من موجباته وعناصره وأهدافه .. ولولا بعض التطورات المتصلة بموضوع الأدب مما أعقب ذلك البحث ، خلال العشر السنوات الماضية ، لاكتفيت بتقديمه إلى هذه الندوة الموقرة دون أى تعديل .. ومن هنا كان شكرى لفضيلة الرائد الإسلامى الكبير الشيخ أبى الحسن أمتع الله بحياته مزدوجاً ، فهو شكر على تحقيق حلمى الذى فاتحت به العديد من إخوانى فى

(*) قدم هذا البحث إلى ندوة الأدب الإسلامى فى لكنو بالهند عام ١٤٠١ هـ

هذه الديار أثناء رحلتي السابقة للهند ، وهو أيضاً شكر ، بل تهنئة قلبية ، لندوة العلماء لنهوضها بهذا الواجب الذى ليس أحق به من حملة الفكر الإسلامى فى شبه القارة الهندية ، التى قدمت ولا تزال تقدم لعالم الإسلام قمماً من الرجال الذين أهدوا إليه روائع من إبداعهم فى مجال العلوم الإسلامية ، وبخاصة الحديث الشريف الذى يكاد يكون وقفاً عليهم فى هذا العصر.. وحسبهم أن منهم العلمين العالميين اللذين أنبتا بصماتهما على ثقافة الجيل الإسلامى المعاصر ، إذ كان أحدهما الشيخ أبو الحسن الندوى صاحب الصوت الأعلى فى الدعوة العلمية إلى تعليم إسلامى صميم متحرر من سلطان الغرب والشرق ، ومجددٍ لبناء الشخصية الربانية على أسس الكتاب والسنة ومناهج السلف الصالح .. وكان ثانيهما الإمام أبا الأعلى المودودى تغمده الله برضوانه ، ذلك السابق المجلّى فى ميدان الفكر العلمى . الذى رفع لواء المعرفة الإسلامية فوق سائر المذاهب الجاهلية ، وقدم لهذا الجيل المخطَّط المحكم لنهضة واعية قادرة على مواجهة كل مشاكله العالمية بالحلول الإسلامية الحاسمة ..

ولقد كان بودى أن أسهم فى هذه الندوة ببحث ضاف عن الأدب الإسلامى ، يستوعب خبراتى الطويلة فى خدمة الأدب والفكر الإسلاميين ، ويعالج التطورات الطارئة على مسيرة هذا الأدب خلال تاريخه الحافل ، وبخاصة فى هذه الحقبة التى سجلتْ فيها هذه التغيرات ذروتها .. ولكن الأعباء الكثيرة إلى قصر الوقت حالت دون المراد ، وأكرهتنى على الاجتزاء بالإشارات العجلى إلى أهم النقاط التى تراودنى فى هذه المناسبة .

الأدب : قيمته وأثره

بغض النظر عن كل التعريفات الاتباعية أقدم فكرتى عن الأدب على أنه (الفن المصور للشخصية الإنسانية من خلال الكلمة المؤثرة) ومن هنا كان الأدب بنظرى هو ضابط الارتباط بين جوانب الحياة الإنسانية على اختلاف منطلقاتها وتصوراتها .. وفى ضوء هذا التعريف البرقى تتضح قيمة هذا الفن وآثاره فى مسيرة الحضارة البشرية على امتداد ساحاتها وتعدد مذاهبها ..

ومع كل الضجيج الذى يحركه ذوو النوايا الطيبة فى تنكرهم للكلام ، وتحريضهم على الاكتفاء بالعمل ، سيظل للكلمة مفعولها العميق فى إثارة العقول والقلوب ، ثم

التوجيه إلى الأعلى أو الأدنى من مسالك الحياة . وغير خافٍ على أولى العلم أمثلة ذلك فى رسالات النبيين ، الذين كانت الكلمة المبينة البليغة وسيلتَهم الفُضلى إلى أعماق الإنسان ، وقد تجلى ذلك على أتمه فى المعجزة الكبرى التى أنزلها الله على قلب محمد ﷺ ، قرآناً يَهدى للتى هى أقوم ، وسنةً تُخرجُ الناسَ من الظلمات إلى النور ..

وبهذين الرافدين من أدب السماء بدأ التغيير الأكبر فى أدب العرب ، شعراً وخطابةً وحكمةً ومَثُلاً ، ثم ترسُّلاً وتصنيفاً وقصةً وملحمة .. وما إلى ذلك من أساليب وفنون أدت مهمتها فى تبليغ الرسالة ، وتوسيع المدارك ، ونشر الثقافة العليا فى كل مجال وصلت إليه الفتوح الإسلامية أو أظله الفكر الحىّ الجديد .

● وقد استمر ذلك الأدب عربىَّ اللسان ربانىَّ المضمون حتى بدأ الخلل فى مسيرة الحياة السياسية ، فاختلف حَمَلَةُ الرسالة حتى الاقتتال ، وكان مستحيلاً على الأدب أن يقف على الحياد فى ذلك المعترك الصاخب ، فإذا هو مأخوذ برهَجِه ، يضطرب بين المختلفين فى تحيز ترك أثره عميقاً فى الكثير من شعره ونثره على السواء ، ثم تتابعت الأحداث وتفاقمتِ المشكلات ، وإذا نحن خلال عصور الأدب التالية تلقاء ركامٍ من الكلام ، قليلٌ منه المتماسكُ فى نطاقِ المواريثِ العُليا ، وأكثره الزائغ الخطى هنا وهناك .. حتى إن الأديب الواحد ليجمع فى نتاجه بين الضربين المتضادين من الألوان ، فهو فى بعضه إسلامى الرؤية لا يفارق خطَّ النور ، ولكنه فى بعضه الآخر مدخول الهوية لا يمت إلى المنظور القرآنى بأى صلة ... والمؤسف بل المبكى أن مسيرة الأدب العربى ـ بخاصة ـ واصلت حركتها فى هذا الطريق المضطرب ، فلم تُقيَّض لها القوة التى تردها إلى المسلك السليم ، حتى إذا فوجئت بطلائع الزحف الغربى الدافق ، لم تكن لديها المقومات القادرة على مواجهته بالوعى الذى يفرق بين الغث والسمين ، فكان من نتائج هذه المواجهة تراكم العقبات فى طريق الفكر الإسلامى ، وطغيانُ الضجيج الصادر عن المبهورين بتلك الطلائع .. وهكذا وجدنا أنفسنا أمام جيلٍ لا يرى سبيلاً للتقدم إلا بالإعراض الكلى عن المنهج الإسلامى الأصيل ، والذوبان التام فى تيارات الفكر الواغل الدخيل ..

● وقد بلغت هذه الدفعة الرهيبة أشدها فى أعقاب النكبة الكبرى التى نزلت بعالم الإسلام إثر سقوط الخلافة ، إذ انفرط عِقد المجموعةِ الإسلامية ، فتوزعتها النزعات

الوافدة مع الزحف الغربى ، فإذا الأمة أمم ، والأسرة الواحدة فرق ، لا تقل عدداً ولا خطراً عن الفِرَق التى أفرزتها الثقافات الدخيلة خلال قرون الدولة العباسية ..

وقد انعكست آثار ذلك كله فى هذا السيل العارم من نتاج الأقلام ، التى اختلط فيها الحابل بالنابل ، وإذا هناك أخيراً مؤتمرات مشبوهة يحمل كل منها لافتة أدبية ذات لون خاص ، تحتضن فى ظلالها أقزاماً لا يكادون يُرون من ضآلتهم ، ولكنهم لا يزالون يُنفَخون ، وتُسَلط عليهم الأضواء الملونة حتى يوشكوا أن يحجبوا الرجال ذوى الأصالة فى عالم الفكر والأدب والإنتاج الحق .. ولقد اتسع مدى جناياتهم حتى شمل لغة القرآن نفسها ، فراحوا ينبزونها بكل نقيصة ، فهى فى زعم بعضهم فقاعات من التحاسين اللفظية لا محصول لها من فكر ولا علم ، وهى فى نظر بعضهم الآخر معرض للجمود الفاضح لا تمد الباحث بأى قدرة على إعطاء مدلول صحيح .. ومن هنا كان أدبها ميتاً أو محتضراً لا يملك قدرة التعبير عن أى جانب من النفس الإنسانية ، فضلاً عن أن يحاول اللحاق بموكب الآداب العالمية !.. وطبيعى أن غرضهم الأقصى من هذه الحملات إنما هو تشكيك قرائهم فى صلاحية العربية للحياة ، ومن ثم صرفهم عن الإهتمام بكتابها الأسمى الذى يقول منزله : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) .

● على أن لكل أجل كتابه ، ولكل نبإ مستقره ، كما قرر الحكيم العليم ، وهكذا لم يكن بد لهذه الغمرة المضلّلة من حد تصير اليه ، ثم ينجلى ما وراءها من المخلفات ، كما تنجلى سحابة الدخان المصطنع بعد أن حجبت حقائق الأشياء إلى حين . وكذلك استفرغت هاتيك المزاعم طاقاتها ، فهى اليوم تترنح تحت صفعات اليقظة الإسلامية التى لم تنطفىء شعلتها قط ، ولم تستسلم لمناورات الباطل ، منذ الغارة الأولى التى شنتها الشعوبية القديمة ، وحتى آخر السلسلة من هجمات الشعوبية الحديثة على حصون الأدب القرآنى فى كل مكان أتيح فيه لِلقلم الإسلامى أن يتنفس .

ونظرة واعية إلى ميدان الصراع الفكرى الراهن ، سواء على نطاق الأرض العربية وحدها ، أو على مستوى العالم الإسلامى كله ، تكشف للمبصر هذه الحقيقة على أتمها ، إذ تُريه أعداء الإسلام على اختلاف هوياتهم وتبعياتهم للصليبية المحلية ، أو اليهودية العالمية ، أو الشيوعية المفترسة ، أو الوثنية الحاقدة ، قد شرعوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، أمام انتفاضة الفكر الإسلامى ، الذى أخذ يكتسح بأشعته قطع الظلام التى

دسها الغزو الشيطانى فى غيبة الوعى الإسلامى ، كما اكتسحت عصا موسى (عليه السلام) حبائل السحرة التى خُيِّل للناظرين أنهـا تسعى ... وحسبنا شاهداً على ذلك معارض الكتاب الإسلامى التى تنهض هنا وهناك وهنالك ، فتلقى من إقبال القراء على اختلاف مستوياتهم مالا يحظى ببعضه كل نتاج الفكر الهدام فى عالم الإسلام ...

● أجل .. لقد أثبت الأدب الإسلامى وجوده حتى اليوم شامخاً متألقاً فى كل فنون الأدب ... ففى حلبة الشعر يعلو صوت إقبال كل ما عداه من أصوات الشعراء العالميين ، ليس فقط بالأسلوب الفنى الذى تستأثر به لغة الشعر فى كل لسان ، بل بالروح الإيمانى الذى يخترق بأسراره جدران الباطل ليستقر فى القلوب ، نوراً يُضىء ، وطاقةً تُحرِّك ، وحبًّا تتلاشى فى طريقه الحواجز .. ليشعر كل مسلم فى الأرض أنه عضو فى جسد يشمل كل مسلم على وجه الأرض .. وعلى سنن إقبال تنطلق مواكب الشعر الإسلامى لتوقظ ما غفا من مشاعر الإيمان ، وتُثيرَ العزائمَ الفتية للاندماج فى كتائب الجهاد الزاحف لمكافحة الطغيان فى كل مكان وزمان ..

وفى الطريق نفسه مضى النثر الإسلامى يصور مشكلات الحياة قاطبة : قصةً تدغدغ الضمائر ،وروايةً تجسم المنظور الإسلامى فى أعماق المشاعر ، وبحثاً يكشف الحقائق فى ضوء الوحيين ، ليأخذ بأيدى التائهين إلى ساحة النور ، ومقالةً تعالج مشكلات الإنسان فى مسيرته اليومية ، فتفتح الأعين على كل ماهو بحاجة إليه من ألوان المعرفة المضيئة ... ولا حاجة لاستقصاء الفنون التى يحقق بها الأدب الإسلامى رسالته فى عالم الكلمة ، لأن استقصاء ذلك فوق حدود الطاقة . وقصارى القول أن الأدب الإسلامى قد استعاد بفضل الله ثم بهمم الصفوة من موهوبى المؤمنين ، الكثير مما فقده من أسباب التفوق ، ولا تزيده التجارب اليومية إلا نشاطاً ودأباً فى هذه السبيل المهديَّةِ بنور الله ، على الرغم من مئات العقبات التى تقيمها فى طريق الحق الأيدى الملوثة بجرائيم الشيوعية ، والقوى المسخَّرة لأهواء الظُّلام من طواغيت الحكام ، وبخاصة أن هذه الأيدى هى التى تقبض على مخانق الوسائل الإعلامية مقروءةً ومسموعةً ومرئيةً فى معظم بلاد المسلمين ، فتسخِّر كُل شىء لخدمة أنصابها ، حتى لتجعل من المسخ الهزيل كبيرَ العمالقة ، ومن ألد أعداء الإسلام ، داعيةً يستحق ألوان التقديس .. ثم زاد اضطراب الرؤية لدى الجماهير المتأثرة بالإعلام المضلِّل ، ذلك التكريمُ الذى توجهه السياسة المكيافيلية لقادة الفكر التخريبىّ ، إذ يُدعون للمشاركة فى كل مؤتمرٍ يحمل اسم

الإسلام ، ثم ينفضُّون ليستأنفوا حربهم للإسلام شريعةً وتربيةً وتعليماً وإعلاماً ، وكأنهم أخذوا من وجودهم فى تلك المؤتمرات تفويضاً بمواصلة مساعيهم الشيطانية لتهديم كل ما هو إسلامى ، وتنشيط وتشجيع كل ماهو مضاد لحقائق الإسلام ..

● ولا أكشف سراً إذا ذكَّرت بآخر ما يشهده، عالم الإسلام من تلك المواقف المشبوهة ، حيث طُرحتْ قضية الغزو الشيوعى لأرض الإسلام فى الأفغان الشقيقة ، فوقف هؤلاء ينافحون عن فجائعه بكل وقاحة .. وفى مجتمع آخر قريبٍ حيث طرحت قضية تطبيق الشريعة الإسلامية ، فكان أن وقف ممثل لإحدى الدول المشاركة فيه باسم الإسلام ، ليعلن على رؤوس الأشهاد أنه لا يوافق على هذا المطلب .. ولكن شاء الله أن يجعل من تلك المفارقات قوة جديدة للدفع الإسلامى ، إذ ساعدت على تمييز الراشد من الضائع ، فشدَّتْ أواصر أهل الإيمان ، وأبرزت انعزالية المعادين للإسلام ، وكان أعظم ردّ فعلٍ لموقف ذلك الرافض لحكم الله ، هو الذى قدمه ممثل نيجيرية المسلمة فى التعقيب على ذلك الكفر الصراح ، يقترفه وزير لأوقاف إسلامية ، أول واجبه هو احترام عقيدة شعبه ، وتسخير كل مقومات منصبه لإعلاء كلمة ربه ... فكان الرد النيجيرى تذكيراً حكيماً بقوله تعالى فى أمثاله ﴿ **ألم تَرَ إلى الَّذين يَزعمُون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلِكَ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوتِ ، وقد أُمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يُضلَّهم ضلالا بعيدا** ﴾ .

ولن يقل عن هذا وذلك تلك الحملة الطائشة التى تنطلق اليوم فى وجه السنة النبوية ، حيث يُقحم رجلٌ نفسه فى مالا صلة له بعلمه ، فينكر ، ويُفتى ، ويسفِّه ، ويريد بذلك أن يجد جيلاً من المتفعين بما لديه من مال المسلمين يصلح لإفساد الإسلام ، وهو يظن ، إذا أحسنا الظن ، أنه يعمل كل ذلك فى خدمة الإسلام ..

أجل .. إن العقبات التى تريد تثبيط المد الإسلامى لأكبر وأكثر من أن تُحصى ، ولكنها على الرغم من هولها ، ومن النكال الذى ينزله طواغيتها بحملة الفكر الإسلامى ، مما يتجاوز بفظاعته حدود التصور ، لا تريد ذلك المدَّ المقدَّسَ إلا اندفاعاً وانتشاراً وعمقاً .. وإنها للصورة التى تبدو أكثر ماتكون تكاملاً فى ألوان الأدب الإسلامى ، الذى يطالعنا صباح مساء فى أكداس المنشورات ، التى تدفع بها المطابع ، مصنفاتٍ ودواوين وصحفاً ومجلاتٍ ، تتعدَّدُ تخصصاتها ، وتلتقى فى إطاراتها المميزة على خدمة الفكر النقى فى الكلمة الجميلة البليغة ..

● وأخيراً .. إن عشرات الصفحات تسطر فى هذا الموضوع لن تستوعب الأفكار التى تثيرها فى صدور الذين أوتوا العلم .. ولذلك لا نرى مندوحة عن ضغطها فى فقرات محدودة تنم بالقليل عن الكثير ، وتعدل عن الهامّ إلى الأَهَم ، عملاً بالحكمة القائلة (ما لايُدرك كله لا يُترك جله) .

(١) إن منطلق الرؤية الإسلامية هى العقيدة السليمة كما أوحى بها الله وتلقيناها عن رسوله الأعظم ﷺ دون تأويل ولا تعطيل ، ومالم تتركز هذه العقيدة فى قلب الأديب ، حتى تسيطر على كل تصوراته ، فسيظل أدبه بعيداً عن سبيل المؤمنين ، وأبعدَ من أن يكون أدباً إسلامياً . ومن البداهه أن منبع العقيدة الصحيحة هو الوحى الماثل فى كتاب الله وسنة نبيه ، فالتزامها إذن أساس لا منصَرفَ عنه لتثبيت الرؤية الإسلامية السليمة فى قلب الأديب وطالب الأدب على السواء .. ثم الاتصال بالمؤلفات الموثوقة فى نطاق الثقافة الإسلامية المبنية على هذا الأصل ، ومن هنا كان فرضاً على من يريد العمل فى نطاق الأدب الإسلامى أن يتشبع بهذه المناهل ، كى يظل فى مسيرته على الطريق اللاحب فلا يزيغ بصره عنها ولا يطغى ..

(٢) لقد كثر الذين يتكلمون فى الإسلام ، وكثر ما يكتبونه وما يذيعونه وما ينشرونه فى هذا المضمار ، ولكن قليل منهم الذين يلتزمون أصول هذه الحقائق الإسلامية ، فهم يقولون الكثير فى كتاب الله دون أن يعتمدوا فى ذلك على أساس سليم ، متناسين أن أى عمل يُراد تحقيقه لا بد من العدة المتعلقة به ، وقد وجد هؤلاء بعض الإقبال على ما يذيعونه من قبل البسطاء ، فتمادوا فى جرأتهم على هذه القحمات ، يحسبون ، أو بعضهم ، أنهم يحسنون صنعا ، وقد أُخِذَ قراؤهم ببعض الطرائف التى وُفقوا إليها فتوهموا أن كل ما يقولونه حق لا مرية فيه . وفى هذا مافيه من تغرير بالجيل الذى لم يزود بالعواصم من القواصم .. وعلى هذا فلا بد من حِوار مع هؤلاء يذكِّرهم ويعظهم ويوجههم إلى الحق ، وينوه فى الوقت نفسه بالمصيب السديد من أعمالهم .. ولقد جربت ذلك مع بعضهم فوجدت نية حسنة واستجابة طيبة وإقراراً بالأخطاء ووعداً بالعدول عنها . فمثل هؤلاء لا يكتبون أدباً إسلامياً خالصاً ، ولكن بالإمكان تسديد خطاهم حتى يكون ما يكتبونه من الأدب الإسلامى المنشود .

(٣) لابد من تعاون الأدباء الإسلاميين على حماية الإسلام من تسرب الأفكار الدخيلة إلى حقائقه ، وذلك بإيضاح إستقلالية الإسلام الكاملة عن كل فكر أو مذهب آخر ، كالاشتراكية والماركسية والديموقراطية وما إلى ذلك من مُدَّعيات كثر القائلون بها فى هذه الأيام ، حتى يعلمَ القارىء أيًّا كان أن الإسلام هو دين الله المصفَّى ، فلا مساومة ولا ترقيع ، بل شعاره الخالد أبداً هو ﴿ **قل يا أيها الكافرون . لا أعبدُ ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابدٌ ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينُكم ولى دين** ﴾ .

(٤) كذلك لابد من قصر دلالة (الأدب الإسلامى) على معناه الحق ، فإذا وجدنا لكاتب أو شاعر نتاجاً متفقا مع روح الإسلام اعتبرناه من الأدب الإسلامى ، وكل إنتاج له شذ عن ذلك الخط أعطيناه حقه من التعريف منفصلاً عن الجانب الإسلامى .. وأضرب مثلاً على ذلك بالدكتور محمد إقبال فهو فى الذؤابة من شعراء الإسلام ، ولكنه فى فلسفته بعيد عن الخط الإسلامى ، لأنه أُخذ بمفهومات الفلاسفة الوثنيين والصليبيين ، وأثَّر بطريقته هذه على غير واحد من مفكرى المسلمين فى هذا الجانب . ومثله فى ذلك كتّاب قدموا للإسلام خيراً كثيراً ، فهم من هذا الجانب ذوو أدب إسلامى أصيل ، ولكنهم فى جانب آخر من إنتاجهم خرجوا حتى على نصوص الوحى المتواتر فى القرآن والحديث ، فأنكروا ما هو معلوم بالضرورة ، وبذلك التقوا مع المؤولّة من الباطنية الذين قامت نحلهم على صرف المعانى عن وجوهها التى أجمعت عليها الأمة على توالى القرون ، فأدبهم من هذه الناحية مجانب للمعنى الإسلامى ومرفوض بمقياس الإسلام .

(٥) من مهام الأديب الإسلامى مناقشة هذه الانحرافات بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ، حتى يستقيم أمر أهلها على الجادة ، وإذا أصروا على شذوذهم كان فى ذلك النقاش خير للقراء إذ يصبحون هم الشهداء عليه . ومثلُ ذلك يقال فى كل محاولةٍ لتشويه الوجه الإسلامى ، سواء جاءت من الخارج أو الداخل ، حتى لا تصل إلى أعين القراء إلا وبإزائها التفنيد الكفيل بتزييفها .

(٦) من العقبات التى تواجه الأدب الإسلامى فى أوساط المسلمين ، قلة قرائه ، إذا قيسوا بغيرهم من الشعوب المتحضرة ، والكثرة من هذه القلة تتجه فى اختيارها إلى

المجلات الملغومة والمسمومة ، مأخوذة بجاذبية الإخراج ، وهى علة لا مندوحة عن معالجتها بالدواء الناجع ، وهو محصور فى المضمون المشوّق والإخراج الجميل .. وبإزاء الجمهور الأكبر من محسنى القراءة طلاباً أو عمالاً نرى أفضل ما يقدم إليهم متمثلاً فى القصة التى يجب أن تمدهم بالمتعة والفائدة من خلال المنظور الإسلامى ، الذى لا يضيق بأى جانب من الزاد الفكرى الخيّر ، وفى عناية دقيقة بالإخراج المنافس بل المتفوق على سواه ..

(٧) لقد أدى تدهور الثقافة فى الأوساط الشعبية ـ فى البلاد العربية ـ إلى شيوع اللحن ومجانبة العربية السليمة ، ومن ثم انتشار الأدب العامى الذى زاد فى تشتيت المجموعة العربية ، حتى لا يكاد يَفهم العربىُّ العربىَّ إلا عن طريق اللسان الوسيط .. ومع أن التقدم الواسع فى نطاق التعليم والنشر ، قد ساعد على تفتيت الكثير من تلك الحواجز ، فلا يزال لذلك الأدب العامى سوقه الرائجة فى مختلف بلاد العرب .. وهو منافس خطير للأدب الإسلامى الذى نريده . والذى نراه أن أفضل مقاوم لهذا الواغل هو العناية بتفصيح العامية ، وأعنى بها إقبال الأديب الإسلامى على تتبع المفردات الفصيحة فى لغات العامة ، واستعمالها فى عرض مناسب خلال تعابيره ، دون أن يُقيم وزناً لمقاييس البلاغيين الذين يرون ذلك من معايب البيان العربى .. وبذلك نكسب المزيد من القراء فى الوقت الذى نربح الرشيق الجميل الذى كان محجوباً من لغتنا الحبيبة ، ونقرّب أولى المواهب الشعبية من لغتهم الأم ، حتى يأتى اليوم الذى يلجئون فيه إلى الأسلوب الفصيح فى الإعراب عن مشاعرهم . بيد أن هذا التدبير سيظل مشلولاً حتى يمسك المدرِّسون وأولو العلم عن هجرهم الفصحى خلال الدروس وفى سائر المواقف الأخرى .. فيرفعوا بذلك أسلوبهم التعبيرى ، ويرفعوا مستويات من حولهم ممن لا يجدون مفراً عن محاكاتهم والتأثر بهم من الأهلين والطلاب والإخوان ..

(٨) الطفل المسلم هو إنسان الغد الذى سيتعهد البناء الاجتماعى بالإعلاء أو التدمير ، وقد أهملناه طويلاً فلم نسعفه بالتوجيه الإسلامى الحافظ ، ولم نقدم إليه من المنشورات ما يحبب إليه القراءة ، والقراءة الإسلامية بوجه خاص .. ومن المؤسف القول بأن ما يقوم به بعض المجلات الإسلامية من محاولات لسد هذه الثغرة قلما يراعى استعداده الفطرى والبيئى ، وبذلك يظل عرضة للمؤثرات غير الإسلامية ، ولا سيما بعد تسلط التلفاز والفيديو والوسائل الإعلامية الأخرى على جو المنزل .. وهذا يقتضى من

كتاب القصص الإسلامى بوجه خاص إعادة النظر فى هذا الجانب ، وبذل الوسع لإيجاد البديل الإسلامى الجذاب .. الذى يجب أن يأخذ سبيله إلى الطفل والبيت عن طريق هذه الأجهزة الحديثة بأى ثمن . ولئن كان بعض هذه الأجهزة مغلق النوافذ والأبواب بوجه الإسلاميين إن بعضها الآخر مفتوح ولله الحمد ، وقد بدأ يبذل رعايته لهذا النوع المنشود من الأدب الرفيع فى مسلسلات تعتبر من التجارب الناجحة فى هذا الميدان ، فما على القاصّ الإسلامى إذن إلا إبداع الروائع لتأخذ طريقها إلى تلك الميادين ، محفوفة برعاية المؤمنين من ذوى النفوذ الفعال فى تلك الأجهزة .

(٩) للقلم المسلم جولاته المشرقة فى كل جانب من عالم الإسلام ، فهناك القصة الجيدة ، والمقالة البارعة ، والبحث النافع ، والمؤلَّف الفخم العميق .. ومن الظلم لهذا الإنتاج الكريم أن يُحبس فى نطاق اللغة التى أنشىء فيها ، ومن فضل الله أن كثيراً من هذه الكرائم قد أخذت سبيلها للترجمة إلى مختلف لغات المسلمين ، وكان لها الفضل الكثير فى توثيق عرى الأخوَّة بين أعضاء الجسم الإسلامى ، وهذا ما يؤكد الحاجة إلى المزيد من هذا المجهود المحمود .

وطبيعى أن لذلك تكاليف تنوء بها كواهل الأفراد من الناشرين ، الذين لا مندوحة لهم عن إقامة أعمالهم على أساس الربح والخسارة ، ومن هنا كان أثرهم فى إشاعة هذا الخير محدوداً فى نطاق قدراتهم الشخصية . ويمكن تدارك ذلك عن طريق الإستعانة بإعانات المحسنين من ميسورى المسلمين ، الذين لمسنا آثارهم فى كل مكان ولله الحمد .. وكثير منهم على أتم الاستعداد للإسهام فى نشر المؤلفات التى يتقرر نفعها للناس ، لو أتيح لهم من يُقنعهم بأهمية هذا النوع من الإحسان . وإنى لأعرف رجالاً يبذلون الآلاف المؤلفة فى بناء المساجد تقرباً إلى الله ، ولكنهم لم يقتنعوا بعد بفضيلة الإسهام فى نشر الثقافة الإسلامية ، ولن يترددوا فى تقويم نظرتهم إلى هذا الجانب إذا قرؤوا فى الموضوع فتوى الثقات من العلماء .

(١٠) إن العناية بنشر العربية على المستوى العالمى واجب يُسهم بحمله كل مسلم مستطيع ، وهو أكثر توكيداً بالنسبة للعالم الإسلامى .. الذى يفتح ذراعيه لاحتضان لغة القرآن بلهفة المحب إلى لقاء حبيبه الأثير .. وقد رأينا دول الغرب الصليبى تبذل أكداس الملايين لإشاعة لغاتها فى كل مكان ، تثبيتاً لمصالحها السياسية والاقتصادية ،

ومما لا شك فيه أن مصلحة الدول العربية بإذاعة لغة القرآن فى الشعوب الإسلامية ، غير الناطقة بالعربية ، أكثر وأعظم وأعمق ، ومن فضل الله أن بعض هذه الحكومات قد تنبهت لهذه القضية الهامة ، فهى تبذل الكثير لنصرتها .. ولكن الذى نراه أن يرفع اقتراح إلى مجموع الدول العربية وعن طريق جامعتهم بتخصيص نصف بالمئة على الأقل من ميزانية كل منها لتمويل هذا العمل الجليل ، بوساطة النادى الذى نرجو أن ينبثق عن هذه الندوة الموقرة .. وفى ذلك خير لا يقدَّر لأنه سيزيد عرى الأخوة الإسلامية قوة ، ويقرب بين الأفكار ، ويسهل سبيل التفاهم بين أبناء الإسلام ، ويعيد للعربية مكانتها التى سبق أن احتلتها فى عالم الإسلام أيام ازدهار الحضارة الإسلامية ...

وحتى الآن نكاد نقتصر فى فقراتنا الآنفة على مجرد العرض النظرى ، ومن حق الناظر فيها أن يسأل : وأخيراً ما السبيل إلى ترجمة هذه المقترحات إلى أعمال .. ؟

وهنا ننتهى إلى لغاية التى نعتقد أنها أهم الوسائل إلى تحقيق ذلك وأكثرَ منه بفضل الله .

فى نهاية البحث الذى ختمتُ به محاضرتى فى موضوع الأدب الإسلامى قبل عشر سنوات قلت : (إن أقرب السبل لإخراج هذا الحلم إلى حيز الواقع تأليف لجنة تحضيرية تتولى الدعوة إلى مؤتمر للأدباء الاسلاميين يخطط لمستقبل الأدب ، الذى لا بد منه فى هذه الفترة الحرجة من حياة العالم الإسلامى) .

وعن هذا المؤتمر ينبثق النادى الدائم باسم (نادى القلم الإسلامى) وإلى عضويته ينتسب كل مؤمن بأهدافه ، التى يجب أن تحدَّد فى دستور مستوحى من التصور الإسلامى المحض ، بحيث يصبح كل عضو منتسب ملتزماً بإقامة أدبهِ على أساس من ذلك الدستور ، حتى إذا انحرف عن سبيله نُزعت عنه عضويته ، ومفروض فى هذا النادى أن يضم شمل أدباء الإسلام فى سائر أقطارهم ، ويجمعهم فى مؤتمرات دورية لدراسة ما جدَّ وما ينبغى أن يجدَّ من العمل ، وبديهى أن هذا يقتضى وجود مكتب دائم للنادى يظل فى انعقاد دورى ، ليعمل على متابعة مقرراته واستطلاع آراء أعضائه فى كل طارىء ، ويتولى تنسيق مجهوداتهم ، ليتمكنوا من أداء واجبهم فى توعية الشعوب الاسلامية توعيةً تُبَصِّرها بما يراد لها ، وما يجب عليها ، ويُحَصِّنها من السقوط فى حبائل الختالين من أصحاب الشمال واليمين ..

وها نحن أولاء فى هذه الندوة المباركة نحقق الجانب الأول من هذه الأمانى .. ويبقى الجانب الآخر وهو تكوين (نادى القلم الإسلامى) ووضع دستوره المحكم ..

أما مقر هذا النادى فيقرره المؤتمرون . وإن كنت من الموقنين أن مقره الطبيعى هو الجامعة الاسلامية فى مدينة رسول الله ﷺ ، حيث وضع القدر أول لبنة فى بناء الأدب الإسلامى العظيم .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله وسلم وبارك على قائد الفكر الإسلامى فى الطريق القويم محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

رحلة الشعر العربي (*)
من الجاهلية إلى الإسلام

الأدب العربي صورة الإنسان العربي بما ينطوى عليه من مدّخرات القوة والضعف ، وعوامل الصعود والهبوط ، والخير والشر ، والإنسان هو الإنسان فى كل مكان ، وإنما تتفاوت مرتبته بتفاوت المؤثرات البيئية . وعلى هذا فالأدب العربي جزء من التراث الإنسانى يحمل مميزاته من ملامح البيئة والوراثة والأحداث المعاصرة .

ولكى نحدد – بالتقريب – دور الأدب قبل البعثة النبوية على مستوى العالم الإنسانى جميعاً ، يحسن بنا أن نتأمل فى إنعام وصف الله تبارك اسمه لذلك العالم حيث يقول : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ [الروم : ٤١] .

فهاهنا مخطط جامع لوضع الخلق على ظهر البسيطة فى الفترة التى سبقت اتصال السماء بالأرض عن طريق الرائد الذى اختاره الله لقيادة القطعان الضالة إلى الملاذ الآمن .

إنه الفساد الذى استحوذ على كيان الإنسان فى كل مكان ، جزاء وفاقاً لانحرافه عن جادة الوحى العاصم ، إلى السُّبل التى تفرقت بالناس عن سبيل الله ، وهى عقوبة من حقها أن تردع المنحدر عن مواصلة الهُوِىّ ليرجع إلى الوضع السليم تائباً منيباً مستغفراً ... ولكن الغفلة كانت هى المطاعة فاستمر الانحدار ، وكلما عمقت الهوة تكاثف الظلام حتى انقطعت مسيرة الإنسان عن بقايا النور أو كادت .

ثم يأتينا الوصف المتمم لهذه المرحلة الهاوية ، على لسان المبعوث رحمة للعالمين ، إذ يقول صلوات الله وسلامه عليه : « **إن الله اطلع على أهل الأرض فمقتهم عربهم**

(*) قدم هذا البحث إلى ندوة الأدب الإسلامى فى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب »[1] .

والله تبارك اسمه لا يمقت عبداً خلقه بيديه ، وأكرمه بإسجاد ملائكته له ، إلا إذا آثر هذا العبد لنفسه مفارقة توجيهات مولاه ، التى ألقت فى رُوعه ، من أول يوم هبوطه إلى هذه البسيطة ، أن سلامته وخلاصه وسعادته المحققة لعودته إلى الجنة ، مرتبطة باتباع تعليمات ربه التى هو مزوّد بها رسُله إليهم ﴿ **فإما يأتينَّكم منى هدًى فمن اتَّبعَ هدايَ فلا يَضِل ولا يشقى** ﴾ [طه : ١٢٣] .

أما بقايا أهل الكتاب الذين يشير إليهم الحديث فقد وقفنا على خبرهم من تاريخ سلمان الفارسى (رض) الذى غادر بلاده طلباً للحق الذى انطفأ ضوؤه فيها ، فلقيهم واحداً بعد واحد ، وكلما تَوفى اللهُ أحدَهم أوصى بتلميذه الفارسى إلى شبيهٍ له ، حتى كان آخرهم فى عمورية ، فلما استوصاه بأمره أجابه : والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب .. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل[2] .

وهكذا انتهى الجنس البشرى كله إلى انفصام تام عن طريق الله ، حتى استحقوا مقت الله ، بَيْد أن رحمته التى وسعت كل شىء عودت عباده ألا تنطمس معالم النبوة فى الأرض مرة حتى يدركها بنور جديد يصل ما انبت من صلة الأرض بالسماء ، لكى لا يكون للناس على الله من حجة . وهكذا كان مبعث سيد ولد آدم أعظم هدايا السماء للأرض ، لأنه به أعاد للإنسانية وحدتها السليبة ، وبرسالته منحهم شريعته الخالدة ، التى تَهدى أبداً للتى هى أقوم ، فنى ضوئها يجدون الحل الأمثل لكل معضل من مشكلاتهم اليومية ، على الوجه الذى يؤمن لهم الأمن والطمأنينة والعدل الحق ﴿ **يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام** ﴾ (المائدة : ١٦) .

ميراث النبوة

وهنا نتوقف قليلاً لنتساءل عن مهمة الكلمة خلال العتمة السابقة لفجر حِراء ..

ولن نتعب طويلاً إذا تذكرنا أن رسالة الكلمة أول ما انطلقت على ألسنة النبيين ، إذ كانت وسيلتهم البليغة إلى فطرة الإنسان ، يذكرونها ما نسيت ، ويفجِّرون ما غاص

---

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٢١٨ ج ١ ط الحلبى .

فيها من المواهب القابلة للتسامى المتفاعلة مع الحق ، ثم تمضى هذه الكلمة النقية على ألسنة أعوانهم إلى جماهير البشر ، تحيي مَواتَ القلوب ، وتضىء البصائر ، وتقيم حجة الله على الخلق .. وبذلك تستمر مسيرة الإنسان فى السبيل الأقوم ، حتى يتسلل الشيطان إلى مواطن الضعف من الإنسان ، فإذا الحياة ميدان صراع ، وإذا للكلمة طريقان طريق القادة المَهديِين ، وطريق الشياطين ، فالحرب بين الفريقين سجال لا تخبو يوما حتى تعود للاتقاد ...

لقد استحالت الكلمة فى هاتيك الظلمات ترانيم وثنيةً ، ودعوة لعبادة الجسد ، إلى قصص للبطولات فى سبيل الشهوات ، وأناشيد حربية تُشيد بالقَتَلة والمجرمين . وأساطير لمعبودات صنعها الإنسان الضائع من الحجر والخشب والطين ! ..

تلك هى السمات البارزة لواقع الأدب فى حياة البشر أثناء تلك الفترة . وطبيعى أن الأدب العربى ، وهو جزء من التراث الإنسانى العام . لم يَبْعُدْ عن هذه الملامح إلا بما يميزه من طوابع البيئة الخاصة .

وما أروع وصف أشعياء ــ أحد أنبياء بنى إسرائيل ــ لواقع الجزيرة العربية فى جاهليتها تلك وما أعقبها بعد مبعث رسول الله من تدفق البركات التى غيرت معالم الحياة ، وذلك حيث يقول : (تفرح البريةُ والأرضُ اليابسة ... حينئذ تتفتح عيون العُمْىِ ، وآذان الصم تتفتح . حينئذ يقفز الأعرج كالأيّلِ . ويترنم لسان الأخرس ... لأنه قد انفجرت فى البرية مياه وأنهار فى القفر . ويصير السراب أجما ، والمعطشة ينابيع ..

فى مسكن الذئاب ، فى مربضها دار للقصب والبردِى ..

وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة .. لا يعبر فيها نجس ، بل هى لهم [٣] .

إن أشعيا يعبر عن ذلك التحول الواسع بنسبة الفرح لكل شىء ، ويشير إلى آثاره فى العقول إذ يرد النور إلى البصائر فترى مالم تكن تراه ، وتسمع من الحقائق مالم يقع فى آذانها من قبل .. وكل ذلك فى أرض كانت مسكناً لبشر لا يختلفون عن الذئاب فى الاستجابة لكل شهوة ، كما وصفهم جعفر بن أبى طالب (رض) فى مجلس

(٣) كتاب أشعياء صح ٣٥

النجاشي .. ولكن سرعان ما تستحيل تلك الأرض من الخصائص الذئبيّة إلى الانفتاح العقلى . حتى تصبح مراكز إشعاع عالمى للعلم . الذى يرمز إليه بالقصب ـ القلم ـ والبَرْدِى ـ رقاع الكتابة ...

ولكى يؤكد السمة العربية لتلك الأرض يشير إلى مكة المكرمة ذات الحرم المقدس ، والطريق المقصور على المؤمنين وحدهم ، والمحظور على المشركين لأنهم فى حكم الأنجاس ، وهو نفس التعبير القرآنى القائل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرامَ بعد عامِهم هذا** ﴾ [التوبة : ٢٨] .

● ولكى نرصد تحركات الأدب العربى خلال جاهلية العرب لا نجد مناصاً من القول بأنه ـ فى معظمه ـ أدب ذئبى يتعهد بذور الشر بالتغذية الدائمة ـ كما يشير إلى ذلك حسان (ر ض) ـ فهو تعبير مباشر صريح عن تلك الحياة القبلية التى يمثلها قول شاعر غزيَّة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

وقول شاعر تغلب :

وأحيـانـاً على بـكـر أخيـنـا إذا مـالم نجد إلا أخـانـا

أو قول ذلك الناقم من قومه لأنهم أقل حماقة من سواهم :

لكنَّ قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لى بهم قوماً إذا ركبوا شنوا الإغارة فرسانا وركبانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

ولا ننكر أن فى بعض أشعار الجاهليين لمحات من فيض الفطرة تحمل عبير الخير ، ونلمس من خلالها لفحات الضيق بتلك الضلالات ، التى ألفها الأكثرون وربطوا بها أبصارهم ومصايرهم ، فلا يطيقون عنها انفكاكا ، ولا يتصورون أن هناك خيراً منها ، حتى لينشرونها على ستور الكعبة ، وبإزاء التماثيل التى يعبدونها من دون الله ، وليس مرد ذلك إلى بلادة فى الأذهان ولا كثافة فى الشعور ، بل هو مجرد التقديس للمألوف من تقاليد القوم ، والذوبان المحكم فى أفكار الآباء ، ولو كانوا على ضلال مبين ..

وشدّ ما يؤكد هذا التفسيرَ قولُ عمرو بن العاص وهو من دهاة العرب ، حين عاتبه أحد الصحابة بعد إسلامه قائلاً : عجباً لك أبا عبد الله .. رجل له مثل عقلك يتخلف عن هذا الخير إلى اليوم ؟ ! .. فيجيبه بما معناه : كنا نرى لآبائنا عقولاً كالجبال ، فتركنا لهم أن يفكروا عنا ، ولم نكلف أنفسنا عناء البحث والنظر ، فلما زالوا رجعنا إلى عقولنا واخترنا لأنفسنا ... »

ومن حق الدارس لذلك الأدب أن يتساءل أيضاً إلى أى مدى استطاعت تلك اللمحات الكريمة من حكمة ومثل ووصية ، سُكِبَ بعضها فى شعر أخاذ ، وصيغ بعضها الآخر فى نثر مفصَّل بليغ ، إلى أى مدًى استطاعت أن تغير ذلك الواقع الرهيب ؟ .. وكم كانت درجة الاستجابة لها فى سواد الناس ؟ .

أجل .. لقد كان فى ذلك التراث نفثات صادقات من التأمل فى ما وراء واقع الناس ، كالذى نراه فى أقوال بعض الحنفاء والمتألهين : أمية بن أبى الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة الإيادى ، وزهير بن أبى سلمى ... ثم العاكفين فى حراء فراراً من جفاف المادة ، ولهفةً إلى ما وراء المنظور ، أولئك الذين نطالع صفاتهم خلال معالم مكة على لسان أبى طالب يسأل بهم ربه أن يكف أعداء الإسلام عن رسول الله وعنه ومن معه من المظلومين :

وثور ومَن أرسى ثبيراً مكانَه وراقٍ ليرقى فى حِراءَ ونازلِ

وإنها لنفثات جديرة بأن تلمس ضمائر الغافلين ، فتدفعهم إلى التأمل والتفكير ونقد الذات ولكن ذلك لم يحدث ، أو على الأقل لم تَعْدُ آثاره جوانب جد محدودة من انتباه الناس ، لأن سوادهم مدفوع إلى الهاوية بقواذف لا قبل له بردها .. أقلها ضغط المواريث النفسية ، والخوف من مفاجآت الغارات ، وتحكم الشعور القبلى ، الذى يُلغى استقلالية الفرد ، واستحكام القانون الرافض كل حق لغير صاحب القوة ، التى تبيح له السلب والنهب والفتك والخطف ، لأن (من لم يكن ذئباً أكلته الذئاب) و (من لم يَظلم الناس يُظلم) ... وفى استرقاق الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب وبعده زيد بن حارثة ،وسلمان بن دهقان جى ، وعشرات ومئات غيرهم ممن نعرف ومن لا نعرف .. فى استرقاق هؤلاء الأفضلين صورة جامعة للهول الشامل الذى كان يجلّل وجود الجاهليين ...

وفى مثل هذا الجو الشديد القتام لا يُتوقع وجودُ الكثيرين من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ... ولا عجب فنحن بعد أربعة عشر قرناً نعيش التجربة نفسها ، فالشعر الرصين الذى يهز القلوب الحية بنفحات الحق لا يكاد يقرؤه جمهور المستغربين من أبناء الإسلام ، لأنهم فُرِّغوا من إشراقات الوحى فَمَثَلُهم كمثل أسلاف لهم كانوا يستمعون للآيات من رسول الله فلا تصل إلى أفئدتهم ، حتى إذا خرجوا من عنده سأل بعضهم بعضاً : ماذا قال آنفا ؟ ... وفيهم وفى أصحاب القلوب الحية يقول ربنا تبارك اسمه :
﴿ ونُنَزل من القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وهكذا نجد إذاعات المسلمين ووسائل أعلامهم ، على اختلاف ألوانها تكاد تجمع على استبعاد أصوات المؤمنين ، على حين تفتح أبوابها على مصاريعها لأعداء الإسلام والفضيلة ، من أشياع الباطنى الحقود على أحمد سعيد ، الذى هرب من اسمه ذى الأحرف العربية الموهمة بالإسلام إلى (أدونيس) رمز الضلالات الوثنية .. وإلى شاعر المراهقين الآخر نزار الذى يجد حتى من علية الأدباء من يبوئه المنزلة العليا فى عالم الشعر العربى على الإطلاق .... وأضرابهما كثير ..

فالسواد الأعظم من جماهير الجاهلية ، المفتونة بأناشيد شعرائها قلما تجد الفرصة لاستماع المواعظ ، وللإصغاء إلى دعاة الإصلاح من ذوى الأفكار النادّة عن جِواء الحماسة ، التى استغرقت وعى الشباب المتنافس على إثبات الذات فى مستنقع الموت .. فلا هوى له إلا فى هذا الطراز من الشعر الذى يحرضه أبداً على مواصلة الصراع . ويبقى لأهل الحكمة والضمير المقروح رقعتهم المحدودة ، يرددون خلالها أفكارهم على أنفسهم ومن يقاربهم ، مَصوغةً فى حِكَمٍ وأمثال استنبطوها من خبرات السنين فى مراقبة الأحداث والتقلبات ...

وهكذا حفل الشعر الجاهلى بالشر الكثير ، الذى يمثل العصبيات القبلية والمآسى الحربية ، وبقليل من الخير المنبثق من صميم الفطرة التى ظلت فى جاهلية العربى أقرب إلى السلامة منها فى الجاهليات الأخرى ..

باحثون عن الحق

● على أن لذلك النزر القليل من لمعات الخير مدلوله الهام بالنسبة إلى واقع الناس ،

إذ يمثل تململَ النفوس الممتازة من ذلك الكابوس الرهيب ، كما يمثل تطلع الضمير البشرى نحو المنقذ المجهول الذى لا يعرفون من أين سيطل عليهم ...

ومن هنا رأينا فى أوساط هذه الجاهلية الصماء رواداً يضربون فى الأرض بحثاً عن الحق حيث توهموا أو توسموا ، وقد انفصلوا بعقولهم وتصرفاتهم عن مضطرب الكثرة الكاثرة ليعيشوا حياة قلقة ولكنها راضية ، على الرغم من كل المتاعب التى قد تصل ببعضهم إلى فقدان الحياة .. كما حدث لزيد بن عمرو بن نُفيل .

......

ويشاء الله أن يكون هؤلاء الرواد أحد المؤشرات إلى النبأ العظيم .. نبأ الفجر الذى برز للوجود من أعماق حِراء مُهيباً بأبناء وادى الموت أن يستجيبوا لداعى السماء ، فيستردوا ما فقدوه طويلاً من أسباب اليقظة والصحو .. ولقد كان هذا النداء الأعلى دعوة إلى العلم والتأمل وإطلاق الطاقات الإنسانية من قيود التقاليد المتحجرة ، للعودة بالإنسان إلى التى هى أقوم ..

ومن ثَم بدأ التغير الجديد أول ما بدأ فى المصطفى الذى اختير لإبلاغ الرسالة ، ولتجميع الجنس البشرى التائه تحت راية (لا إله إلا الله) .

والإسلام فى مفهوم أولى العلم هجرة تامة .. هجرة عقلية وروحية من ظلمات الجاهلية ، بكل ما تنطوى عليه من حَيرة وقلق وضَياع ، إلى رحاب الهداية المضيئة ، بكل ما يحمله هذا التعبير من معانى الاطمئنان والتفاعل مع الخير والحق ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ **هو الذى بَعَثَ فى الأُميين رسولاً منهم يَتلو عليهم آياتِه ويُزكّيهم ويُعلّمُهم الكتابَ والحكمَةَ ، وإن كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين**﴾ [الجمعة : ٢] .

ولقد تألقت أنوار هذه الهجرة فى كل أُفق من حياة المسلمين الأولين عرباً وأعاجم ، ولا مرية فى أن أدب صدر الإسلام كان أبرز معارض هذا التألق ...

معالم التحول الجديد

من كلام كتبته قبل عشرين سنة عرضت لمعالم ذلك التحول المضىء فى الفقرات التالية :

قصة وفد تميم التى كانت من أسباب النزول لسورة الحجرات جديرة بإعادة النظر لاستخلاص ما تحمله من الدروس المتصلة بموضوعنا .

قد تلقى زعماء تميم نبأ الرسالة المحمدية بتصور الجاهلية الذى لا يعدو نطاق المفاخر فتحركتْ نخوتهم وأخذتهم العزة بالإثم ، ثم جاؤوا بخطيبهم وشاعرهم ليقارعوا بزعمهم الأُبهة بأكبر منها ، ولم يتريثوا حتى يخرج إليهم رسول الله ، بل ذهبوا ينادونه من وراء الحجرات فى قِحَة الذين لا يقيمون للموازين الاجتماعية اعتباراً .

وأعلنوا للرسول رغبتهم فى مفاخرته .. وبروح الحكيم فى معالجة صغار الأطفال أجابهم إلى مطلبهم ، وترك لهم أن يجفخوا ما شاؤوا ، حتى إذا شبع خطيبهم من الثرثرة ، وشاعرهم من الجعجعة . أَمَر (ﷺ) ثابتَ بن قيس فأخرس خطيبهم ، ودعا بشاعر الإسلام حسان ، فنقض قصيدة شاعرهم بما أفحمه .. ثم انتهت المعركة بانتصار النور الذى أضاء جوانحهم ، فأدركوا لفورهم أن الأمر ليس أمرَ زعامة أو منافرة ، بل هو فوق ذلك كله .. إنه أمر النبوة المنقذة لهم من تلك المساخر ، التى طالما أغرقت الجزيرة بدماء الأبرياء ..

ولنتأمل الآن فى بعض ما قال كل من الشاعرين ، قال الزبرقان شاعر تميم :

نحن الكرامُ فلا حيٌّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا تقسم الربعُ
وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهابِ ، وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مُطْعَمَنا ... من الشِواء إذا لم يُؤْنس القَزَع
ثم ترى الناس تأتينا سراتُهمُ ... من كل أرض هُوِيًّا ثم تصطنع

وكان رد حسان هذه الأبيات :

إن الذوائب من فِهرٍ وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريرتُه ... تقوى الإله ، وبالأمر الذى شرعوا
.. قوم إذا حاربوا ضروا عدوهمُ ... أو حاولوا النفعَ فى أشياعهم نفعوا
أعطوا نبيَّ الهدى والبرِ طاعَتهم ... فما ونى نصرُهمْ عنه ولا نزعوا
.. أكرِمْ بقومٍ رسولُ الله شيعتُهم ... إذا تفاوتت الأهواءُ والشِّيع

وفى كل من النصين صورة تامة للجو النفسى الذى وراءه . أما أبيات الزبرقان فلغوٌ تمليه عنجهيةُ الباديةِ ، التى لا تستطيع تصور الحياة أكثر من سباق على السمعة ، فهو يريد ـ بلغة اليوم ـ اختطاف زمام المبادرة لإرهاب المنافس بهجمة من الحرب الباردة ، ، إنهم كرام يطعمون أيامَ الجدب أطايب اللحم ، وفيهم القوة التى تفرض

سلطانهم على الناس ، فيأتونهم خاضعين باذلين .. والويل لمن يجرؤ على تكذيب هذه المزاعم ، فإن وراء ذلك الفتنة التى تستيقظ ثم لا تنام .. وهى إلى ذلك معانٍ مكرورة نقرؤها فى كل نص جاهلى .. ولو أعطيناه حقَّه من التقويم لما نال أكثر من ابتسامة ممزوجة بالأسى ، لهذه النفوس التى تستهلك طاقاتها فى مالا طائل تحته ، ولا يتجاوز معظمه دائرة الحماقات ! .

والآن لننعم النظر فى معانى حسان .. كان عليه أن لا يشتط عن الموضوع .. إن القوم يفخرون ويتعالون فوق البشر جميعاً ، وكل حجتهم فى ذلك طعام وقوة .. فليطلع عليهم بفخر .. ولكن من نوع لم يعرفوه ولم يتصوروه .

إن أصحاب رسول الله ﷺ هم من البشر بمنزلة ذوائب الرؤوس ، وقد جاءهم هذا الفضل من خدمتهم للدعوة الربانية ، التى هى مهوى القلوب الكريمة المُصَفَّاة من كل سوء .. وليس معنى هذا أن فى قوتهم مغمزاً . هيهات ، إنهم مساعير الحروب ، ينزلون الذلَّ بمن عاداهم ، ويوفرون الكرامة لمن ناصرهم ، لأن ملاك قوتهم هو انقيادهم لداعى السماء فى الهدى والبر ، وتفانيهم فى إنفاذ أمره .. وإذا كان الناس عبيد الأهواء ، تُمزِّقهم شيعا وتفرقهم أيدى سبا ، فقد رفعهم إيمانهم على عبودية الأهواء ، فهم صف واحد حول قائدهم المعصوم من سلطان الأهواء ، المؤيد بجنود السماء ...

والفرق بين النصين لا تخطئه أذن واعية ، ولا يفوت نفساً صافية ، فإذا كان الأول يضعنا أمام رقعة محدودة من الأرض ولون خاص من النفوس ، فالثانى يُطِل بنا على آفاق وراءها آفاق لا يحدها لون ، ولا تقتصر على نوع ، وإنما هى الحياة فى معناها الإيمانى ، تربط بين أطراف الكون ، وتؤلف فى إنسجام عجيب بين الدنيا والآخرة ..

ولا عجب .. إنها البصيرة الجديدة ، فجّر الإسلام أضواءها فى أعماق القلب العربى ، فهو بها يرى مالا يتاح لغيره أن يراه ..

● ونظرة أخرى عجلى إلى نصين لِشاعرٍ مخضرمٍ واحد قالها فى مناسبة واحدة .. إنه الحطيئة يستعطف عمر ليخرجه من قعر المظلمة التى استحق لزومها بعدوانه على أعراض المسلمين ، فمن قوله فى الأولى متخلصاً من الوصف التقليدى إلى المدح والاستعطاف :

أمين الخليفة بعد الرسول   وأوفى قريشٍ جميعاً حبالا

وأطولُهم فى الندى بسطة وأفضلهم حين عُدوا فَعالا
فإنك خير من الزبرقان أشد نكالا وخير نوالا

ولكن لامية الحطيئة هذه لم تلق من عمر التفاتا ، فكان عليه أن يجرب أسلوباً آخر .. فإذا هو يقول :

ماذا تقول لافراخ بذى مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجرُ
ألقيتَ كاسبَهم فى قعر مظلمةٍ فاغفر .. عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمامُ الذى من بعد صاحبهِ ألقى إليك مقاليدَ النُّهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأُثَر
فامننْ على صبيةٍ بالرمل مسكنهم بين الأباطِح تغشاهم بها القِرَر

وما أسرع ما آتت هذه الرائية أُكُلَها .. فإذا عمر يرد للحطيئة حريتَه ، ثم لا يدعه حتى يزوده بآلاف يشترى بها منه أعراضَ المسلمين ..

فما الذى حدث فغيَّرَ موقف الفاروق من الشاعر السفيه ؟ ..

لاشك أننا واجدون ذلك السر فى تصور الشاعر نفسه .. فهو فى الأبيات الأولى يسلك إلى غرضه طريق الجاهلية ، الذى طالما ذلَّله بمديحه وهجائه ، فعمر هو ذلك الوفى المفضل على قريش جميعها فى سخائه وفَعاله ... وهو بطبيعةِ الحال خير من الزبرقان خصمِه الذى شكاه ، سواء فى القدرة على الانتقام أو فى القدرة على العفو .

فهى هى معانى البداوة ، التى يَفتَنُّ فى نسجها وتفصيلها على قدود ممدوحية ، من الذين تستهويهم ألقاب القوة والمجد ، فيصبون عليه العطاء صبًّا إعجابا بإطرائه أو تخوفاً من هجائه .. وقد فات أبا مليكةَ أن عمر الذى طبعته التربية النبوية بمثلها العليا ، هو غير بغيض بن شماس واضرابه من ممدوحيه ومهجويه .. لذلك لم يكن غريباً أن يصدمه الإخفاق الذى لم يعتده من قبل ، فراح يقلِّب الأمور حتى اهتدى إلى شخصية عمر ، وأمسك بمفتاح قلبه .

فهنا ستة أبيات أربعة منها فى وصف أطفاله المنكوبين .. إنهم أشبه بالفراخ الزغب لم يبلغوا سنَّ الطيران ، قد عُزِلوا عن البشر فى جانب من البادية ، خلا من الماء والغذاء ، واستقر فى مهبِّ الهواء .. وليس بجانبهم راعٍ يعنى بأمرهم ، لأن عائلهم الوحيد قد أُخِذ منهم لِيُزَج فى البئر المظلمة .

وفى أثناء هذا الوصف الدقيق لمأساة الصغار ، يأتى المديح فى بيتين .. ولكنه مدح من نوع جديد أيضاً ، لأنه مرتبط بأصل المأساة ، فعمر أمام المسلمين اختاروه لرعايتهم مكان رسول الله ﷺ وصِدِّيقه ، وهم لم يصطفوه لهذه الإمارة حبًّا به بل حبا بأنفسهم ، التى لم يروا لخدمتها أصلح منه .. ومعنى ذلك أن واجبه نحو هؤلاء المساكين ينحصر فى كلاءتهم ومساعدتهم على الشقاء ، لا مساعدة الشقاء عليهم ..

ولا ننسى القالب الذى صُبَّت فيه هذه المعانى ، فهو لا يسأله عطفاً مجرداً بل حقاً تفرضه تقوى الله ، الذى لا بد سائله عن أمر أطفاله الذين سيقاضونه بين يديه على ما أنزل بهم من البلاء ، وما أرهب ذلك الاستفهامَ العميق الذى بدأ به وصف تلك المأساة : (ماذا تقول لأفراخ ؟ ! ..) .

ولا ننسى القالب الذى صُبَّت فيه هذه المعانى ، فهو لا يسأله عطفاً مجرداً بل حقاً تفرضه تقوى الله ، الذى لابد سائله عن أمر أطفاله الذين سيقاضونه بين يديه على ما أنزل بهم من البلاء ، وما أرهب ذلك الاستفهام العميق الذى بدأ به وصف تلك المأساة : (ماذا تقول لأفراخ ؟ ! .)

وهكذا يحلّق الحطيئة وراء المدى الصغير الذى تنسج فيه الجاهلية معانيها ، لينفذ إلى الآفاق الوضيئة التى أبدعها الإسلام .. فإذا فى مقطوعته المحدودة هذه من نفحات الخلود مالا نجد بعضه فى مجموع منظوماته الجاهلية ، سواء التى نظمها قبل الإسلام أو بعده ..

إن الكلمة التى صاغ بها الشعراء الجاهليون أفكارهم ومشاعرهم قبل أن تلامس قلوبهم أشعة الوحى ، هى نفسها التى صاغ بها الشعراء بعد ذلك معانيهم الإسلامية ، ومع ذلك فالفرق بين النتاجين بعيد كالفرق بين العرض والجوهر .. ولا تفسير لذلك إلا التغيير الجذرى الذى تناول به الإسلام هذه النفوس ، فبدل فهمها للحياة ، وكشف غطاء بصائرها فإذا هى تستقبل الأحداث بأسلوب لا يستطيع التصور الجاهلى أن يرتفع إليه . ولتوكيد هذه الحقيقة الخطيرة أعرض هذه العبارة المخضرمة التى تنطوى على جملة من أدَقِّ الدلالات على هذا التغيير الجذرى .

● فى أمثال الجاهلية القديمة قولهم (أُنصر أخاك ظالما أو مظلوماً) . وهى عبارة

رهيبة تصور واقع البشرية كلما انتكث فتلها فعادت إلى مُثُلِها الجاهلية ... إنها مادة من قانون الغاب الذى يجمع فصائل الوحوش فى جبهات متناحرة متفانية ، لغرض واحد هو الرغبة فى تفوق الفصيل دون أى اعتبار للحق والعدالة ..

ويأتى رسول الله بالهدى ودين الحق ، فيحطم مبدأ العدوان هذا ليقيم على أنقاضه صرح القانون الربانى الذى يهتف بالمؤمنين دائماً وأبداً : (إعدِلوا هو أقربُ للتقوى) . ولذلك كان مدعاة للدهشة أن يسمعوا رسول الله ﷺ ذات يقوم يقول : « **أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً** » فلا يتمالكون أن يسألوه (أفرأيت إن كان ظالماً .. كيف أنصره ؟) فلا يلبث أن يأتيهم الجواب النبوى الحكيم : (تحجزه عن الظلم فإن فى ذلك نصره) .

إن هنا لانقلاباً عجيباً فى المفهوم الخلق ، يستتبع انقلاباً مثله فى مهمة الكلمة ، فلم تعد وظيفةُ الأدب إشارة الفتنةِ لمجرد التفوّق القبلى أو الغلو فى المحالات التى تسخّر البيان للشر كما أكد حسان بن ثابت (رض) عندما سئل عن سبب التفاوت بين شعره الجاهلى وشعره الإسلامى .. وإنما استحالت الكلمة فى ظل التربية الإسلامية تياراً روحياً يضىء ويحرك ويدفع عجلة الحياة إلى الأعلى .

وهكذا وفى هذا الاتجاه القويم يمضى الأدبُ الإسلامى فى خدمة الدعوة ، حِكَماً على لسان رسول الله ﷺ وخُطَباً على أفواه الراشدين . وشُهُباً منيرة فى قصائد المؤمنين الأولين من الأنصار والمهاجرين .. إلى أن تسربت إلى المجتمع الجديد ثعابين الفتنة تحركها اليهودية والمجوسية من وراء الستار ، فإذا الخُلُق ينحرف عن خط النور ، فتضطرب الخطى وينعكس ذلك كله فى مسيرة الأدب ، فإذا الهجاءُ المقذع ، وإذا الغزل العِربيد ، وإذا المديح المسخَّر يحيل الحبة قبة ، ولا يستحى حتى من قذف الصحابة الأطهار بكل قبيح من الأوزار ، ثم ينتهى إلى أن يجعل من ملاحدة القرامطة آلهةً يُدْعى لها من دون الله ، بل لا يتورع أن يقول فى بعض الطواغيت :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ   فاحكم فأنت الواحدُ القهار

● وتنحدر الخطابة فى المنزلق فإذا هى شحنات من السباب أو الوعيد ، الذى لا يرجو للعدالة والحق وقاراً ، حتى لتبتعد عن الاستفتاح بحمد الله خشية أن تُوحى بالرحمة أو اللين .

وتطغى متارف الشعوب المنحلة على العصر العباسى فيوشكُ الأدب ، وبخاصة الشعر ، أن يفقد روحانيته بما استولى على قلوب أهله من نزعات المجون والزندقة والمَلَق ، ولولا فقهاء الإسلام والمشتغلون بعلوم القرآن والحديث ، وبخاصة فى نطاق اللغة والبلاغة ، لبات الانحراف هو الأصل ولَعُدَّت الاستقامةُ على النهج الأصيل شذوذاً يُستغرب صاحبه ويُغَرَّب ..

ولكن شاء الله أن تستمر خيوط الضوء تنبعث هنا وهناك فى حواشى الفتنة الغامرة ، فتقدح فى الضمائر ذكرى الفجر الجديد الصادق ، الذى عجزت كل الانحرافات ، بما انطوت عليه من فلسفات ومغريات ، عن إطفائه ، فلبث يتدفق على لهوات الكتاب والشعراء والمحققين بين الحين والحين . ورب شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس ، كما يستهوى أى أديب كبير مشاعر الكثيرين إلى أجل مسمى ، ولكن مشغلته لهم لا تعدو دائرة التلاقى على أهواء أو رغبات ، مستقيمة أو ملتوية ، وهو باق على منزلته فيهم مادام لهذه الأهواء وهاتيك الرغبات بقاء ، ولكن تراثه جميعه لا يساوى نقيراً فى ميزان المُثُل لولا لمعات برقت فى بعض شعره ، فهى تفتح للنفس آفاقاً أوسع من الحياة . ولنمثل لذلك بعض النماذج من شعر أبى تمام :

يمدح شاعرنا القائد الإسلامى الكبير قاهر الخِرَّمية أبا سعيد بن يوسف ، فيقول له فيما يقول :

لله أيــامك اللائى أغــرت بها	ضَفَرُ الهُدى ، وقديماً كان قد مَرَجا
كانت على الدين كالساعاتِ من قِصَرٍ	وَعَدَّها بابكٌ من طولها حِجَجا
.. عادت كتائبه لما قصدت لها	ضحاضحاً ولقد كانت تُرى لججا
لما أَبَوا حُجَجَ القرآنِ واضحةً	كانت سيوفك فى هاماتهم حُجَجا

فهو شديد الإعجاب ببطولة هذا الطائى ، التى ردت إلى الإسلام هيبته بعد أن عبثت بها الفتن ، وقد جمعت عزيمتُه بين هناءة الدين وشقاء أعدائه ... وبهذه البطولة استطاع أن يحطم الوهم الذى كان يستبعد قهر هذا العدو الجبار . وذروة الجلال فى هذا البطل أنه لم يعمل سيوفه فى رقاب أولئك الكفرة إلا بعد أن رفضوا الانصياع لشريعة الله ..

وفى رائعته الرائية التى يرثى بها البطل الإسلامى الآخر محمد بن حُميد الطوسى ،

والأخرى التى يعلن فيها فرحة المسلمين بمقتل الافشين ، وفى ملحمته العمورية التى يسجل بها حملته على المنجمين المضللين وغبطته بالفتح العظيم ، وإطراءه لعظمة الفاتح الكبير.. نفحات ساحرات من الروح الإسلامى الخالد ، لا يوازيها قوة ولا روعة ثلاثة أرباع شعره الفحل الأنيق ... ومثل هذا يمكن أن يقال عن إسلاميات ابن الرومى وبخاصة ميميته فى رثاء البصرة .. ولا ننسى فى هذا المضمار ملاحم المتنبى فى مدح البطل الحمدانى ، الذى لا يرى فيه مليكاً هازماً لنظيره ولكنه التوحيد للشرك هازم .

وتبلغ هذه النفحات ، إبَّان الغزو الصليبى والتتارى لربوع الإسلام أقصى ما تستطيعه طاقة شعراء من الطبقة الثالثة ، سيطرت على أذواقهم زخارف التصنيع الذى أفسد الشعر العربى أو كاد .. ثم لا تلبث هذه الصُّبابة من الوهج أن تأخذ سبيلها إلى التوارى مع البقية الباقية من قدرة الإبداع ، إلى أن تستيقظ كرة أخرى على ألسنة الطليعة من شعراء العصر الحديث .

مأساة الخلافة

عندما بدأت موجة الزحف الصليبى الجديد على بلاد الإسلام ، كانت بقية من الذاتية الإسلامية لاتزال مسيطرة على سلوك المسلمين ، على الرغم من تخلفهم الفكرى وفقدانهم أزمة القيادة المدنية ، وعلى هذه البقية من الخلق والعقل ارتكزت طاقة المقاومة فى وجه الغزو الاستعمارى الزاحف .. وقد رأينا هؤلاء الغزاة فى كل جبهة فتحوها من ديار الإسلام يصطحبون القسس وذوى الاختصاص من رجال العلم ، كما يصطحبون الأعتدة العسكرية ... مما يؤكد لنا تصميمهم على استخدام أحدث التجارب المدنية والحضارية لتفكيك البنية الروحية للمجتمع الإسلامى .. ذلك لأن تجاربهم السابقة فى مغالبة هذه الأمة قد أثبتت لهم ألا سبيل إلى قهرها إلا بعد تجريدها من مقومات الشخصية الإسلامية أو تشكيكها فى هذه المقومات . ولكن نجاح هذه المحاولات ظل ضئيلا لأن الخلق الإسلامى بقى فى منجاة من التدمير إلى حد بعيد ، وقد أعانه على الصمود ارتباطه الروحى بمركزية الخلافة ، التى كانت على ضعفها واضطرابها تمثل وحدة الاتجاه بين شعوب الإسلام أجمعين .... لذلك كان على الصليبية أن تركز ثقلها على قاعدة الخلافة لتتمكن من القضاء نهائياً على دعامة ذلك التماسك . وفى هذه الفترة تم التلاقى بين مصالح الصهيونية وأهداف الصليبية فى نطاق هذا التصميم

الجهنمى ، فوضعت المخططات الأساسية لتحقيقه فى الدوائر الدبلوماسية ، وفى المؤسسات الماسونية الظاهرة والمستترة ، حتى انتهى الأمر أخيرا إلى تكوين الجيل الجدير بهذه المهمة من أبناء المسلمين أنفسهم ، حتى فى قاعدة الخلافة نفسها ، فما إن عرضت المناسبة المنتظرة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حتى صدر الأمر إلى ممثلى (الدونمة) من عملاء الماسونية والصليبية بتفجير الألغام ، فإذا الصرح الإسلامى الذى ثبت فى وجه الزلازل طَوالَ أربعة عشر قرناً تتطاير أشلاؤه فى لحظة ، وكأنه السد الذى يمسك طوفان الفتن ، فما هو إلا أن تَصَدع حتى تدفقت سيولها تجرف البقية الباقية من وحدة المسلمين وتماسكهم .. ولعل من أحزن المفارقات فى أمر هذه المأساة هو أن العدو لم يُصدر أمرَه بعملية النسف هذه إلا بعد أن نشر سحابة من دخان الدعايات المضللة ، تهيىء أذهان المسلمين لقبول النكبة القادمة .. وجند لهذه الدعاية عشرات الأقلام من كبار أدباء المسلمين المرموقين شعراء وكتاباً ، وبخاصة فى مصر وتركيا ، كانت مهمتها تسليط الأنوار على عملاء الماسونية بوصفهم جماع البطولة الإسلامية ، وتضخيم معايب الخلافة إلى حد التشويه المنفرِّ.. وهكذا انهار سور الخلافة الشهيدة بين قهقهات الانكليز وضحكات الصهيونية ، وهتاف المغفَّلين من المسلمين.. ومن ثم بدأت الطاقات الإسلامية عهداً جديداً من التمزق .

أدب ما بعد الخلافة

لم يكن زوال الخلافة بالأمر الذى يمكن نسيانه بسهولة .. لقد أعقب معارك فكرية وأدبية حامية اتخذت مذاهب عدة ، بعضها يدعو إلى بعثها من جديد وإقامتها على أسس أكثر وعياً وقوة .. وبعضها يكتفى ببكاء الخلافة الشهيدة ، وعتاب قاتلها الذى لم يكن قد انكشفت حقيقته نهائياً ، وثالثها يتمثل فى ذلك الفريق الهجين الذى نشأ على مشارب العدو ، فلا تزيده المأساة إلا ارتياحاً وشماتة .. ثم يأبى إلا أن يستغل عمق الجراح ، فيكتب ويؤلف فى التحقير لشأن الخلافة ، حتى ليعتبرها مصدر كل الفواجع .. التى أَلَمَّتْ بالتاريخ الإسلامى .. وحتى ليعتبر نظام الخلافة نفسه مخالفاً لأساس النظرة السياسية لأصول الحكم فى الإسلام ، ثم تصبح دعايته هذه قاعدة أساسية لكل الانحرافات التى نشاهدها فى أنظمة الحكم المدخول فى العالم الإسلامى حتى اليوم .

وهكذا تكشف المحنة الكبرى عن وجود جيل من المسلمين يعيش بروحه وعقله مع أعداء دينه وأمته وهو يرى ، لو كان ينتفع ببصره ، إلى البابوية الكاثوليكية متصلة البقاء منذ عشرين قرناً ، لا تزداد من أتباعها إلا التفافاً وتأييداً ، على كثرة الفواجع التى أحلتها بالعالم المسيحى ، من حجرها على الفكر وحربها لأهله ، وتعزيزها لنفوذ الطغاة على عامة المسيحيين ..

ولعل أعلى صوت ارتفع فى تأبين الخلافة والتذكير بفضائلها أيامئذ حائية شوقى التى نقرؤها فنستعيد ظروف الجريمة وأصداءها فى القلوب الكليمة :

عادت أغانى العرسِ رَجْعَ نُواحِ ونُعيتِ بينَ معالمِ الأفراحِ

ولبثت هذه الأصوات الإسلامية : شوقى ومحرم وإخوانهما ، ترتفع مذكرة بالمعانى الإسلامية رغم جميع التقلبات التى سلكتها التطورات الأدبية والفكرية من حولهم .. بيد أن هؤلاء الرواد لم يكن بد من أن ينتهوا ليخلو مكانهم لخَلْفٍ لا يرى رأيَهم فى الإسلام ، ولا يتصور الحياة تصورهم .. خَلْفٌ آمن بما كتبه المستغربون عن (الإسلام وأصول الحكم) فراحوا يطاردون بقايا الروح الإسلامى فى الصحافة والشعر والكتاب ... حتى تهيأ الجو لقبول كل عِداءٍ للإسلام ، وكل عودة للانحياز إلى عدوه ، وتقليد هذا العدو بكل ما ورثه عن وثنيات اليونان والرومان من ألوان الأخلاق والحياة .

ألوان من الأدب الدخيل

وكان من شأن هذا الانتقاض الجرىء أن وجدنا أنفسنا تلقاء ركام من الأدب الدخيل لا صلة له بروح هذه الأمة ، إلا من حيث كونه مصوغاً فى ألفاظ عربية .. أما مضمونه وأفكاره وظلاله فسموم مرشحة من هناك وهنالك ، لا غرض منها سوى التعفية على بقية المُثُل الإسلامية ، ومع ذلك فهو مشحون بالغرور الذى لا يستحيى أن يزعم أنه يريد تجديد البناء الإجتماعى لهذه الأمة ..

لقد اقتحمت هذه السموم ـ التقدمية ـ كل مجال منتهزة تسلط الغوغاء على أزِمَّة السلطة . وخلو الميدان من أية وسيلة فعالة لكشف عوراتها .. يدفعها إلى ذلك أيضاً ثقتها بأن الجيل الذى تخاطبه هو أبعد ما يكون عن مواطن الثقافة الإسلامية ، سواء

كانت مدرسة أو صحافة أو إذاعة . فإذا كان لدعاة الإسلام ما يقولونه فى الرد عليهم فلن تتجاوز ردودهم مساحات صغيرة موقوفة عليهم وحدهم ، ولو علموا لهذه الأدوات صلة بمن يخاطبون خارج هذه الحدود لما ترددوا فى القضاء عليها .

والأدب الأصيل

ومع ذلك كله فإن أدب الإسلام لم يقف قط خلال هذا المضطرب الضنك .. لقد تتابع على الراية فرسان صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ..

وهكذا مضت حركةُ الشعر الإسلامى بل الأدب الإسلامى كله فى طريق النمو والتطور حتى يومنا هذا ، شاملةً مختلف فنون القول من قصة ورواية وبحث ومقالة ومسرحية وشعر ..

ولقد كان للشعر الإسلامى الحديث نصيب كبير من هذه الحركة ، قرأناه فى مثل إسلاميات شوقى وإلياذة محرم وعمرية حافظ ، ونفثات معاصريهم ممن يتعذر إحصاؤهم ، ولا يزال يطالعنا هذا الدفق الرفيع على لهوات ورثائهم من شعراء آمنوا بقضية الإسلام ، وعاشوا معانيه فى سلوكهم وسائر تصرفاتهم ، فهم به يتنفسون ومن أفقه يتطلعون ، وفى ضوئه الخالد يطلون على المشكلات ويفسرون الأحداث ويبحثون عن الحلول ... وبهذا كله يخاطبون الناس ويقرعون أبواب القلوب ... فهم وراء كل انبعاث إسلامى ، وأمام كل انطلاقة للتحرر فى كل مكان من ديار العرب والإسلام . لا تصرفهم عن غايتهم العليا لإعلاء كلمة الله فى الأرض رغبة فى دنيا أو رهبة من بلاء ، ولو كلفهم ذلك حياتهم ، كما حدث لبعضهم فى أكثر من واحد من ربوع الإسلام .

ونعم .. إن شعر هؤلاء الصفوة لا يزال محدود الحركة فى نطاق التاريخ والسياسة والاجتماع . وقلما يتجاوزها إلى الجوانب الأخرى . وذلك أمر طبيعى عندما نتذكر الظروف التى يعيشونها فى ظل الأنظمة المباعدة لدينهم . فإقبال بعضهم ــ كشوقى وإخوانه ومن لحق بهم ــ على الجانب التاريخى إنما كان باعثه الرغبة فى تذكير الجماهير المسلمة برسالتها وأسلافها ومكانتهم وآثارهم فى التراث الإنسانى ، لِيَحُضّوا

نوازع العزة فى أعماقهم فلا يستسلموا لمغريات الفساد التى تحيط بهم من كل صوب ، وعنايتهم بالسياسة مردها إلى غيرتهم على مصاير دينهم وأمتهم من الزيغ الذى تسلكه الأنظمة الدخيلة ، ولتحريك الجماهير المؤمنة لمواجهة المؤامرات الدولية على شعوبهم وأوطانهم .

ولا يختلف موقفهم بالنسبة إلى الناحية الإجتماعية ، إذ يرون سوء الأوضاع الذى يعانيه سواد الأمة تحت أثقال الحرمان والطغيان ، فلا يتمالكون أن يتنفسوا عن صدورهم بألوان الآهات والزفرات .

ولا يعنى ذلك أن الشاعر الإسلامى مغلول القلم بحيث لا يطل على الحياة إلا من هذه النوافذ ، بل هو الشاعر الطليق الذى لا تحد حريته قيود ، مادام يلتزم سبيل الفضيلة التى خالطت لحمه ودمه ، حتى لا يرى إلا من خلالها ، ولا يتنفس إلا برئتيها .. لا بل إنه الإنسان المتوازن الذى ينفعل بالجمال الذى يصله بأسرار الكون ، كما ينفعل بروح القوة الحارسة للحق والعزة والحرية .. ففى صدره متسع لكل تصور جميل ، وفى رأسه تجاوب مع كل تفكير نبيل .. وليس فى مجالات الشعر الإنسانى من لون إلا وهو على أتم الاستعداد للتعامل معه من خلال رؤيته الإسلامية ..

ومن هنا كان الغزل العفيف الذى ازدان به الأدب الإسلامى فى مختلف أنحاء عالم الإسلام ، بدأ منذ صدر الإسلام ومازال منساباً على ألسن المعجبين الطاهرين من عشاق بنى عذرة إلى جرير ، فالعباس بن الأحنف ، فالإمام بن حزم ، فالتابعين لهم بإحسان حتى يوم الناس هذا ، وذلك إلى جوار الغزل الهابط الذى شق سبيله امرؤ القيس وتابعه من خلفه أهل البطالة والسفاهة مثل ابن أبى ربيعة إلى بشار ، إلى البحترى ، حتى القبانى ، الذى ترك طابعه السام على معظم الجيل التائه من أبناء العرب ..

ولا عجب أن يتفوق الشاعر المؤمن على أولئك الزائفين حتى فى الميادين التى يراد لهم أن يحتكروها ، فالإسلام هو النظام المتكامل مع فطرة الإنسان ، لا يغفل أى جانب منه ويمنحه حرية التعامل مع أى الحوافز ضمن حدود الخير والكرامة ، الأمر الذى يتمثل على أتمه فى كلمة أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) التى مؤداها : « ما استمتع الكافر بشىء إلا استمتع به المؤمن ، وزاد عليه رضوان الله » .

والباحث فى الشعر الإسلامى لا مندوحة له عن التعرض لتلك الظاهرة التى تواجهه فى ما يسمى بالشعر الحر ، أو شعر التفعيلة ، أو الشعر غير العمودى إلى آخر مسمياته المستحدثة ، فيسأل أو يتساءل عن موقف الناقد والشاعر الإسلامى منها ، أيتنكران لها فيستبعداها من دائرة الشعر ، التزاماً بمواريثه الاتباعية ، أم يقرانها ويشاركان بها فى صياغة انفعالاتهم .. ؟

ونظرة إلى أعمال شعراء الشباب المسلم ، من أقصى المغرب إلى أطراف الخليج ، ترينا مشاركات الكثير منهم فى هذا اللون المتحرر إلى جانب نتاجهم الآخر وفق أوزان الخليل ..

وطبعى أن الكارهين لهذا الضرب من النتاج لن يغير من رأيهم فيه تكاثر المقبلين عليه بغض النظر عن مضمونه النفيس ، وصياغته الفنية .. لأنه فى معاييرهم وليد غير شرعى يراد إلصاقه بفنون العربية ، فلا هو من النثر المألوف ، ولا هو من الشعر الموروث .

ولعلى لا أغضب أى الفريقين عندما أذكرهما أن الشعر العربى ، منذ نشأته الأولى حتى اليوم قد اعتوره كغيره من فنون الكلام الكثير من التطور إذ بدأ غناء على تفعيلة مفردة ، ثم ما برح يتدرج حتى استقر على الأوزان الموروثة .

بيد أنه عرج فى أثناء رحلته إلينا على الكثير من الأساليب سواء من حيث تعداد الأوزان أو من حيث تعداد القوافى فى المنظومة الواحدة . وهو القانون نفسه الذى تحقق فى مسيرة النثر العربى ، إذ بدأ أمثالاً وحكماً قصيرة ثم ما فتىء يتمدد ويتحرك حتى صار إلى ما نعايشه من ألوان النثر الفنى ...

ومن هنا كان من التقييد للمواهب الشاعرية أن نحبسها فى نطاق نوع واحد من الصياغة الفنية فلا نسمح لصاحبها بتجاوزها وإلا قذفناه بكل جارح من القول ...

شىء واحد يجب أن نطالب به هذا (المتحرر) من ضوابط الاتباعية : هو أن يعطينا الفكر الجميل فى الصورة الجميلة فى إطار من النغم المؤثر... وهى الشروط الإبداعية التى تمنحنا فرصة الاستمتاع بجمال الكلمة الموحية ، حتى لو خرجت عن نطاق

الوزن التفعيلي كأكثر الذى نقرؤه هذه الأيام فى نفثات العديد من شعراء المقاومة فى الوطن المغتصب .

ثم لا حرج بعد ذلك أن نعتبر هذا الضرب من المصوغات فنا مستقلاً عن قَسيمى الأدب الموروث النثر والشعر جميعاً ، وإن شاركهما فى العديد من خصائصهما الممتازة ...

ففى أحد جانبيه نجد الالتزام بالنغم الذى يربطه بالأصالة إلا أنه ارتباط محدود فى نطاق التفعيلة المفردة دون تقيد بنظام البحور .. وفى الجانب الآخر نجده يتحرر حتى من وشائج التفعيلة فلا يكاد يُلِمّ بها أيًّا كان نوعها ..

بيد أن هذا الضرب ـ على خلوه من ملامح الوزن الاتباعى ، وتمرده على طريقة المتمردين على نظام الخليل ، من حيث التزامهم التفعيلة المفردة ـ يحمل من خصائص الشعر الأصيل أَلَقَه التعبيرى الذى يميز لغة الشعر ، فيجعلها لوناً خاصاً من أنماط الكلام ، يفرض على قارئه التفاعل معه دون أن يتيح له الفرصة لاستيعاب إشاراته المكثفة فى تحديد حاسم ، وهى الخاصة التى لا تتوافر إلا للقليل من موروث الشعر ، وتكاد تتوافر لسائر ما يصوغه المتفوقون من أولئك المتمردين ...

ومن هنا كان حقيقاً بهذا الضرب من فنون القول الحديثة أن يُحدَّد موقعه ومسماه فى نطاق الدراسات الأدبية ... فليس هو بالشعر على اختلاف نوعيه الاتباعى ذى البحور ، والحر الملتزم بنظام التفعيلة ، وليس هو من النثر المطبوع بفطرته على الوضوح والموضوعية والعناية بضروب التفكير.. ولكنه على أى حال موجود وله مقوماته المميزة ، وفى مكنته أن يفرض نفسه بقوته الإيحائية على الكثيرين ، وعلى سدنة الفكر والأدب أن يمنحوه جواز المرور إلى ساحة الأدب تحت العنوان الذى يتفق مع مشخصاته ، وليكن مثلا باسم (النثير) بازاء الآخر المتحرر من بحور الخليل والذى أسميه (النظيم) والقطعة منه نظيمة فى مقابل شعر التراث . ولْنسمِّ القطعة من النثير (نثيرة) تمييزاً لها عن الشعر والنثر جميعاً ، وهى سمة أحسبها جديرة بهذا النوع المستحدث من الأدب لما تحمله من عذوبة ورشاقة يمنحانها حق القبول والذيوع حتى يستقر مصطلحها فى الأذهان . فيكون عندنا القصيدة والنظيمة والنثيرة ، وفى ذلك إضافة جميلة إلى أدبنا الجميل .

● يقول الدكتور حسن ظاظا فى (الرياض الأسبوعى) ١٤٠٣/٦/٤ هـ عن الشاعر العبرى (أودى صبى جرينبرج) : أنه أشد تطرفاً لا فى فكره السياسى فحسب بل فى الشكل الفنى ، فالموسيقى فى شعره حرة مرسلة تسخر من الوزن والقافية ..)

وتردنى كلمة الدكتور هذه إلى نصوص مشابهة فى (نشيد الإنشاد) المنسوب زوراً إلى سليمان ـ ففى هاتيك الفصول مقطعات تكاد تستحيل قصائد ذات رنين ولألاء ، وقد صيغت فى فقرات أشبه بالأشطار المتناظرة المتفاوتة معاً .. فهى ضروب من التعبير يختلف عن النثر المعهود فى العربية ، من حيث التموج الخيالى الغارق فى غمرات المجازات والتشابيه ، ويفارق الشعر المقيد بحدود الأوزان والقوافى . وما أحسب ذلك العبرى إلا مأخوذاً بهذا الأسلوب الذى لا يقتصر على نطاق الإنشاد بل تتراءى ملامحه فى مختلف نصوص العهد القديم .. ولقد يبعث هذا على القول بأن لأسلوب ذلك العبرى وأضرابه أثره فى هذا الضرب من الصياغة ، التى أكثر ما نراها هذه الأيام فى أعمال شعراء الضفة الغربية ، كمحمود درويش وسميح القاسم ، وعن طريقهم تسرب إلى ألسنة المحدثين من شبابنا وفتياتنا .. وقد استهواهم بما فيه من القابلية لاستيعاب انفعالاتهم المكثفة دون قيد يحد من حريتها .

● والآن أصبحت أميَلَ إلى القطع بهذا الرأى بعد أن قرأت تلك المقالات الأخرى التى نشرتها الرياض اليومية ـ ١٤٠٤/٣/٢٩ هـ ـ بقلم الأستاذ صدقى البيك حول الدراسة الموجهة ، التى تلقاها محمود درويش وسميح القاسم وإخوانهم فى معاهد العدو ، حيث حُجِبوا عن تراثهم الإسلامى وأغرقوا فى دُردور توراتى ما لبث أن صبغ إنتاجهم بالكثير من تعابيره ، ولا بد أن يطبع أسلوبهم بالكثير من خصائصه الفنية .. أضف إلى ذلك ما يقوله المرحوم العقاد من أن الكثير من الشعر غير العربى لا يلتزم القافية والوزن ، وأن من الشعر الانجليزى ما تمّحى الحدود بينه وبين النثر حتى لا يقطع النقاد بنسبته إلى أى النوعين ..

ومهما يُثَر من خلاف حول هذه التطورات فى أساليبنا الحديثة فلا ينبغى أن يصل إلى حد التنكر لحرية الآخذين به من شباب نحس من خلال آثارهم أنهم على مستوى رفيع من المواهب الصالحة للعطاء ، وإن كنا نأخذ على بعض هؤلاء الشباب تنكرهم لتراثنا

النفيس العريق حتى ليصل التطرف ببعضهم إلى تفضيل نزار قبانى على المتنبى ، واعتبار من يسمّى نفسه (أدونيس) نكاية بالإسلام والعروبة أحد نماذج التقدم الثورى فى أدبنا العربى ! ..

وإلا فبأى حق نجيز لأنفسنا رفض مثل هذه المصوغات على ما فيها من عمق فى التجربة الشعورية يفتقر إلى بعضها الكثير من المنظوم الإتباعى فى هذه الأيام ، لسبب واحد هو أن صائغها لم يلتزم فى صياغتها طرائق السلف ! .

● وطبيعى أن قبول مثل هذه الرؤية سيتجه بالناقد ـ لهذا النوع من التجديد ـ إلى النظر فى قيمته المجردة ، فلا يقر منها إلا ما كان منسجماً مع قوانين البلاغة العربية فى المضمون وفى الصورة وفى الصياغة ، ويومئذ سنرى أن فى نتاج هؤلاء المحدثين فنوناً من الروعة تفسح لها السبيل للوقوف بجانب الروائع الخالدة من الأدب العربى والإسلامى ، وبذلك تربح العربية العزيزة لوناً جديداً من أساليب القول تزيد فى ثروتها وتوسع من مساحتها ...

وإنما عرضت لهذه الظاهرة المزدوجة فى أدبنا الحديث لأنها فى فهمى الخاص تؤلف جزءاً طبيعياً فى مسيرته التاريخية من الأمس البعيد حتى اليوم ، وهى كائنة شئنا أم رفضنا ، وقد بدأت تفرض وجودها على الوسط الأدبى فى ديار العرب كلها ، وتكسب كل يوم أنصاراً ليس فى أوساط الشباب والمستغربين وحدهم ، بل فى أوساط العلية من أدباء العصر وشعرائه ... وبإزاء ذلك لا مندوحة للمفكر المسلم عن تحديد موقفه منها سلباً أو إيجاباً ، وليس قبولها فى تراثنا الأدبى إلا كقبولنا لألوان لم يكن لها مكان فى أدب العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ، ثم تسللت إليه خلال مراحل التفتح الحضارى ، حتى أصبحت من فنون الأدب ، كالموشح والدوبيت والمسمط والقصص الملحمى والشعر التمثيلى ، وكان فى ذلك خير كثير للغتنا الحبيبة وأدبنا الأثير(٥) .

(٥) أثناء كتابة هذا القسم من البحث وقعت فى العدد ٤٠٣/١/٨ من جريدة الرياض على مقالة جيدة الحبك بعيدة الغور بقلم الفاضل الأستاذ عبد الكريم العودة ، تترجم ثورة صاخبة بالمتنكرين لهذه الظاهرة المحدثة من النثر التوقيعى ، صبَّ شواظها على الشاعر الإسلامى الأستاذ أحمد فرح عقيلان تعقيباً على ثورة مماثلة له هاجم بها أصحاب الظاهرة وأنصارها فى العدد ٥٧ من المجلة العربية ، ظناً منه أنها ضرب من العدوان على أصالة الشعر العربى ..

ثم ما هى سوى أيام حتى طلع علينا معالى وزير الإعلام الدكتور محمد عبده يمانى فى العدد

الشعر الإسلامى وعناصره

بقيت كلمة أخيرة حول نقطة سبقت إثارتها فى ندوة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ثم لم ينته الرأى فيها إلى قراره الأخير...

تلك هى قضية العمل الأدبى حين ينشئه المسلم وغير المسلم ... فكثيراً ما نقع على قصيدة ، أو مقالة ـ مثلاً ـ تحمل مضموناً إسلامياً عالياً ، فإذا نظرنا إلى هوية كاتبه وجدناه إما من غير المسلمين ، أو من المسلمين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ...

أفيكون هذا النص إسلامياً ... ؟

أم أنه لا يكون إسلاميا إلا إذا كان شاعره إسلامياً ... ؟

هنا أُذَكِّر الإخوةَ الأفاضل بالحكمة المشهورة (الحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها وأهلها) وأذكرهم بقول رسول الله ﷺ عندما واجه اليهود فى المدينة صائمين لذكرى نجاة موسى وقومه من طراد فرعون وجنوده : (أنا أحق بموسى منكم)[٦] .

والذى أفهمه بناء على هذا التوجيه النبوى أن كل نص ينطبق مضمونه على حقيقة إسلامية فهو إسلامى أيًّا كان مُنشِئه ، لأنه نوع من الحكمة التى نحن أحق بها .

وهذا مبدأ يقتضينا النظر إلى النص مجرداً عن هوية صاحبه عملاً بالحكمة الأخرى (اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال) وعلى هذا فليس لنا أن نسمى شاعراً أو كاتباً بأنه إسلامى إلا إذا استوثقنا من التزامه الخط الإسلامى ، وربما كان يجمع بين الموهبتين ، فهو فى شعره ـ مثلاً ـ إسلامى ـ ولكنه فى نثره مضطرب الرؤية بين الحق

= ٥٢٨١ من الرياض بمقالة تحت عنوان (الفكر الحر ـ والحوار الملتزم) كانت أشبه بمحاضرة بالغة الروعة ، مزجت بين العلم الرصين والأدب الرفيع ، وحاكمت كلا من المقالتين السابقتين بهدوء المفكر المنصف الذى يعطى كل ذى حق حقه من التقدير والتقويم ، وبذلك كانت درساً جامعياً يذكِّر كلا من الفريقين الثائرين بأن لدى كل منهما جوانب تستحق الاهتمام والاحترام .. ولكنها قلما تلوح لعين الساخط المستسلم للانفعال ..

وحبذا لو يتاح لهذه المقالات الثلاث من يتولى جمعهن معا فى كراس يصل إلى يد كل ذى عناية بهذا الجانب من أدبنا المعاصر . ولا أرى أحق بذلك من الأديب الشاعر معالى الأستاذ عبد العزيز الرفاعى ، ولعله فاعل إن شاء الله .

(٦) متفق عليه .

والباطل ، أو العكس . فمحمد إقبال فى تقديرى شاعر الإسلام غير منازع فى هذا العصر ، لأنى لا أعرف فى شعره ـ المترجم ـ أى انحراف عن سبيل المؤمنين ، بيد أنى لا أراه مفكراً إسلامياً ، لأن فى فلسفته شططاً كثيراً عن حقائق الوحى وبخاصة فى ما يتصل بموضوع البعث والعالم الآخر...

وعلى هذا نقول بأن فى نتاج فلان نفحات إسلامية ، غير أننا لا نعده بسبب ذلك بين الإسلاميين.

وهكذا نحقق الموضوعية فى أحكامنا ، فلا نسرف بالرفض والقبول إلا على ضوء من الواقع الذى يحدد معالم النص والشخص ، فنجنب آراءنا أخطاء التعميم التى تواجهنا لدى بعض النقاد ، إذْ هم بدافع الربط بين النص وصاحبه ، يكادون يرفضون الإقرار بوجود شعر مؤهل للدخول فى المضمون الإسلامى . وذلك لأنه بنظرهم لا يعدو فلتات عابرة خلال أكداس من الشعر المضاد للخط الإسلامى ... وهى فكرة من شأنها أن تسوق إلى الزعم بتوقف الشعر الإسلامى منذ تحول الشاعر العربى حسب تعبير البحترى ـ إلى (..... تاجر سُؤددٍ يبيع ثمينات المكارم والحمد)

على حين نرى الأمر على الضد من ذلك حين نفصل بين النص والشخص ، فنجد أن المد الإسلامى لا يزال مستمر العطاء إلا أنه يتردد بين الظهور والتوارى ، تبعاً للأوضاع الاجتماعية والسياسية ، ويظل فى كلتا الحالتين أصدق ضروب الشعر وأعمقها أثراً فى القلوب ، لأنه صوت الفطرة التى لا تموت إلا بموت الإنسان ، وكل ما عداه فهو أشكال من التهريج الذى يموت قبل صاحبه .

● وقد لاحظنا فى ما تقدم من حديث عن تطور الشعر خلال القرون وفى ظل التحولات الاجتماعية ، التى أكرهت الشاعر العربى على سلوك غير طريقه الطبيعى ، أن الشاعر المسلم لم يستطع أن يتخلى عن ولائه للإسلام ، على الرغم من انشغاله بدواعى الشهوات ، فهو يترجم ولاءه العميق هذا فى نفثات حية من ملاحم الجهاد والزهد والحكمة ، ثم فى تلك الأصداء التى صورت انفعالاته المحترقة فى مواجهة النكبات ، التى حلت بعالمه الإسلامى تحت مطارق التتار والصليبيين ، حتى فواجع الحملات الصليبية الحديثة ، وحتى الغارة الكبرى على وطن الأقصى الذى بارك الله حوله ، إلى مذابح الآلاف من المستضعفين فى مخيمى صبرا وشاتيلا بسكاكين اليهود وأحفاد المَرَدَة

من حلفاء الصليبيات الأولى .. وهاهى ذى تواصل سيلها متألقة فى جداول ثرة من شعر الدعوة ، تطالعنا فى رسائل الدراسات العليا ، التى سبقت إليها جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية . إلى العديد من مجاميع ودواوين الشعر الإسلامى المتلاحقة ، فى مصر والسعودية والمغرب والجزائر ، وفى كل بلد يجد فيه الشاعر الإسلامى متنفَّسا للقول ...

الندوات الثلاث

وهل أنا بحاجة للتذكير بالندوة المباركة التى سبقت إليها ندوة العلماء فى لكناو الهند ، ثم ندوة الأدب الإسلامى التى احتضنتها الجامعة الإسلامية فى طيبة المنورة .. وقد كان لكلتا الندوتين ، ولله الحمد ، أثرهما البعيد فى تنشيط الأدب الإسلامى ، وتحريك الهِمم الفتية لدفعه إلى الأمام بقوة أكبر.

ولا جرم أن هذا التنشيط سيكون أعمق وأبعد وأشمل لو نفذت توصيات الندوتين ، وبخاصة من حيث إنشاء دور تعنى بنشر الكتاب الإسلامى والشعر الإسلامى فى أحسن إخراج ، وأخرى تقوم بتوزيع هذا الإنتاج وتسويقه بالثمن المُعان من قبل جهات الإحسان ، ثم مؤسسة خاصة لترجمة أحسنه فى مختلف اللغات إلى مختلف الألسن الحية ، لا فى العالم الإسلامى وحده ، بل على مستوى العالم البشرى كله .

ويحسن بى وأنا عند نهاية البحث أن أذكّر الإخوة الأفاضل بسابقة الخير التى سجلتها ندوة العلماء فى لكناو ، حين أخذت على عاتقها عبء المتابعة للتوصيات المتخذة فى تلك الندوة عن طريق (الأمانة الدائمة للأدب الإسلامى) التى تولت إنشاءها فكان لها فى هذا المجال تحرك كريم ، لا أدرى مدى تجاوب الإخوة المشاركين فى تلك الندوة معه - على تنائى ديارهم - وإن كنت أحد المعترفين بقصورهم نحوه ..

والحق أن العبء الذى وُضِع على كاهل ندوة العلماء فى هذا الصدد كان جد كبير ، وذلك لبعد مقرها الذى يحد من إمكاناتها فى توصيل المطلوب ، ورصد آثاره فى أنحاء العالم الإسلامى ، وهذا ما يفرض على ذوى الاهتمام بأدب الإسلام أن يتقدموا للإسهام فى ذلك العبء بصورة أكثر جدية .

ولعل أقصر طريق لتحقيق هذا الواجب هو أن يقوم بإزاء أمانة لكناو مكاتب مماثلة فى بعض عواصم العالم الإسلامى ، على أن يبدأ أحدها هنا فى جامعة الإمام ، وآخر فى

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . وطبيعى أن يقوم بين هذه الثلاثة تناسق فى العمل يحقق حصول التعاون المنشود ... فإذا ما انتظم أمرها اتجهت العزيمة لإنشاء غيرها وغيرها فى حواضر عالمنا الإسلامى ...

وعن طريق هذه المؤسسات الجديرة بالدعم والرعاية سيأخذ الأدب الإسلامى سبيله الصاعدة إن شاء الله ، وستتضح من خلالها يومئذ وعلى الوجه الأتم (رحلة الشعر العربى من الجاهلية إلى الإسلام) .

والله الموفق والمستعان ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

نظرات في كتاب
(ذكريات طفل وديع)

١ ـ شاء الله أن أعرف الأستاذ عبد العزيز الربيع قبل خمس عشرة سنة[1] وكان ذلك أثناء موسم الحج ، إذ قدمت المدينة الحبيبة زائراً مع أكثر من ستين مدرساً ومدرسة من سورية ، ألزمني خدمتهم صديق كان قد كلف إمارتهم فضاق بها ، وأبى ألا أن يلقيها على كاهلي ، فكان علي أن أنهض بمسئوليتهم ، مضافة إلى أعبائي الباهظة في رعاية والدتي ـ رحمها الله ـ وزوجتي ، وهكذا وجب علي أن أبذل كل ممكن لتوفير راحتهم ولتأمين منازلهم في كل مكان تقتضيه رحلتهم ، وعن طريق موظف كريم في وزارة الحج استحصلنا على توصية بالحلول في مدارس المعارف بكل من المدينة المنورة ومكة المكرمة ومنى ، وبوساطة المغفور له إن شاء الله الشيخ محمد نصيف صدر إذن سمو الأمير فيصل ـ آنئذ ـ بالاعفاء التام من الرسوم المعهودة ، فكان طبيعياً عند وصولنا المدينة أن نتصل بمدير التعليم فيها لتعيين المدرسة المناسبة ، واختار لنا الفيصلية القريبة من باب السلام يومئذ .

لم يخطر في بالي قط أنني سأكتب عن هذا الرجل ذات يوم ، لذلك لم أركز اهتمامي على ما يجب أن أعرفه عنه ، ومع هذا فالشيء الذي لا يبرح ذاكرتي من ظروف ذلك اللقاء هو الأدب العالي الذي استقبلنا به . ثم ذلك المظهر المتميز الذي يخيل لرائيه ، أول وهلة ، أنه تلقاء واحد من ذوي الأمزجة النازعة إلى الاستعلاء .. فهو على الرغم من (وداعته) التي تطالعك في تعابيره ونظراته ، شديد الاقتصاد في الكلام ، لا يكاد يتجاوز حدود الإجابة على الأسئلة الموجهة إليه في تركيز بين الإسهاب والإيجاز ، أضف إلى ذلك مشيته التي تكاد تحصر بصره في الجهة المقابلة فلا التفات ولا تردد ، مما يثبت ذلك الظن الذي لا يمحوه من ذهنك إلا تكرار لقائه ، ومعاودة الحديث إليه .

---

(١) كتب هذا البحث قبل عشر سنوات .

ويشاء الله أن يكرمني بالهجرة إلى مأرز الإيمان فى السنة التالية لذلك التلاقى ، إذ جئت المدينة لأستقر كل هذه السنوات الأربع عشرة متعاقداً مع الجامعة الإسلامية ، ومتعاوناً مع النادى الأدبى ، الذى يتولى رئاسته هذا الصديق العزيز . وبذلك أتيح لى أن أعرف عن عبد العزيز الربيع ما كان يجب أن أعلمه لأكتب عنه .

إنها صداقة أربع عشرة سنة متصلة كشفت لى من خصائص هذا الإنسان عن كل ما من شأنه أن يملأنى تقديراً له ووداً ، ثم جاءنى كتابه (ذكريات طفل وديع) فأقبلت عليه أقرؤه وحده حتى أتيت على آخره ، فإذا أنا معه فى كتابه كما أنا معه فى حديثه وفى صحبته ، لا يعدو ذلك الأنموذج الذى رسمه هو على صفحات الكتاب المئتين والثمانين : وداعة فى الخلق ، ورصانة فى السلوك ، وتشبثاً بالقيم الفاضلة التى تشربها من بقايا التراث الخالد ، الذى تميز به مهبط الوحى ، ثم من البيت النبيل السعيد الذى فتح عينيه عليه بين والديه .

٢ ـ وأرانى مشدوداً إلى خطوط تلك (الذكريات) التى يقول إنه كتبها بطلب من جريدة (البلاد) وبملاحقة حادة من قبل صديقين لم يدعاه حتى فرغ منها بعد طويل من الوقت ، وبعد أن أشرفت على الضياع ، فكادت تنطوى إلى غير رجعة ..

إن قارىء هذا الكتاب لا بد خارج منه بصورتين يتعذر عليه أن ينساهما . أما إحداهما فمخطط دقيق التفاصيل إلى حد بعيد لهذه (الدار) التى قرنها الله تبارك اسمه بالإيمان منذ أنزل فى رعيلها الأول قوله الخالد : (والذين تبوؤوا الدارَ والإيمانَ من قَبلِهم يحبون من هَاجر إليهم ...) إنهَ مخطط تمازج فيه ألوان التاريخ والجغرافية والمشاعر .. ففيه ملامح الحياة التى عاشها الناس فى هذا البلد الحبيب ، قبل الطفرة الجارفة التى لا تزال تخضُّ وجودهم ، وتطغى على موازينهم ، فتباعد بين يومهم وأمسهم . وفيه مصوَّر يوشك أن يُنسى من آثار الماضى القريب لأحيائه وأزقته ، ومساكنه وأسواقه ، وصناعاته ، ومتنزهاته وأنديته ، التى شرعت تتوارى خلف الأشكال الجديدة ، التى تبلغ أشدَّها هذه الأيام ، حتى لتطمس على معالم تستعصى على الامّحاء من أخيلة الزائرين لهذا

الوطن الأثير ، فيوشكون ألا يعرفوا مواضعها التى كانوا يعهدون ، إلا على صفحات المؤلفات التى عُنِيَتْ بتقصى هذه المعالم شبراً فشبرا وذراعاً فذراعا . كما يتقصى الوالهُ آثار أحبابه ..

وقد عُرض كل من هذين الجانبين التاريخى والجغرافى ، لا من خلال الواقع وحده ، بل فى مزيج من المشاعر المتوهجة ، التى تحدثك عن مدى تفاعل الكاتب مع كل دقيق وجليل من تلك الآثار الأثيرة ، حتى ليذكره براوية ابن الرومى الذى كان كلما مر معه بمشهد وجدانى قال لصاحبه : ضع هذا فى تامورك ..

تلك هى اللوحة الأولى من مضامين الكتاب .. أما ثانية الصورتين فهى التى تنطبع فى مخيلة القارىء عن هذا الدليل (الوديع) الذى يأخذ بيده خلال هاتيك الرحلة الممتعة من حياة الأمس ، فى ظل الربوع التى هى أحب إلى كل مؤمن من مراتع طفولته ، ومسارح صباه وشبيبته .

٣ ـ أول ما يواجهك من هذا الكتاب بعد الاستفتاح الروحى تلك العبارة الصارخة (ما كرهت شيئاً فى حياتى كرهى للوداعة فى هذا الطفل) ثم تأتى التفاتته إلى ولده الذى يريده على التحرر من عدوى هذه الوداعة ، التى يعتبرها مرضاً ، بل آفة طالما أكلت من روح أبيه وجسمه ، فتشعر وأنت تطالع هذه الكلمات بالنقمة تغلى فى صدره من ذلك الطبع ، الذى يتمناه كثيرون من الذين حِيل بينهم وبين ما يشتهون من هدوء الأعصاب ، الذى ينعم به المحظوظون من أصحاب الوداعة ، ولعلى أعبر عن كثيرين من قراء هذا الكتاب حين أردد على مسمع أبى أيمن قولة الحكيم الصينى (لى هتر)[1] لزواره من المعزين والمهنئين فى مغارمه ومغانمه : (وما أدراك أنها سيئة ! . تلك الطبيعة التى تخشاها على ولدك ؟ ثم هل لك يا صديقى أن تكشف لنا عن ذات نفسك فتخبرنا : أى ضرب من الناس كنت تؤثر أن تكونه فى معزل عن هذه الوداعة ؟ .. ثم لو قدر لك أن تجرد منها .. أكنت اليوم هذا الأديب الذى يعرفه القراء ، أوكان لك هذا الكتاب الذى نستمتع بصوره ، ونستأنس بذكرياته ؟ ..

---

(١) شخصية فى إحدى قصص توفيق الحكيم .

لقد رأينا مقابلتك بين (عالم .. وتاجر) ومصير الثانى منهما إلى النجاح المادى الذى فتح له الطريق ، وفق تعبيرك ، إلى عالم حافل بالسعادة والهناءة والخير) على حين وقف الحظ بالأول عند حدود الكتب والأوراق والمحابر .. وما إليها من الجهاد والعناء والبلاء ، فرحت تردد مع أبى محسد المتنبى :

ماذا لقيت من الدنيا .. وأعجبه أنى بما أنا شاك منه محسود

وكأنى بك تحاول إيهام نفسك برجحان المال على العلم فى ميزان العقل .. وطبيعى أنك لم تفعل ذلك إلا وأنت تحاول كذلك أن تتناسى تلك الحقيقة الضخمة ، التى لا تنفك شاهدة على الدهر ، بأن الهائمين بالمال هم المعذبون ، لأنهم أبداً مشغولون عن قلوبهم بجيوبهم ، فما إن يبلغون منه أمنية حتى تجتذبهم الأخرى ، فهم كشارب الأجاج يريد أن يطفىء ظمأه فلا يزيده إلا تلهبا .. ولو أنت أنعمت الفكر بما حولك وما نأى عنك ، لأيقنت أن حب المال ، والركض خلفه ، والتحايل لاصطياده ، هى المنطلق الأكبر لمعظم هذا الشقاء الهائل ، الذى يتخبط فى ظلماته أكداس البشر.

ولو قد رجعت الفكر كذلك فى موضوع العلم وآثاره ، بعيداً عن ذلك التصور المرتجل ، لخففت من حنقك على حظك ، ولقطعت جازماً بأن كل ما تبقى للبشرية من أسباب الطمأنينة والخير ، إنما هو عائد إلى أولئك الذين يحترقون ليضيئوا مسالك الآخرين ، ولو كلفهم ذلك معاناة الحرمان وإضعافهم أبصارهم لتغذية بصائرهم . ومثلك لا ينسى التوجيه النبوى الحكيم القائل (رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره ..) فحسبك إذن أن تتذكر كل هذا أو بغضه لتقف إلى جانب الشاعر الآخر مردداً معه : (رضينا قسمة الجبار فينا ....) .

٤ ـ وتتداخل الصورتان : صورة البيئة الحبيبة ، وصورة المحب الوفى ، فى نماذج لا تقبل الانفصال ، كعنصرى الماء ، لو عُزِل أى منهما عن الآخر لزالت عنه خاصته المائية .

إنه يحدثنا عن طفولته ونشأته ودراسته ، فإذا هى جميعاً جزء لا يتجزأ من معالم طيبة الغالية : المسجد المبارك (المحور الذى تدور عليه الحياة فى المدينة) .

والأحياء المتعانقة من حوله ، إلى ما وراء السور الذى يشرف على التلاشى وما جاوز هذه البقاع من شواهد التاريخ التى ملأ ذكرها مقلّدات الشعراء المتيمين ، ومصنفات البلغاء المؤرخين . فأولى مدارسه ذلك البيت الذى من خلاله أطلَّ على الدنيا ، ولا يزال يشده إليه الحنين حتى ليود شراءه ـ لو استطاع إلى ذلك سبيلا ـ ثم (مدرسة العلوم الشرعية) التى استحوذت على الكثير من مشاعره ، إذ كانت البيئة الروحية التى تعهدت تكوينه العقلى والدينى ، فربطت قلبه بكل مؤثراتها ، حتى هيكلها القديم الذى شدَّ ما آسفه أن تناله يد التطور ، بله شيوخَها ، الذين يحتلون من ذاكرته المقام الأعلى ، بما عهد عندهم من الإخلاص للعلم ، والتفانى فى رعاية طلبته ، حتى لا يكتفوا بدروسهم المحددة فى الفصول ، بل يضيفون إليها أخوات لها يجمعونهم عليها فى أحضان المسجد المفضل .. وليس هذا فحسب بل إنهم ليعتبرون أنفسهم مسئولين عن حراستهم من أسباب التعثر ، فهم يراقبون سلوكهم فى المسجد ، ليدربوهم على التسامى بنشاطهم الفوار إلى المستوى اللائق بطالب العلم ، ومن (فُتُوات) الشر ، فيلاحقون السفيه الذى يتعرض لهم خارج المدرسة حتى ينزلوا به القصاص الذى يحطم خيلاءه ، ويرد للتلاميذ البرآء الأمن الذى يشعرهم بالكرامة . فهم إذن بفضل هذه الرعاية جديرون بحب هؤلاء التلاميذ . وحتى عقوباتهم الجسدية ـ التى كان حظه منها موفوراً ـ لا يتردد فى إلحاقها بالمآثر الخيرة لأولئك المشايخ ، مادام الباعث عليها هو ذلك التصميم على رفع مستوياتهم العقلية والخلقية ، وسوق المتهاونين منهم بالقوة إلى مضاعفة العناية بحفظ كتاب الله .

وعلى هذا المنوال يمضى أبو أيمن فى عرض ذكرياته عن ذلك العهد فى إطار من التوهج الروحى الذى يموج بالوفاء والأضواء ، فلا تمالك أن تشاركه فى تقدير أولئك العاملين من بقايا الشيوخ ، الذين أسهموا فى الحفاظ على تراث السلف الصالح من أصول التربية والتعليم ، وإخلاص العمل فى تربية الأجيال .

وكم هى رائعة تلك الصورة الحية التى يرسمها لذلك (الجندى المجهول) الذى (عاصر المدرسة منذ إنشائها وبقى على الولاء لها) لم يتغير على الرغم من التغيرات التى تناولت كل شىء .. إنه (الحاج موسى) الفراش الذى يقدمه مثالا

للمستخدمين ، الذين يندفعون لأداء واجبهم من داخل ذواتهم ، دونما كلل ولا ملل ولا اقتصارٍ على أوقات الدوام ..

والأستاذ الربيع عندما يسترسل فى الحديث عن ذكريات مدرسته لا يقطع قارئه عن سائر معاهد التعليم الأخرى من المدينة ، وبخاصة تلك الكتاتيب التى يحتفظ لها بأطيب الذكريات ، فهو ، على كونه لم يحظ بالدراسة قط فى أى منها ، لا ينسى فضلها وأثرها فى النشء المعاصر ، بل إنه ليجزم بأن (دورها فى خدمة القرآن ولغته دور خالد ، وأن تجاهله ظلم صريح فيه كل العقوق والجحود ونكران الجميل ..) وبهذا اللون من التقدير الكبير يقص علينا ذلك النبأ العجيب عن تلميذ فقئت إحدى عينيه (نتيجة لضربه باللوح من عريف أحد الكُتَّاب) فأصر والده على الانتقام ، المؤدى إلى السجن والدية على الأقل ، ولكن شيخاً فاضلاً قد أطفأ ثورته بمجرد تذكيره بحسن نية المدرس الجانى ، وما يتوقع من دعائه عليه فى ظلام الليل ، إذا هو قرر المضى فى طريق الانتقام ... فما كان من هذا المنكوب إلا أن أعلن ، وهو يبكى ، تنازله عن كريمة ولده لوجه الله ... ولا نتمالك نحن أن نردد مع الأستاذ الربيع تعقيباً على هذه المأثرة الكريمة قوله : (كم هم طيبون ... أولئك الناس ؟) .

وبهذه الروح المنصفة يعقب على إحدى التمثيليات المدرسية ، وقد حاولت النيل من عمل الكتاتيب ، فجعل يذكّر الحضور بفضل معلميها ، ومجهودهم العظيم فى (تعليم الأطفال وفى تحفيظ كتاب الله ، وفى خدمة لغة القرآن ، حتى فى أحلك العصور ، وأشد الظروف قسوة) .

وأنعم به من تقدير ، يوجهه إلى أولئك الأبطال المغمورين ، خبير بشئون التعليم ، مارسه وأشرف على إدارته ، وكتب غير قليل من قضاياه طوال العديد من السنين ..

٥ ـ وفى ظل هذا الحنين الوفى إلى مواضى المشاهد والمعاهد نمضى مع الصديق (الوديع) وهو يستحضر أمامنا ملامح ذلك الماضى الآخذ فى الابتعاد ، فلا يكاد يشير إلى واحد منها إلا أشعرك بأثره فى نفسه .

فهناك وسائل المواصلات القديمة التى تخلت نهائياً عن مكانها للسيارات . وما

كان لمثله أن يمر بها دون أن يذكر مميزاتها الرياضية ، التى لم تستطع المواصلات الحديثة تعويضها بشيء .. على أنه أغفل جانباً هاماً من فضائل الوسائل الأولى ، كنت أود أن يعطيه ما يستحقه من العناية . وأعنى به تلك الصلات الاجتماعية التى كان المسافرون ينعمون بها فى المراحل الطويلة ، فتكون سبباً لصداقات عميقة ، ومودات متوارثة ، إلى ما يؤكده بطء الحركة من أناة فى الخلق وهدوء فى الأعصاب لا يلبث أن يستحيل فى نفوس المسافرين ضرباً من الأخلاق المطبوعة .

وقد انتهى ذلك كله فى عهد الآليات السريعة بل الخاطفة ، فما يكاد المسافر يعرف شيئاً عن صاحبه بالجنب ، لأن المسافات ، التى كانت تستغرق الأيام والأسابيع من قبل ، قد تقاصرت وتقلصت إلى حدود الدقائق والسُّويعات ، فليس ثمة متسع للتعارف فضلاً عن إنشاء الروابط الروحية بين المسافرين .. ويالها خسارة للإنسان لا يغنى عنها كل ما وفرته له الوسائل الآلية من مكاسب مادية ! .. فكيف إذا أضيف إلى ذلك جناية الآليات على حياة الإنسان بالكوارث التى تجتاح فى اليوم الواحد ، بل فى الحادث الواحد ، ما يضاهى حصائد معركة تستغرق الزمن الطويل ..

ونظرة أخرى إلى بعض الأمكنة التى تتحرك ذكرياتها من خلال الكتاب ، منها ما ذهب به التطور الحديث فلم يبق منه على أثر ، ومنها ما يتضاءل التطور عن التطاول إليه . وما أحب أطياف تلك البساتين التى يتلاقى على حديثها الأستاذ الربيع مع ابن المدينة الراحل الأستاذ ضياء الدين رجب ، وقد أخذت بالانكماش أمام زحوف العمران ، فطُوِىَ بساط من الجمال طالما فتح لاستقبال المتنزهين من أسر المدينة الحبيبة ، ومن أهل العلم والأدب فيها .. ويكاد يطوى معه غير قليل من مواريث الخير ، التى كانت تبيح للمرتادين ثمار البساتين ، فيتناولون من أطايبها ما يشتهون دون حسيب ولا رقيب ، ليحل محل ذلك التسامح الرفيع ضروب من الجفوة لا تأذن اليوم لمستجم بدخول البستان إلا بجواز ..

٦ ـ ولنقف هنيهة مع الأستاذ الربيع نستمتع بما يرسمه من صور لطيفة عن مواسم التمور ، وانشغال الأسر بتحضيرها وتطييبها ، ثم الخبز المدلَّل الذى تَفَنَّنُ فى صنعه أيدى المخدرات ، فتجعله ألذ طعماً من أطايب الأطعمة .. وقد مضى ذلك كله

إلى غير رجعة أمام التغيرات التى أصابت المطابخ والمخابز . ويا لَروعةِ تلك الصورة التى يعرضها عند ذكر الخبز ، إذ تدع المخدَّرة لوح العجين على عتبة المنزل ، فيحمله أول عابر كائنا ماكان شأنه ، إلى فرن الحى ، فلا يدعه حتى يعود به جاهزاً إلى حيث وجده .. إنها والله لصورة من الحياة السَعيدة ، عايشناها فى الشام ، وعايشها المسلمون فى كل مكان ، وقد غابت عن وجودهم ، فغابت معها ظاهرة عزيزة من التعاون الكريم ، الذى جعل من المسلمين خير أمة أخرجت للناس ... ولعمر الله لولا ما نلمسه من بقايا هذا التراث الغالى ، متشبثة فى نفوس الكثيرين من سكان هذه البقعة المباركة ، لاستحال الأسف على تلك الظواهر المحتجبة يأساً . ولكنها طيبة .. وستظل محتفظة بفضائلها الطيبة على الرغم من كل التغيرات الدخيلة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

حتى الطب ، الذى نشهده اليوم تجارة ومساومة وذريعة إلى الجمع والمنع — إلا ما رحم ربك — قد أدركه فى المدينة خبرة ورحمة وتقوى .. وهاهو ذا (الطفل الوديع) يصاب بتضخم الطحال فيمضى به والده إلى شيخ فاضل موهوب ، فيعالجه بمزيج من الوسائل البدائية ، والدعاء الحار إلى الله ، الذى بيده الداء والشفاء .. وهو أسلوب يذكرنا بعلماء السلف ، الذين يتخذون من الإيمان منطلقاً إلى كل عمل علمى ، حتى فى نطاق الطبيعيات ، فإذا ما تعثرت بأحدهم التجارب عمد إلى الصلاة يستمد العون على مهمته من الله ، فيفرغون بذلك على العلم والعمل جميعاً روح القداسة بالاتجاه إلى مرضاة الله فى كل شىء ، حتى يستحيل عملهم من أى نوع كان عبادة خالصة لربهم .

٧ — والصديق الربيع أديب فى الحديث وفى الكتابة وفى الخطابة وفى السلوك ، فطبيعى أن يكون للأدب إذن قسطه الوافر فى هذه المذكرات ، وهذا ما يطالع قارئها من خلال كل فقرة من كتابه .

أول زاده من بواعث التطلع الأدبى كتاب الله ، الذى كان هو القاسم المشترك بين صغار الطلاب فى المدينة — وغير المدينة من ربوع الإسلام — وقد أقبل عليه فى دأب بالغ حتى يسر الله له حفظه ، وتوج مجهوده ذاك بإمامة التراويح فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم ، وبالحصول على الجوائز النفيسة المخصصة

للحفَظَة ، ومن ثَم انتقل إلى القسم الابتدائى فاستكمل مقرراته فى المدينة ، ومن هناك شخص إلى مكة المكرمة للدراسة الثانوية ، حتى إذا ما استوفاها اتجه إلى القاهرة حيث تفرغ للتحصيل الجامعى .

وحسناً فعل إذ لم يتطرق إلى الكلام عن دراسته الجامعية ، فليس فيها جديد يضيفه القارىء إلى معلوماته .. وحتى أيامه فى مكة المكرمة لم يزد على الإشارة إليها بمنتهى الإيجاز ، وبذلك انحصر حديثه عن روافده الأدبية فى أحضان طيبة وحدها . وقد بدأت هذه الروافد منذ السنة الرابعة الابتدائية ، حيث يرينا ألوان النشاط الذى أحدثه التنافس بين المدرسين ، الذين صمم كل منهم على الدفع بتلاميذه إلى القمة . ومن هنا بدأ اتصال الصديق الربيع بعالم الأدب ، عن طريق المحفوظات الطويلة ، والكتابات المختلفة ، والانفعال بموجبات بعض الأساتذة من الذين يمارسون الشعر ، ويعملون فى الحقل الأدبى . وحسب الطالب فى هذا الجو أن يكون بين مدرسيه مثل الأستاذ عبد القدوس الأنصارى ، ليجد كل الحوافز التى تحبب إليه طريق الأدب .. وقد برزت مواهب هؤلاء الطلبة المتسابقين إلى الإجادة عن طريق الصحافة ، التى تمثلت فى مجلتهم الخطية ، التى أخرجوها فأحسنوا إخراجها تحت عنوان (العروبة) فكانت ميداناً رحباً للتنافس والإبداع ، وحافزاً فعَّالا للمطالعة ولمتابعة الحركات الأدبية ، عن طريق الصحف والمجلات المختلفة .. ولكن .. وما كان أوجعها صدمة حين قرر مدير المدرسة وقف (العروبة) عن الصدور ، استجابة لرأى صحفى (ندد بالطلاب الذين ينصرفون عن دراستهم إلى الانشغال بالعبث وتوافه الأمور) وطبيعى أن ذلك الصحفى يعتبر عمل الطالب فى الصحافة المدرسية ضرباً (من العبث الذى لا يليق) فما كان من أولئك الطلبة النبهاء إلا أن ودعوا قراءهم بعدد أخير ، جعلوا افتتاحيته قصيدة هجاء لائق بذلك الناقد المائق ..

٨ ـ ويتجاوز الأستاذ نطاق الدراسة ، ليصلنا بوسط آخر ، لا بد أن يكون له أثره فى نمو حِسّه الأدبى ، وإن قل تردده عليه ، إذ يؤسفه ألا يجد من عنى بالتأريخ له حتى الآن . وهو يسميه (فندق الأدباء) لأن بعض نزلائه كانوا من هواة الأدب والفن ، وقد سمى منهم ثلاثة ، تفرقت بهم السبل ، فانتهى أحدهم اليوم إلى

رئاسة تحرير مجلة (الخفجى) ووافى الأجل ثانيهم الذى يطلق عليه صفة (البوهيمى) واستشهد ثالثهم فى حرب التحرير الجزائرية ، وكان قد وفد من الجزائر إلى المدينة طلباً للعلم فى (مدرسة العلوم الشرعية) ويقول عنه (إن غرفته كانت ملتقى هواة الفن والموسيقى) ...

ولا شك أن لبيئته المنزلية أثرها الرئيسى فى توجيهه الخلقى والفكرى ، فقد أرانا والده واحداً من شيوخه المدرسين ، وكشف لنا عن عميق رصانته بكتمانه نسبه العلوى حتى عن ولده ، لأنه يرى (خيراً له أن يكون فرداً من نكرات المجتمع يرفعه علمه وفضله ، من أن يكون شريفاً فى نسبه ولا شىء غير ذلك) .

أما والدته فلا تنزل عن مستوى والده فضلاً . وحسبنا من مزاياها الشخصية ما ذكره من أنه لم يشعر قط بحدوث أى خلاف بينها وبين أبيه . وليس ذلك لأنهما لا يختلفان ، بل لأنهما يعرفان كيف يعالجان كل خلاف مهما كبر فى معزل عن الأبناء . ومن هنا كان أثرها فى توجيهه ، حتى كانت نظرة منها كافية لصرفه عن أى شأنٍ لا تريده له ، وبذلك حمته شر التدخين فلم يجربه قط . وتقليد التافهين العابثين بشعورهم وأزيائهم . فحفظت له بذلك امتيازه الشخصى حتى الساعة

ويذكر لها حظاً مناسباً من الثقافة قبسته عن والده ، فهى تحفظ قدراً من القرآن الكريم ، وغير قليل من الأحاديث الشريفة ، إلى مجموعة من المعارف والطرائف ، مما يساعدها على إجادة الحديث ، ويجعل لكلامها بين صديقاتها جاذبية مرموقة ..

والعجيب حقاً أن يقول عن مثل هذه الأم ، المتميزة بكل هذه المناقب . أنها (جاهلة ..) لمجرد كونها لا تحسن القراءة إلا فى المصحف ! ..

ولو صح ذلك الحكم لأخرجنا كل كفيف من دائرة العلم . ولو نطح السماء بروقيه . وملأ الدنيا حكمة وعلماً . مادام لا يحسن القراءة .. ولقد آن لنا أن نتحرر من سلطان الأوراق ، ونعيد للعلم الحق قداسته . فلا نربط بينه وبين الشهرة وألقاب الشهادات . فنضع قدر المتفوقين من أهل الفكر والإبداع لمجرد

فراغهم منها ، ونرفع إلى القمة من لا يختلف عن أولئك الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها :

من كل دكتور إذا شافهته ألفيته شيخا بعقل غلام
وإذا قرأت له كلاما خلته هذيان محموم ، وهذر نيـــام
فأكاد ـ لولا بعض أرباب النهى منهم أصنفهم من الأعجام

٩ ـ والحديث عن هذه الذكريات لا يستوفى حقه إذا أغفل بعض اللفتات الوجدانية التى تطل عليك من هنا وهناك ، ولعل أهمها وأعلقها بذاتية هذا الطفل الوديع قصة المرأتين اللتين أول من تفاعلت بهما حداثته من الجنس الآخر .

أما أولاهما فربة بيت من فُضليات الجيران . سحره منها لطفها ولهجتها المغمورة بالحنان . وكثرة تردده على بيتها مع والدته ، وما يجده لديها من الايناس ... وقد زاد من اهتمامه بشأنها مرض ألمَّ بها فاقتضى من أمه أن تكثر من زيارتها تمريضها .. حتى كان ذلك اليوم الذى فاجأه بما لم يحتمل . لقد رأى فى كعْبيها أُخدودَين عميقين (نتيجة تعرضها لمفتاح ملتهب ...) ثم علم أن زوجها هو الذى أقدم على إحداث هذا الكى فى تينك القدمين بدافع العلاج ، فلم يطق تسويغ هذه القسوة .. وامتلأ صدره بأشد الكره لذلك الزوج ، الذى أطلق لقلمه العنان فى تجريحه ، فهو (الشيطان الشرير اللئيم ، بل هو الأهوج مريض العقل خبيث النفس ..) وكيف لا يكون كذلك وقد أقدم على إيذاء ذلك (الملاك الحبيب ... والطيف النورانى الذى طالما أضاء حياته وآنس أيامه وعمر وجدانه ...)

وأما ثانيتهما فأم لزميل له اعتاد أن يزوره للمذاكرة معه .. وقد بهرته هى الأخرى إذ كانت (كالشمس لا يستطيع أن يملأ عينيه منها .. مع أنها كانت حفيَّةً به ، تستقبله دائماً بابتسامتها الساحرة ووجهها الودود ...) .

ويزيد ذلك إيضاحاً فيقول : (كنت لا أقوى على النظر إليها ..) (فأكتفى باختلاس النظر ..) ولكن لا يلبث أن يغض بصره حين يتذكر أنه يرتكب بذلك إثماً فى حق صديقه ..

وما أظننى أديت ما على إذا لم أقف بالقارىء قليلاً عند هاتين الظاهرتين .

يقول الصديق أنه أثناءئذ لم يكن قد بلغ الحُلم .. ولا شك فى هذا ، لأن البيت المسلم ، وبخاصة فى المدينة ، لم يكن ليفتح أبوابه لمن بلغ هذه السن .. بيد أن ذلك لا يمنع أن يكون التفاعل النوعى قد بدأ تفتُّحه فى صدره ، فشق فى عينيه نافذة جديدة إلى مرئيات لم تخطر فى قلبه من قبل ، فهو إذن إنما يشده إلى المرأتين إحساس الأنس ، الذى بسوقه شيئاً فشيئاً إلى التفكير بالجنس ...

حقاً إن الطلائع الأولى لهذه المرحلة لا بد أن تتصف بالنقاء والنظافة فى الوسط المسلم ، فتظل تصورات الحدث ضمن نطاق البراءة ، لا تعدو نطاق التفكير بالمودة والأنس والصداقة الكريمة .. بخلاف البيئات الأخرى التى تغرق الصغار فى مستنقعات الرذيلة ، فتسرع بتفجّرهم الجنسى دونما حدود .. ولو نحن لاحظنا عبارة الأستاذ الربيع ، فى غض ذلك (الحدث الوديع) بصره عن وجه المرأة الثانية خشية الإثم ، لأدركنا أنه كان فى صراع بين الرغبة والواجب .. وهذا لا يكون أبداً فى معزل عن الحس النوعى ، ولن يحدث أبداً خارج حدود التربية الإسلامية المطهرة ..

بقى أن أذكِّر القراء بالعبرة التى يحملها إلينا هذا الحديث ، فتحثنا على أن نلتزم طريق الإسلام فى التعامل مع الأحداث ، فلا نورطهم فى ما يلهب مشاعرهم من شئون الاختلاط ، ولنكن معهم كما علمنا الله ، إذ ينهى عن دخول الأطفال الذين لم يبلغوا الحُلم حتى على مهاجع أهليهم .. وكما علمنا رسول الله ﷺ ، أن نفرق حتى بين الإخوة فى المضاجع .. فكيف بالآخرين من أبناء الجيران ، وزملاء الأبناء ... ولو نحن تقيدنا بهذا الالتزام مع هؤلاء الأحداث لوفرنا لهم الطمأنينة النفسية ، وَلَوَفَّرنا على أنفسنا الأزمات بل الكوارث الاجتماعية ، التى يتخبط فى ظلماتها الآخرون .

وأخيـــراً

إن استقصاء هذه الذكريات قد يقتضى إخراج كتاب لا يقل عن مثل صفحاتها ، لذلك لا مندوحة من الاجتزاء بأهمها عن كلها .. وحسب المعرف بها أن يثير تطلعات القارىء إلى تتبعها بنفسه ، وفى تفطن واع لمدلولاتها النفسية والاجتماعية ، فإن الحديث عن ذكريات المدينة ليس كالحديث عن غيرها من الذكريات . وقد رأيت أن أختم هذه

الصفحات بملاحظات عن بعض النقاط التى لم يتسع لها المجال فى ما أسلفت .

أولاً فى فصل (السنة الدراسية والفراغ) يثير الأستاذ واحدة من أهم مشكلات التعليم فى البلاد العربية والإسلامية ، فهو يقرر أنهم لم يعرفوا أثناء دراستهم بالمدينة ما يقلق المربين اليوم من قضية الفراغ ، إذ كانت سنتهم الدراسية متصلة الأيام ، لا يقطعها سوى ثمانية أيام العيدين . ويحدد يومهم المدرسى بأنه يمتد إلى ما بعد الظهر ، إذ يعودون من الصلاة فى المسجد النبوى إلى المدرسة لحضور حصتين ، ومن ثم ينصرفون إلى منازلهم .. وبعد الطعام يحين موعد (المعمل المدرسى) فيقبل عليه الراغبون منهم للتدريب على بعض الصناعات اليدوية ، بإشراف مدرس مختص .. ويوضح مراده بالراغبين ، إذ يرينا أن كثيرين من الطلاب يتلقون هذه التدريبات فى مشاغل أوليائهم ، أو فى مشاغل قريبة من دورهم ..

ونحن حين نواجه مثل هذا العرض لواقع التعليم القريب ، وهو بقية من مناهج السلف ، لا نستطيع المرور به دون مقارنة بينه وبين واقعنا الراهن ، لنتبين مميزات كل من المنهجين ..

لقد بدأ تخلى المدارس العربية والإسلامية عن ذلك الترتيب منذ إلغائها دوام ما بعد الظهر ، فاستتبع هذا الإلغاء أمرين : ضغط المواد الدراسية بحشرها فى دوام واحد ، ثم إلقاء الطالب فى دوامة الفراغ الذى لم نوجهه إلى الإفادة منه فى النصف الثانى من النهار ، فكان ضراً عليه وعلى أهله وعلى جيرانه ، لأن معظم الطلاب لا يفهمون من هذا الفراغ إلا أنه فسحة للخبط على غير هدى ، يضاف إلى ذلك أننا أضعنا عليهم فرصة صلاة الجماعة ، التى ترسخ فى ذهن الطالب المؤمن أن غاية العلم هى الالتزام بطاعة الله ، فجرأهم ذلك على التهاون بها ثم بما وراءها من مقومات الإسلام ، ثم جاءت الخطوة الجديدة ــ فى بعض البلاد ــ وهى تفريغ يوم الخميس كله ، فزاد الطين بلة ، واتسع الخرق على الأهلين والمجاورين ، وحتى على عمار المساجد ، إذ تمتلىء الأزقة بهؤلاء الشاردين يشحنون الفضاء بصراخهم وهم يطاردون الكرة ، أو يمارسون غيرها من الألاهى الشاغلة عن الفراغ .. فإذا وفدت الإجازة

الصيفية أقبلت ومعها كل الوسائل الكافية لبعثرة ما تبقى من الحصيلة الدراسية التى احتفظت بها ذاكرة الطالب المسكين..

إنها لمشكلة أى مشكلة ، أول حصائدها إفقار الأجيال الناشئة فى مضمار الثقافة ، وتجريدها من مقومات الشخصية التى تحصِّن بها العبادة الدائمة أهل الإيمان ..

فى العديد من بحوثى الخاصة بموضوع التربية والتعليم أوضحت أنى لست من المعادين لراحة الطلاب ، بل على الضد من ذلك أدعو إلى التقليل من المقررات الدراسية من أجل تعميق الفهم ، والتخفف من إرهاق الطالب ، ولكنى مؤمن بأن الفراغ الأجوف أخطر الأعداء على نفس الطالب وعقله ، فكل فرصة نتيحها له يجب أن تكون مجالاً موجَّها لبناء شخصيته ، وفى مقدمة ذلك تدريبه على بعض الصناعات التى تحبب إليه العمل ، وتخصيص بعض ذلك الفراغ لتمكينه من إجراء التطبيقات العملية لما تلقاه من دروس نظرية فى نطاق العلوم ...

وما أروع أن نرى معظم ذلك ماثلاً للعيان فى تلك المدرسة ، التى يحدثنا الأستاذ الربيع بأخبارها .. وما أحقنا بالإفادة من ذلك التراث ، الذى أثبتت التجارب أنه خير وأنجح ، فى مجال تكوين الأجيال التى ننشدها ، من كل عارية نستمدها من هناك أو هنالك ..

ثانيا وناحية أخرى يثيرها المؤلف لا تقل أهمية عن تلك .. إنها القيمة العلمية التى تتمثل فى مقررات الدراسة الابتدائية أيامئذ . لقد كان حفظ القرآن العظيم شرطاً لا مندوحة عن توافره للانتقال إلى السنة الرابعة ، وطبيعى أن هذا الحفظ أحد مقررات الدراسة فى المرحلة السابقة لهذا الفصل ، وما إن يصل الطالب إلى هنا حتى يواجه المنشطات الفكرية المختلفة ، من مواد ومحفوظات وتمرسات عملية فى نطاق التعبير . وبإزاء ذلك لا نرى منصرفاً عن التساؤل : أين مناهجنا الابتدائية اليوم من هذه المستويات ؟ .. بل أين مناهجنا الثانوية بالنسبة إليها ؟

لقد كثرت المواد وتراكمت ، وشغلت منها الأجنبية حيزاً كبيراً ، ولكن ..

هل فى مردودها ما يوازى الحصيلة التى حققتها ابتدائية الأمس ؟ ! .

قبل ثلاثين عاماً كتبتْ إحدى تلميذاتى فى المرحلة الإعدادية بحثاً عن (المرأة والمعرّى) فاستثار ذلك البحث إعجاب الأستاذ محمد عبد الغنى حسن حتى جعله ـ فى حديث له من إذاعة الشرق الأدنى ـ أحد الأدلة على سمو الأدب النسوى الحديث .. وأنا الآن أسأل نفسى : كم حاصلة على الثانوية ـ بل الجامعية ـ قادرة اليوم على إنتاج مثل ذلك البحث ؟ .

وإنها لتجربة جديرة والله بأن تدفعنا لإعادة النظر فى واقعنا ومناهجنا ، فنحررها من كل تبعية لغير طرائقنا ، التى بوأت أسلافنا أكرم المنازل فى تاريخ التعليم .

وهنا أقف على نهاية البحث لأشير إلى بعض ما أعتبره من الأسباب الموجبة للتدارك فى الطبعة القادمة ..

١ ـ لقد حدثنا فى مقدمة الكتاب عن قيمة المذكرات التاريخية والاجتماعية ، ومثل لذلك بمذكرات رجل (نصف مثقف) كتبها لنفسه ، فلم يهتم بتجويد العبارة ولا صقل الأسلوب .. وكأنى بالأستاذ قد اقتنع بهذه الطريقة فلم يعر ذكرياته أى اهتمام أو صقل ، فجاء أسلوبه فيها أبعد فى البساطة مما نتوقع ، وكنا نؤثر لو أعاد النظر به ، فأسبغ عليه طابعه الأدبى ، الذى لا يرضى عن العبارة إلا وفق معايير الجمال ، ولا جمال بغير جهد ..

٢ ـ فى حديثه عن (فندق الأدباء) جعل من مميزات الأديب الجزائرى هوايته الموسيقية .. وما أدرى لهذه الهواية من قيمة فى مذكرات يكتبها أديب من المدينة عن المدينة .. ولئن أُخذ الكثيرون بدعاية (أهل الفن) للموسيقى ، حتى استهوت غير قليل من أصحاب العقل والفضل ، فما ينبغى لها أن تستهوى قلم مؤمن يعيش فى مهبط الوحى ، بعد أن أكرمه الله باستظهار القرآن ، وبعد أن سماها رسول الله ﷺ (مزامير الشيطان) ..

وقد أشرت إلى أنه يطلق على أحد أدبائه صفة (البوهيمى) وللبوهيمى فى مفهوم الناس معان ليس فيها واحد يؤهل صاحبه للاحترام ، فما بالك إذا كان مع ذلك يعيش على مقربة من مثوى سيد ولد آدم ﷺ وبجوار مسجده الذى هو

مهوى أفئدة المؤمنين من كل حَدَب وصوب ! . وليته أكرم ذكرى هذا الرجل بستر سوأته بدلاً من تعريضها لهذه الفضيحة . .

٣ ـ من خصائص الوداعة فى أخلاق الصديق الربيع وفاؤه لإخوانه وتوقيره لهم ، وقد لمست ذلك منه فى السفر والحضر . وبهذه الروح الكريمة يسجل ذكرياته عن أساتذته فى إطار من التقدير الصميم . على أنى لا أكتمه عدم ارتياحى للتجبيل الذى أحاط به ذكرى طه حسين فى مطالع صفحاته . ولئن كان له عليه من أثر فى صياغته الأدبية وأسلوبه النقدى ،فليس من حق ذلك أن ينسيه مساءته لدينه ولكتاب ربه ، وتسخيره قلمه ـ طوال حياته ـ لتحقيق أمانى أعداء الإسلام .. ومثل الصديق الفاضل لا ينسى أن حب الحق يفرض علينا بغض أعدائه ، فكيف بأن نسبغ على أحدهم لقب (الجليل) . . .

٤ ـ ومن يتتبع كتابات الأستاذ الربيع ، ويتسمع لمرتجلاته فى المناسبات الأدبية ، يدرك مدى احتفاله بل اعتداده بلغة القرآن ، ويستغرب فى الوقت نفسه أن يقع خلال مؤلفه على بعض العثرات اللغوية ، ولكن استغرابه سيزول حين يتذكر أن العربية هى الغالبة دائماً حتى على أخلص أنصارها .

وبهذا الاعتبار ألفت نظر الأخ الكريم إلى النقاط التالية : ـ

فى ص ١٤ يقول الأستاذ : (لم أتمكن أبداً ..) والصواب : قط .

وفى ص ٦١ (لم يقو على احناء قامته .) والصحيح : حَنْى ـ ثلاثياً ـ .

وفى ص ٦٧ (خمس ريالات) والصواب : خمسة .

وفى ص ١٢١ (والنصف شهر) ومثل ذلك فى ص ١٩٣ (العشر دقائق) والصواب : نصف الشهر وعشر الدقائق .

وفى ص ١٥٣ (بقدر ما تهيء .. بقدر ما تبعدهم) والصواب حذف (بقدر ما) الثانية .

وفى ص ١٧٧ (ملتصقتين ببعضها ،

وكذلك فى ص ٢١٣ (ويستعرن من بعضهن البعض) والصحيح : ملتصق بعضها ببعض ، ويستعير بعضهن من بعض .

وفى ص ١٩٢ (أعرج الرجل) والواجب حذف (الرجل) .

وفى ص ٢١١ (سيماء الخوف) والصواب : سيما ـ دون همزه ـ .

وفى ص ٢١٧ (خاصة وأنها) ولا حاجة للواو .

وفى ص ٢٤٤ (أن هناك .. دواباً) والصواب (دواب) .

وفى ص ٢٤٧ (بينما أن جبل أحد) والصواب : على حين أن جبل أحد ـ أو نحو ذلك ـ لأن (بينما) من ألفاظ الصدارة .

وفى ص ٢٦١ (لم يكن لها .. إلا اثنين) وهو اثنان ـ اسم كان أو فاعلها ـ وقد أورد البيت التالى ـ ٨٣ ـ : ـ

(محمـــد المختـــار الهاشـــمى شديد البأس ذى العزم القوى)

وهو مختل الصدر عروضياً . ويستقيم بمثل (محمدٍ الأمين الهاشمى) .

وثمة هفوات أخرى بعضها موضع خلاف . وسائرها من النوع الذى يعود غالباً إلى التطبيع .

وكلمة أخيرة : ـ

ألم يكن ثمة من سبيل لإخراج الكتاب فى أجمل من هذه الطبعة البدائية ، التى لا تتناسب البتة مع مؤلف يحدثنا عن ذكريات عزيزة ، حديث القلب إلى القلب ؟ ! .

* * *

لقاءات ..

واستطلاعات ..

وخواطر ..

لقاء .. مع مجلة الدعوة

نبذة عن حياته

يقول الأستاذ /

ولدت فى مدينة طرطوس على الساحل السورى عام ١٩٠٧ م فى ذلك الوقت لم يكن هناك سجلات للمواليد فكانوا يقدرون التاريخ ، وكتبوا تاريخ ولادتى عام ١٩٠٦ م ثم اكتشفت أن التاريخ الحقيقى هو عام ١٩٠٧ م .

نشأت هناك أيام الأتراك والمدرسون كانوا من أصحاب الدين والأخلاق والتقوى ، ونشأتى الأولى كانت فى الكُتّاب وهو نوع من المدارس الجامعة ، حيث تعلمنا فيه أبسط الأشياء وأدقها وأعقدها ، والشيوخ الذين كانوا يدرسوننا يمتازون بأنهم أسوة صالحة لتلاميذهم لا أحد يستطيع أن يأخذ عليهم نقيصة ، وهذا ما نتمناه أن ينتشر هذا الصنف من المدرسين حتى يسترجعوا مكانتهم . وقد نشأت فى بيت دين ، وكان والداى من ذوى المواهب الشعرية رحمهما الله . وأحفظ من شعر والدتى التى كانت تنظم الشعر الشعبى أشياء لو نظمت بالفصحى لكانت من الأشياء الجميلة ، وكذلك كان عمى شيخاً أخذ الناس عنه دينهم ، ثم كانت دراستى على المشايخ ، وأكثر ما غذيت به كتب شيخ الإسلام ابن تيميه وتلاميذه القدماء والمحدثين ابن القيم والسيد رشيد رضا ومحمد عبده ، هؤلاء هم أساتذتى .. ثم أقبلت على التراث الإسلامى إذ كنت مولعاً بالقراءة منذ طفولتى . ففى الثامنة أو التاسعة كنت أستأجر الكتاب وأكب على المطالعة والأهل نيام والمطر منهمر يلسعنى ببرده ورشاشه ، حتى أتهاوى من النعاس وينهض أبى ليكرهنى على النوم ، حتى إذا استوثقت من غفوته عدت إلى الكتاب . لذلك كان ارتباطى بالكتاب هو الذى أوصلنى إلى ما أنا عليه الآن

والأستاذ فى هذا اللقاء يحدثنا عن السيرة المطهرة ، وعن الشباب والأدب والشعر الحر والشعر الشعبى وما إلى ذلك من أحاديث شائقة .. وقد بدأنا الحوار معه عن

السيرة التى تولى تدريسها لسنواتٍ طوال فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وكتب فيها الكثير.

* بما أنك درست السيرة ولك بعض الكتابات فيها ، فما هى الفوائد التى تنعكس على واقع المسلمين من دراسة السيرة النبوية وما تشتمل عليه من إشراقات .

ـ بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . سؤالك هام جداً وإنه ليلمس فى نفسى أعماقاً . ذلك لأن تدريسى السيرة النبوية أتاح لى أن أفهم عن الحياة وعن التاريخ الإسلامى مالم أكن أفهمه من قبل . فأنا أعتقد أن السيرة النبوية شىء أساسى لثقافة المسلم وكما أننا لا نستطيع الاستغناء عن القرآن الكريم ، كذلك لا نستطيع أن نستغنى عن السيرة النبوية ، ذلك أن السيرة النبوية ماهى إلا تفسير وتفصيل وتطبيق لمعانى القرآن العظيم . وهى إلى ذلك المصدر الأعلى والأكمل لمسيرة الدعوة الإسلامية ولحياة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله . ومن خلال السيرة يتجلى معنى ما نسميه النظام الإسلامى الكامل فى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحربية ، وكل ما يتعلق بحياة المسلم .. لذلك تقاس سوية الثقافة للمسلم بمقدار تثقفه بالسيرة المطهرة ... هذا الذى شعرت به وهذا الذى استفدته من تدريس هذه السيرة المباركة طوال العديد من السنين .. وقد أكون أفدت كثيراً خلال تدريسى لطلابى ولكننى استفدت مثلهم وربما أكثر منهم ، لأن علاقة المدرس بالسيرة النبوية إنما هى علاقة برسول الله ﷺ ، وبصحابة الرسول رضوان الله عليهم ، وبالمدرسة الأولى التى خرجت هذا الرعيل الذين فتح الله تعالى لهم الدنيا وتركوا بصحابتهم المباركة على حياة الإنسانية وتاريخها .

* ما هى كتب السيرة التى تشجع الشباب على قراءتها إلى جانب كتاباتك عنها ؟ ..

ـ أعتقد كما قلت آنفاً أن دراسة السيرة والالتزام بها ومصاحبتها شىء ضرورى جداً للمسلم الذى يهمه أمر دينه ، إذ لا يمكن أن يستكمل صفته الإسلامية إذا لم يكن متشبعاً بروح السيرة النبوية . وبالنسبة إلى كتاباتى فقد استخلصت الكثير من مشاهد السيرة النبوية وعرضتها بأسلوب قصصى ، ولم أجمع هذه المشاهد فى كتاب واحد بل هى موزعة فى مجموعات قصصية تقارب الخمس عشرة ، ومنها مجموعة اسمها (قصص لا تنسى من تاريخنا) فيها الكثير من هذه القصص الإسلامية التى استمددتها من السيرة

ومن أوثق مصادر التاريخ الإسلامى .. وفى اعتقادى أن السيرة كنز لا يفنى ولا ينتهى .. وقد أكتب فى الموضوع الواحد قصة فيأتى غيرى فيجد مجالاً آخر لكتابة هذه القصة بشكل آخر وبأسلوب آخر وبصفة أخرى ، وهكذا تنطوى السيرة على معان لا تنفدُ أبداً لأنها متصلة بروح القرآن العظيم .. وكما أن معانى القرآن لا تنفد معانيه وعجائبه لا تنقطع ، كذلك السيرة النبوية ، ومن هنا كانت عنايتى بالسيرة فيما كتبت من قصص مستمدة منها .. ولقد كتبت ماكتبته من هذه القصص لإفادة الجيل الجديد ، لأن القصة لها أثر ولها جاذبية ، بخلاف المقالات الموضوعية ، فالجيل الناشىء إذا استطعنا أن نجتذبه بهذه الطاقات وهذه الأساليب القصصية استطعنا فى الوقت نفسه أن نربطه بمعانى السيرة وبالمعانى الإسلامية ، لذلك على الأدباء المسلمين أن يعتنوا بهذا الجانب عناية كبيرة . أما الكتب التى تتعلق بالسيرة النبوية فكثيرة جداً أرشح منها للقراءة كتاب (سيرة الرسول) للأستاذ محمد عزة دروزة ، فمن مميزات هذا المؤلف أنه مستخلص من كتاب الله بالدرجة الأولى فلا خلاف على مضمونه ، وإن اختلفنا مع مؤلفه الكبير فى بعض الفهم للنصوص . ثم يأتى كتاب أبى الحسن الندوى وفقه السيرة لمحمد الغزالى وكتاب السيرة النبوية للدكتور مصطفى السباعى عليه رحمات الله ، وللأستاذ البُوطى كذلك أشياء جديدة فى هذا المضمار ، ولكن الغريب أنه أطلق على كتابه الاسم الذى عنون به الغزالى ، وكان خيراً لو أفرده بعنوان جديد .

* ما رأيك فى مؤلفات الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ، وخاصة كتبه (صور من حياة الصحابة) و (صور من حياة التابعين) .

- لقد ذكرت اسم صديق عزيز وأخ لى فى الله ، وأنا أشهد أن الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا أحد أدبائنا الفضلاء ، وطبيعى أن يكون له إنتاج جيد وصالح ، ولكن فى رأيى أن الكتب التى ألفها عن السيرة وعن الصحابة وعن التابعين تحتاج إلى أناة أكثر ، ولو أنه أعاد النظر فيها لأدخل عليها بعض التعديلات . وأذكر بصورة خاصة كتابه صورة من حياة التابعين ففى هذه الصور أشياء مخالفة للمنطق وأيضاً مخالفة للواقع ولا يمكن بحال أن تكون صحيحة ... مثال ذلك ما يرويه عن أبى حنيفة رحمه الله ، فقد روى أشياء غريبة ومبالغات لا يصدقها إنسان ، فهو يجعله لا يكاد ينام الليل وهو قائم بالعبادات ، فكيف يمكن لإنسان من لحم ودم أن يقوم بكل هذه

العبادات ، ولو أن الدكتور الباشا عاد إلى مصادر هذه الأشياء ، ورجع إلى أسانيدها أى إلى ما كُتب عن الذين رووها لوجد أنه أمام مشكلات تحتاج إلى التحقيق وإلى التدقيق أكثر ، ونحن يهمنا أن تصل الحقائق إلى الناس مجردة من المبالغة والغلو .. ويكفينا أن نأخذ الحقائق ، ثم بعد ذلك نسكب هذه الحقائق فى أساليب أدبية مؤثرة فى القلوب وهذا ما يطلب من كاتبى السيرة .

* وهل هناك ما يؤخذ عليه فى كتاب صور من حياة الصحابة ؟ .

ـ لا أذكر الآن منهجه فى موضوع الصحابة ولكن الذى يتعلق بذهنى من السيرة النبوية مثلاً يوم الأحزاب حيث ذكر فى حلقة إذاعية عدداً للمسلمين مخالفاً للثابت تاريخياً . وقد كتبت إليه أنبهه إلى ذلك ، أما حياة التابعين فكثر فيها الغلو الذى لا يقبل ، ونحن لسنا بحاجة إلى الغلو الآن فى تاريخنا حقائق هى أكبر من الخيال ، ولو أننا اكتفينا بها لكان ذلك أفضل .

* ألا ترى أن ذلك من أساليب الترغيب ؟

ـ لا يجوز أن نقول غير الحقيقة فى سبيل الترغيب لأن الحقيقة كافية بنفسها للتأثير فى النفوس .. نحن لنا تاريخ إسلامى مرتبط بديننا لذلك لا نسمح لأنفسنا بأن نتقول أو نتزيد أو نغالى ، بل يجب أن نقف عند حدود الحقيقة والواقع مع العلم بأن هذه الحقيقة لا يعرضها الأديب بطريقة موضوعية بل بطريقة فنية تثير الخيال وتهيج المشاعر ، وحسب الأديب أن يحقق النجاح فى صياغته لحقائق التاريخ الإسلامى .

* كتابات نجيب الكيلانى ماذا ترى فيها ؟

ـ نجيب الكيلانى كاتب موهوب وقصصه من الأعمال النافعة التى أتمنى للشباب المسلم أن يتثقف بها ، لأن هذا القلم له طاقات وقدرات عالية يمدها قلب مؤمن ، فهو يغمس قلمه بعواطفه فيخرج قصصه مؤثرة جداً ومتموجة بالعاطفة والحرارة إلى جانب الحقيقة ، وهو بجانب القصص له كتابات عن الأدب الإسلامى إذ يعتبر من السابقين إلى هذه الناحية والداعين إليها ، هذا إلى جانب موهبته الشعرية التى هو قليل العناية بها .

* هل تقرأ لعبد الرحمن صالح العشماوى ؟

ـ أنا أحب هذا الفتى فى الله ، لأن له مواهب عالية ورؤية إسلامية ناضجة ، ومع صغر سنه فقد ارتقى شعره إلى مستوى رفيع ، لذلك أتمنى أن يواصل طريقه إلى الأعلى ، وإنى لأرجو أن يكون مستقبله أعظم بكثير إن شاء الله .

* ما رأيك فى الشعر الحر .. المفارق لعمود الشعر .. وكذلك الشعبى ؟

فى رأيى أن الشعر العمودى هو غير الذى يلتزم عمود الشعر ، فالعرب فى العصر العباسى كانوا يقسمون الشعر نوعين أحدهما الذى يلتزم عمود الشعر ويريدون بذلك الذى يسلك طريقة الجاهلية والسابقين ، وهى الطريقة الكلاسيكية ، فمثلا هندسة القصيدة الطويلة عند الجاهليين تبدأ بالغزل ووصف الأطلال ثم تشعبات شتى ، وبعد ذلك يدخل إلى الموضوع الذى يريد .. فالقصيدة الواحدة تتألف منها موضوعات متعددة ، بل أحيانا يفرق البيت عن البيت فلا يؤلفان وحدة موضوعية ، فمن سلك هذا الطريق سمى ملتزماً بعمود الشعر ، ولكنى لم أقرأ قط على لسان أديب أو ناقد قط من العصر العباسى أنه قال عن شعر أولئك إنه شعر عمودى .

أما الشعر الحر الآن فإنه يصلح أن نقول عنه انه شعر عمودى ، وأنا أطلق عليه كلمة عمودى تصحيحاً لهذا المفهوم .. لأن الشعر الكلاسيكى الذى ورثناه عن الأدب العربى القديم حتى أوائل عصر النهضة يقوم على أساس أن القصيدة تتألف من أبيات ، والبيت يتألف من شطرتين فهو أفقى من هذه الناحية .. أما ما يسمونه الآن بالشعر الحر فيقوم على التفعيلة ، فهو لا يتألف من أشطر وإنما يتألف من فقرات غير متساوية ، بعضها يتكون من تفعيلتين أو من تفعيلة ، والفقرة الثانية قد تكون من أربع أو خمس تفعيلات ، وقد تقصر وقد تطول ، وليس هناك ارتباط بين الفقرة والأخرى من حيث عدد التفعيلات ، ومثل هذا لا يرتب أفقياً وهو أحرى بأن يسمى عمودياً .

بقى أن نتكلم عن الشعر الحر .. الشعر الكلاسيكى معروف بخاصيةٍ من الشعر تكاد تقصره على الضرب الغنائى .. وهو الشعر الذى ينبثق عن العاطفة والوجدان فهو شعر ذاتى ، وكل شعر ذاتى يتحدث عن وجدان صاحبه فهو غنائى ، فالشعر العربى غنائى ، والغنائى أصح الشعر وأقواه وأصدقه ، لأن الشاعر الذى ينظم قصيدة من هذا النوع معبرة عن وجدانه يكون صادقاً فى تصوير ذاته ، أما الشعر القصصى الذى يتحدث عن أشخاص آخرين فلا يكون دائماً ذاتياً ولا يكون دائماً ذا علاقة بالذاتية .. مع العلم

أنه قد يكون قوياً لدرجة أن الشاعر يتقمص الموضوع التاريخى فيتأثر به وينفعل ، فيخرج غنائياً . ولكن هذا ليس دائماً . وهذا الشعر الذى صاغه العرب من الأبيات ذوات الأشطار المتوازية يختلف عما يسمى الآن بالشعر الحر بمفهوم عامة المحدثين .. إذ أن هذا النوعان أحدهما يلتزم التفعيلة الواحدة . وقد تكون من أجزاء الخفيف (فاعلاتن) وقد تكون من البحر المتقارب (فعولن) ونحو ذلك .. المهم أنه يلتزم تفعيلة واحدة ولا يزيد عليها . فإذا كان للطويل نوعان من التفاعيل (فعولن ومفاعيلن) وللخفيف (فاعلاتن ومستفعلن) فالذى يسمونه الشعر الحر من النوع الذى يلتزم التفاعيل يكتفى بتفعيلة واحدة ولا يزيد عليها . وهذا يعنى أنه مخالف لشعر التراث . فهل يستحق أن نسميه شعراً ؟ .. أنا شخصياً كنت من مخاصمى هذا الفن وكنت أستبعده جداً وأنكر أن يسمى شعراً ، بيد أنى مازلت أتابع هذا النوع من الإنتاج وألاحظ الفروق الفنية والنغمية بين صوره حتى وجدتنى مقتنعاً بأنى أمام أشياء ممكن أن نستقبل بإعجاب وإكبار ، لأن فيها من طبائع الشعر أشياء كثيرة .

وهنا يحسن بنا أن نقف قليلاً لبيان الفرق بين الشعر والنثر . فإذا كانت عناصر الشعر هى الفكرة والعاطفة والخيال والموسيقى . فما حظ النثر من هذه الأربعة ؟ ، النثر يعنى بالفكرة بالدرجة الأولى وقد يخلو من العاطفة نهائياً ، فيكون أدباً موضوعياً أو علمياً ، والخيال والموسيقى عنصران رئيسان فى الشعر إذ لا يعنى بالفكرة بمقدار ما يعنى بالتوهج الوجدانى . ولنأخذ دليلاً على ذلك قصيدة أو أكثر عن الربيع وعندما نقرأ كلا منهما نطرب كثيراً ، ولكن إذا طلب منك أن تلخص الفكرة لما وجدتها تزيد عن عبارة صغيرة ، مؤداها أن الأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .. هذا هو الربيع ولكن الشاعر لا يكتفى بهذا بل يعبر عن إحساسه ووجدانه ومشاعره وانفعاله وتفاعله مع الطبيعة ، ولذلك يخرج القصيدة مخرجاً نفسياً .. حتى إنك لتقرأ عشرات القصائد فى الموضوع الواحد ، فلا تغنيك إحداها عن الأخرى ، لأن كلا من هذه القصائد منبثق من ذات الشاعر ، وبما أن الرؤية والمشاعر تختلف بين إنسان وآخر إذاً لا بد من الإختلاف فى أسلوب ونغم القصيدة على حين أن النثر على خلاف ذلك .. فلو أننا أعطينا معادلة رياضية لمئة رياضى لأعطانا كل منهم حلاً صحيحاً يغنيك عن قراءة الحلول الـ (٩٩) فى الشعر لا تغنيك قراءة قصيدة عن قراءة العشرات من القصائد فى

الموضوع نفسه .. وهناك كلمة لشوقى سديدة تتصل بهذا الموضوع وقد لمس بها هذه الحقيقة عندما قال :

الشعر إن لم يكن ذكرى وعاطفة وحكمة فهو تقطيع وأوزان

وأنا إذا رجعت إلى الفن الذى يسمونه الشعر الحر الآن أجد فيه من خصائص الشعر أشياء :

أولاً / الموسيقى لأنه يرتبط بالتفاعيل .. الشىء الثانى العمق النفسى أو الوجدانى الذى لا يتوافر فى النثر. ثالثاً / الخيال المترف الذى يغمر هذه التعابير بالصور الحية ، وهذه صفات شعرية بلا شك ، أخرجت هذا الإنتاج من نطاق النثر وأدخلته فى نطاق الشعر . وإذن فلا خلاف على أنه من النوع الشعرى ولكنه متطور عما كان عليه الشعر فى الماضى ، وأنا لا أستطيع أن أرفض هذا النوع من العمل الأدبى عندما تتوافر فيه صفات الجمال .. وإذا كان العمق النفسى فيه قوياً بحيث يؤثر فى نفس القارىء حتى يجتذبه للتفاعل معه ، إلى جانب النغمة الخاصة بالشعر ، فنى هذه الحال لا بد أن نعترف بخاصيتِهِ الشعرية ..

* حتى لو كان عربياً غير فصيح ؟

ــ لا بد أن يكون ملتزماً أول كل شىء بقواعد اللغة العربية وقواعد البلاغة وفق البيان العربى الأصيل ، وبذلك يخرج الشعر غير الفصيح من نطاق الأدب الصحيح .. وهنا يخطر لى فكرة عرضتها فى آخر ما ألفته فى الأدب العربى وهو كتاب (تحفة اللبيب من ثقافة الأديب) حيث قلت إن الخليل بن أحمد مثلاً استخرج بحوره من شعر الجاهليين ، فقد تتبع الأوزان ووجد أن قصيدة طرفة تختلف فى وزنها مثلا عن قصيدة الحارث بن حلزة ، ووجد هذه تختلف عن قصيدة ابن الأبرص ، وهذه تختلف عن معلقة النابغة الذبيانى ، كما تختلف عن معلقة امرىء القيس ، ثم لاحظ أن هذه الأنغام تختلف بين منظومة ومنظومة ، فتتبع الألحان المتماثلة أو المتشابهة ، وعزلها على حدة ثم استخرج منها ما سماه بالبحر ، حدد ضوابطه وأوزانه ، ثم انتقل إلى الثانى فتتبع المتشابهات من هذه الأوزان فأخرجها فى بحر واحد ، حتى تجمع لديه خمسة عشر بحراً ، ثم جاء الأخفش فاستدرك عليه بحراً فصارت البحور ستة عشر بحراً . هؤلاء الذين نظموا على هذه الستة عشر بحراً بأى حق يفرضون سلطانهم على اللغة العربية حتى

تقوم الساعة ؟ . هل يصح هذا الكلام وهل يدخل فى عقل ! . حياتهم البسيطة أعطتهم هذه الأوزان البسيطة ، وكانت ملائمة لحياتهم ، ثم جاء جيل بعدهم وجد أن هذا لا يزال ملائماً لحياته ، لأنه لا يزال مرتبطاً بهذه الجذور .. ثم جاء جيل آخر شعر أنه يضيق بهذه الأوزان وأنها لم تعد تتسع لأحاسيسه ، فجعل يشذ عن هذه التفاعيل يزيد فيها أو ينقص .. وقد أخذ بعضهم على أبى العتاهية تهاونه بضوابط العروض فى بعض الأحيان ، فماذا كان جوابه ؟ .. هل قال إنه أخطأ ؟ لا بل كان جوابه أنا أكبر من العروض !. هذه العبارة تدلنا على أن قلب الشاعر وخاطره وعقله ضاقت بتلك القيود التى فرضت عليه . ثم جاءت أجيال أخذت تغير فى الأوزان نفسها . فمعروف أن الموشح الذى اخترعه الأندلسيون لم يحافظ على أوزان الخليل ، وخرج عليها وأحدث فيها تغييراً كثيراً .. ثم هناك تغييرات أخرى كثيرة أيضاً ، فمثلا فى عصور الانحطاط غيّر بعض الشعراء أوضاع الأوزان فأحدثوا مقلوب الطويل بتغيير الترتيب لتفاعيله حتى صار (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن ...) وإنما فعلوا ذلك ليتحرروا من بعض هذه القيود ، وهؤلاء الذين يصوغون الشعر الحر الآن إنما يندفعون من المنطق نفسه ، ويرون أن لهم الحق فى أن يتصرفوا كأولئك السابقين ، فلماذا تريدون أن نقيدهم ونقول لهم لا يجوز أن تخرجوا عن الستة عشر بحراً . وهذا خطأ وإساءة للعربية ، بل هو إضعاف لقيمتها ، لأن من الخير لهذا اللسان الكريم أن نطلق حرية المواهب لتقدم له كل جديد .

هذا ما يتعلق بالشعر الحر الذى يلتزم التفعيلة ، لكن هناك نوع جديد ظهر حديثاً أيضاً وهو الذى لا يلتزم التفعيلة مطلقاً ، وبعضه يحمل طاقات شعرية رائعة جداً .. العمق . الانفعال العاطفى الحار . الصياغة المتألقة .. مما يجعلنا مضطرين لأن نفرزه عن النثر وعن الشعر جميعاً إذْ لم يلتزم التفاعيل وليس فيه موسيقى الوزن . وأنا لا أستطيع أن أرفض هذا وأقول للناس يجب على أن أقيد خواطركم ولا أسمح لكم بالتحرك خارج حدود الأوزان والتفاعيل ، فهؤلاء يملكون موهبة لم تمكنهم من أن يعملوا بالكلام الموزون فعملوا بالصفات الأخرى ، فلعملهم الحق فى أن نقدره حق قدره ، وأن نمنحه جواز المرور إلى ساحة الأدب ، ثم إن من حق هذين النوعين المحدَثين فى أدبنا أن نُميز كلاًّ منهما بالمسمى الخاص اللائم ، وقد اقترحت فى كتابى (تحفة اللبيب) وفى غيره من الكتابات أن نسمى المصوغة القائمة على التفعيلة (النظيمة) والأخرى المتحررة من ضوابط الوزن (نثيرة) بحيث يكون لدينا القصيدة والنظيمة والنثيرة . وكلها يجمع على

فعائل .. وفى ذلك إنصاف لانتاجين كان لهما نصيب فى إثراء الأدب العربى الحديث ، والذين يحاربونهما يخطئون لأنهم يمنعون الأدب العربى من أن يزداد ثروة وجمالاً ، فالمقطوعات التى يلتزم أصحابها التفاعيل وتلك الصيغ الجديدة من حقها أن تبعث السرور ولكنها عندما تفرغ من الطاقات الجميلة المؤثرة فأنا أرفضها كما أرفض الشعر الكلاسيكى الفارغ من المعانى والانفعال . ذلك لأن الشعر ليس وزناً وقافية وتفاعيل وحسب فالشعر روح ، والشعر انفعال ، والشعر وجدان .. والشعر رؤى بعيدة تُرى الشاعر مالا يراه الآخرون ، وإنما سُمّى الشاعر شاعراً لأنه كما يقول ابن رشيق أوفر شعوراً من الآخرين ، والشعر إذاً أعلى بكثير من هذه الخلطات التى تجرى على بعض الألسن .

* والشعر النبطى ما رأيك فيه ؟

ـ أنا أخشى تأثير الكلام العامى على اللغة الفصحى ، فلغتنا عرضنا وهى التى تمسك وجودنا على الأرض ، وإنما نحتفظ بذاتيتنا بقدر احتفاظنا بلغـة القـرآن ... وليس هناك أشرف منها فى الوجود ، ويكفيها شرفاً أن الله هو الذى تكلم بها ورسوله محمد ﷺ ، ثم تلاميذ محمد ، والتابعون لهم حتى تقوم الساعة يتخذون من هذه اللغة صيغة للتعبير والتخاطب ، فكيف نستبدل بها كلاماً ملحوناً أول ما يفقد طابع الجمال ! والأدب الشعبى إجمالاً إنما يغذيه انفصال الجماهير العربية عن الثقافة العربية الأصيلة ، حيث تجد نفسها مضطرة إلى استحداث ثقافة ذاتية تصور مشاعرها وتطلعاتها . والشعراء الشعبيون لم يستطيعوا الصياغة الصحيحة فاضطروا أن يخترعوا هذه الأوزان الشعبية . إذاً فهذا شعر شعبى ولكنه من واد غير وادى الشعر الأصيل . وما دامت ذاتيتنا مقرونة بلغة القرآن فليس من الحكمة ولا الخير أن ندع للعامية أن تزاحم لغة القرآن فى الإذاعة والأغانى والمطارحات الأدبية ، لأن نتيجة ذلك إضعاف العربية الأصيلة . وهنا أذكر أننى أعرف أحد الإخوة من كبار الأدباء ولكنه لشدة عنايته بالشعر الشعبى إلى جانب الشعر الفصيح ... إذا قرأ الشعر الفصيح لحن فيه وأخطأ ، مع أنه من كبار اللغويين ، فلماذا ؟ . لأن طول مخالطته للشعر الشعبى أفسد لغته .

* لكم إنتاج شعرى وأدبى اصطبغا بإسلامية واضحة .. فما هى فى رؤيتكم المعايير الصحيحة لمنهج الأدب الإسلامى ؟ .

ـ بكلمة مختصرة أقول : من الصعب أن نضع معايير للأدب الإسلامى ، لأن

الأديب سواء كان شاعراً أو كاتباً أو خطيباً مصطبغ بإيمانه .. وكلمته إنما هى تعبير عن ذاته من الداخل . فإذا كان مؤمنا ملتزما بإيمانه كان أدبه كله إسلامياً ، وإذن فنحن أمام أمرين إما أن يكون الأدب إسلاميا أو يكون غير ذلك . والأدب الإسلامى إنما ينتج عن الروح الإسلامى وعن الإلتزام بالسلوك الإسلامى .

* إلى أى حد يمكن توظيف الأدب الإسلامى على مختلف صيغه وأدواته فى مجال الدعوة الإسلامية ؟

ــ ينبغى علينا أولاً أن نفهم معنى الدعوة . الدعوة الإسلامية هى محاولة من المسلم لهداية الآخرين واجتذابهم إلى الطريق الإسلامى النيّر ، لأنه يشعر بأنه قريب من الله وأن لديه التفسير الحق للحقائق العظمى . فهو يأخذ بيد التائهين إلى هذا الطريق ، لأن كل كلمة يقولها صادرة عن نفسه وعن إيمانه . فالداعى لا يتصور له إنتاج خارج عن نطاق الأدب الإسلامى ، إن خطب جاءت خطبته إسلامية ، وإن نظم جاء شعره إسلامياً ، وإن كتب جاءت كتابته إسلامية . فأسلوب الدعوة لا يقف عند حد واحد . مثلاً لا نستطيع أن نقول .. إنه لا يمكن قيام دعوة صحيحة إلا على أساس الخطابة القوية ولا نستطيع أن نقول .. لا يمكن أن تقوم دعوة إسلامية إلا على أساس النثر العالى .. الدعوة تتطلب منا أن نستعمل جميع الصيغ وكل الوسائل التى تؤدى إلى توصيل معلوماتنا إلى الآخرين .. القصة .. الخاطرة .. المسرحية .. الرواية .. المقالة . البحث .. القصيدة .. الملحمة .. كل هذه الأشياء وسائل لتبليغ الدعوة .

* بماذا تفسرون ندرة الإنتاج الإذاعى من الشعر والقصة والمسرحية والرواية فى مجال الأدب الإسلامى ؟

ــ أنا لا أدرى أن هناك ندرة . ولكننى أرى أن ذلك تعبير طبيعى عن واقع الأمة ، فنحن نرى أن سواد القراء الآن يقبلون على الأشياء التافهة وعلى الكرة وأخبار الرياضة ، أكثر مما يقبلون على قراءة كتاب جدى .. فأعطنى قراء أعطك كتّاباً .. وقد قيل عنا إننا أمة لا تقرأ ، وأنا أقبل هذا الكلام إلى حد .. وأنا أعرف ذلك من رفاق ، أساتذة كبار ودكاترة لا يقرؤون فكيف تريد من تلاميذهم أن يقرؤوا ! . مثلاً أنا شهدت فى بعض الأقطار التى طفت خلالها مظاهر لا أجدها فى أمتى .أذكر من ذلك أننى كنت ذات أصيل فى أحد فنادق مانيلا بالفلبين ، وقد أطللت من النافذة على الشارع

العريض أتأمل أحوال المارة فإذا أنا بمنظر لفت انتباهى ولم أكن رأيت مثله من قبل .. تجمع كبير من الشباب هم بين السادسة عشرة والعشرين يقفون كأنهم ينتظرون موعد افتتاح سينما .. وبعد قليل صُفَّت المقاعد الطويلة على الرصيف الرحب ، وفتحت الأبواب عن مكتبة عامرة ، وخلال لحظات كان كل من هؤلاء الفتيان يحتل أحد المقاعد وهو يحتضن كتاباً فى صمت تام لا يكاد يحس بمن حوله .. كل واحد مشغول بكتابه . ثم بالفنادق العالمية الكبرى نجد الأجانب فى أوقات الراحة كلا يجلس بمفرده يقرأ ، وكذلك فى الطائرات ومختلف الاستراحات ، وهو منظر لا نعرف ما يشبهه فى أى بلد عربى أو إسلامى ويا للأسف !.. وفى اعتقادى أن مشكلاتنا الثقافية ستظل على وضعها الراهن حتى نرجع إلى الكتاب لنقرأه لا لنزين به واجهات منازلنا ، ثم هناك مشكلات جديدة ،التلفزيون وأشباهه شغلتنا عن القراءة بل تكاد تعطل فينا قدرة القراءة . ومع ذلك فليس كل ما كتب يصلح للقراءة لأن القراءة مادة غذائية للفكر والعقل والقلب .. فهى كالدواء ، وهناك علاجات سامة وأخرى نافعة .. فينبغى أن نعرف ماذا نقرأ وكيف نقرأ .. وقصارى القول علينا أن نكثر سواد القراء ونوجد الجيل الذى يحِب الكتاب ، وعلى الكتَّاب أن يوفروا له المادة الصالحة لتوجيهه إلى الأفضل ، وهذا سيحدث صراعاً بينه وبين الأشياء الجديدة التى شغلته عن القراءة وعن الكتاب . عندى مثلاً فى بيتى شباب يجلسون أمام التلفاز ساعات لا يملون ، فإذا أعطيتهم كتاباً وقلت لهم اقرأوا فصلا ، وجدتهم يتململون ، ولا ينشطون .. فلماذا ؟

لأن التلفاز لا يكلفهم ما تكلفهم قراءة الكتاب ، فالكتاب يستدعى تفكيراً وانتباهاً ، والعبارة التى لا يستطيع فهمها يعيدها مرة ثانية .. فعلينا إذن لكى نخرج أدباء وعلماء أن نوجد القراء .. على أن المشكلة تظل قائمة وخاضعة للتساؤل : أيهما يجب أن يسبق أولاً القارىء أم الكاتب والأديب ؟ . والحق أن الموضوع ذو وجهين لا انفصام بينهما فالمنشىء إنما يحفزه على الإنتاج إقبال القراء والقارىء لا يصله بالمنشىء إلا المادة التى تجذبه إليه ..

* من ترشحون الآن ليخلف حملة لواء الأدب الإسلامى كالرافعى فى مصر . ومثلما كان إقبال فى باكستان والأمير شكيب أرسلان فى الشام ومعاصريهم الآخرين ؟

ـ إن لواء الأدب الإسلامى الذى رفعه هؤلاء الكتاب الذين ذكرتهم لا يزال

مرفوعاً ولم ينحن . ولكن تختلف الظروف . والناس أبناء بيئاتهم .. فالبيئة التى كان هؤلاء يعيشون فيها غير البيئة التى نعيش فيها الآن .. الوسائل التى تشغل الناس الآن لم تكن موجودة فى ذلك العهد .. كان الناس مولعين بالقراءة فإذا أخرج الذين ذكرتهم قصيدة أو مقالة تتبعها الناس وأقبلوا على مطالعتها .. أنا أعرف كاتبا سوريا وهو الدكتور مصطفى السباعى رحمة الله عليه كان عندما يكتب مقالاً فى جريدة يرتفع ثمنها من خمسة قروش أو عشرة إلى ليرة كاملة أى إلى مئة قرش . إذاً فالناس كان لديهم ولع بالقراءة . وكان هناك أشخاص يُعتبرون مثلاً عليا فى الإنتاج الفكرى والأدبى . لذلك كانوا يتتبعون آثارهم . مصطفى لطفى المنفلوطى مثلاً كان ذا شهرة وأثر أكبر من مصطفى صادق الرافعى . لأن أسلوب الرافعى معقد بحيث لا يستطيع الاستمتاع به القارىء العادى إلا بعد ألفة طويلة وتمرس كثير . وإذا تم له ذلك فهو يلتذه ويعيد قراءته .. لكن مصطفى لطفى المنفلوطى يخاطب أبسط الناس فيجتمع على قراءة أسلوبه وفهمه كل القارئين .. كان عبارة عن مفتٍ للعالم العربى تأتيه الرسائل أكداساً ، كما تأتى الآن للأخ الشيخ على الطنطاوى . معنى ذلك أن الجمهور كان يتتبع آثار المنفلوطى بشغف وهذا ما فسح له مجال الشهرة فى أوساط الناشئين .. لكن هذه الشهرة لم تلبث أن تقلصت لأنها تكونت فى جو معين ولجيل معين ولظروف معينة .. والجيل الذى جاء بعد المنفلوطى أعمق ثقافة من جيل عهده . لذلك لم تعد كتابات المنفلوطى تشبع رغبته وحاجته وعطشه . إنه يحتاج إلى أعمق من ذلك .. والآن نحن أمام أدباء كبار جداً ولن أذكر أسماء هنا لأنى سأضطر حينئذ للتفضيل بين واحد وآخر ، ولكن أقول .. ولله الحمد عندنا أدباء كبار يحملون راية الفكر الإسلامى والأدب الإسلامى فى كل مكان .

* لو طلب منك ترشيح شاعر سعودى لنيل جائزة فمن ترشح ؟

ـ هؤلاء كثيرون فى المملكة العربية السعودية الآن . فهناك نهضة جبارة فى الأدب يقوم على رأسها كتاب كبار ممتازون أقرأ لهم برغبة . وكذلك هنا شعراء ممتازون أذكر منهم أسامة عبد الرحمن . مع أنى لم أقرأ له إلا بعض قصائد فى الصحف ، وهو شاعر ممتاز . وهناك أيضاً محمد حسن فقى . ومحمد على السنوسى ، والشاعر الإسلامى الجديد عبد الرحمن العشماوى وحسن عبد الله القرشى . وهناك شاب آخر ناشىء سترون منه شعراً عالياً جداً هو عبد المحسن حليت مسلم من المدينة المنورة .. وفى المدينة المنورة من الشعراء محمد هاشم رشيد والدكتور الخطراوى وحسن صيرفى وعبد الرحمن الرفه ..

وآخرون لما يلحقوا بهم ولكنهم فى الطريق .. والحق أن ثمة نهضة شعرية جيدة ولكن ليس كل إنتاجها صادراً عن رؤية إسلامية ، وأنا إسلامى النزعة والفكرة والرؤية ، لذلك لا تندمج نفسى إلا مع الطراز الإسلامى .

* ما هى آخر مؤلفاتك ؟

ـ لقد اتفقت مع إحدى دور النشر بالقاهرة على طبع قرابة العشرين كتاباً ، صدر منها حتى الآن عشرة بين جديد ومعاد . وقد صدر لى عن مؤسسة تهامة كتاب (ذكريات لا تنسى) وهو أحد ثلاثة كتب عن رحلاتى فى العالم الإسلامى ، ونشر لى النادى الأدبى بالمدينة كتابين مؤخراً ، وتحت يدى الآن من المؤلفات الجاهزة للطبع خمسة فى الأدب وشئون الدعوة ، وبينها المجلد الثالث من (علماء ومفكرون عرفتهم) ترجمت فيه لثلاثين من أفاضل الدعاة والهداة فى العالم الإسلامى المعاصر ..

* هناك ملاحظات على كتاباتك فى مجلة (الدعوة) فى السابق . لقد اقتصرت على رحلاتك وزياراتك للدول الإسلامية دون أن تتصل بتوجيه الشباب إسلامياً ؟

ـ الموضوعات التى كتبتها تتناول الشباب والأطفال والنساء ومختلف الطبقات .

* قليلاً ما نرى لك مقالات فى المجلات الإسلامية هذه الأيام فما سبب ذلك ؟ .

ـ بل إنى لأكتب الكثير ولكن لا أذيل كل ما أكتبه فى الصحف باسمى الصريح ، وذلك لظروف قاهرة .. على أن مشاغلى فى إنجاز ما بين يدى من المؤلفات اضطرتنى إلى التقليل من النشر فى الصحف .

* هناك دعوات لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى . هل تؤيد ذلك ؟ ..

ـ التاريخ الإسلامى كتب بأيد مختلفة فعندنا مثلاً العصر الأموى والعصر العباسى . والعصر العباسى يقسم إلى عصور ، والذين كتبوا تاريخ المسلمين فى العصر الأموى كتبوه تحت سلطان الحاكم القائم .. لذلك تقرب بعض المؤرخين إلى أفكار الحاكم الذى يسيطر على الدولة ، فلما جاء العصر العباسى انطلقت الألسن وانطلقت الأيدى تقول ما تشاء ، كانت هناك هجمة شديدة جداً على التاريخ الذى كتب أيام الأمويين .. كذلك فى الحقب المختلفة للعصر العباسى .. كتب كثير من التاريخ بطريقة مضطربة .

فمثلاً تاريخ الفرق الإسلامية لم يعط حقه حتى الآن فينبغى أن نبين أفكار تلك الفرق وفلسفتها والأسس التى تفارق بها الأصول الإسلامية .. هذه الأشياء حتى الآن لا تزال مادة ضعيفة غير مشتهرة ، فلذلك أرى أن إعادة كتابة التاريخ الإسلامى عمل صحيح ، على أن تؤلف لجان من كبار العلماء يكتبون تاريخ كل عصر على حدة ويغربلون ما يجدونه تحت أيديهم من الآثار الماضية ، فالصحيح يحققونه ويثبتونه ، والضعيف ينفونه حتى لا يتأثر به الناس لأنه يضر أكثر مما ينفع ..

وهكذا لابد من إعادة النظر فى كتابة التاريخ على شرط أن تتولى كتابته الأيدى النظيفة والعقول المؤمنة . ومما يؤسف له أن بين الداعين أخيراً إلى كتابة التاريخ من لا يؤتمن على التاريخ .. لقد قرأت كتاباً عن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين من تأليف رجل قطرى تخرج فى جامعة دمشق ، وكتب مقدمته أحد مدرسى التاريخ فيها ، وفى هذه المقدمة ينطلق من المعانى القومية المتعصبة .. فيتناول محمود نور الدين زنكى وأباه وقومه السلاجقة ، الذين دافعوا عن الإسلام وكانوا حصناً مانعاً للكفر من الاستيلاء على البلاد الإسلامية .. فيطعن فيهم طعناً شديداً جداً ، حتى ليفترى على والد محمود نور الدين زنكى بأنه مات سكران ، والحقيقة أنه قتل غيلة بيد خادم له رومى الأصل ، فاجأه ذات يوم يشرب الخمرة فى كأس خاصة به وعاقبه على ذلك .. فأقدم على اغتياله ، ولعله فعل ذلك بتحريض من أعداء الإسلام ، ومع ذلك لا يستنكف ذلك المدرس الجامعى أن يقلب الواقع فيتهم عماد الدين زنكى بما هو منه براء ، وإنما صنع ذلك بدافع الحقد على الإسلام ، ومع ذلك فإن هذا المدرس من الداعين لإعادة كتابة التاريخ . فماذا ننتظر عندما يتولى هو وأمثاله كأدونيس الدعوة لإعادة كتابة التاريخ .. الحكمة وضع الشىء فى مكانه نعم إعادة كتابة التاريخ ضرورية ، ولكن قبل ذلك ينبغى أن نهيىء الأيدى النظيفة التى تؤتمن على التاريخ .

* المحن التى يمر بها المسلمون كثيرة فأى البلاد التى ستختار لتحدثنا عن واقع المسلمين فيها ؟

ـ أنا كتبت وأشرت إلى الجذور المتعلقة بهذا الموضوع فى الهند والفلبين مثلاً . وعيّنتُ الأحزاب التى تعد نفسها لذبح المسلمين بالهند ، والمعروف عن الهندوس أنهم يعبدون كل حى حتى البعوض ، وقد حدثنى صديق كان فى الجزائر ويسكن بجواره

هندوسى .. فأراد أن يزور جاره هذا ذات يوم فإذا هو بمجموعة من الصراصير تجوب أنحاء بيته ، فحاول القضاء عليها ، فإذا بالهندوسى يمسكه ويقول : لا .. أبداً .. لا تقتلها .. لماذا ، لأن هؤلاء يعتقدون أن هذه الحشرات هى أرواح آبائهم ، فهم يعبدون الأحياء حتى العقرب والقمل وبخاصة الطاووس والقردة التى تعتبر من أكبر آلهتهم .. ثم أيضاً الماء فأينما وجد فهو إلههم . ولقد مررت على نهر فى إحدى مدن الهند فوجدت الذين ربما لا يملكون إلا قرشا يضعونه فى الماء قربانا ، فهم يعتقدون أن الماء كان إلهاً أذاب نفسه من أجل مصلحة البشر !. وهؤلاء يعبدون تراب الهند لأنهم يعتقدون أن أرض الهندوس إله ، لذلك عندما انفصلت باكستان عن الهند كان الجواب على ذلك مذابح متعددة ، إذ كانوا يقطعون الطريق على القطارات التى تحمل المسلمين إلى باكستان فيقتلونهم ، ويشوهونهم ويقلعون عيونهم ويقطعون أطرافهم. لماذا ؟ . لأنهم مزقوا إلههم ـ الأرض الهندية ـ ومعروف أن المجتمع الهندوسى يقوم على طبقات عرقية ، فنحن عندما نتحدث عن جنوب أفريقية نتحدث بازدراء لأنهم يميزون بين البشر هذا أبيض وهذا أسود .. أما فى الهند فالأمر أسوأ بكثير .. فهناك مثلاً طبقة المنبوذين ويبلغ عددهم حوالى المئة من الملايين ، هؤلاء المنبوذون فى أصل ديانة الهندوك وفى كتبهم المقدسة لا يجوز أن يعملوا أو أن يمتهنوا المهن الشريفة . فعملهم محصور ومقصور على نقل القاذورات وحمل البشر على ظهورهم ، ولن نستطيع أن نتصور إلى أى حد بلغ التعصب الهندوسى بازاء هؤلاء المساكين . ذات يوم مر أحدهم فى أحد الأزقة وكان هناك هندوسى يقرأ (الفيدا) وهو الكتاب المقدس عند الهندوسى ، فأطل فرأى هذا المنبوذ فأيقن أنه سمع ما قرأه من الكتاب ، ومتى حدث هذا صار الكتاب نجساً ، فماذا فعلوا به جزاء سماعه غير المقصود ؟ ! صبوا فى أذنيه الرصاص المصهور. هذا هو تعصب الهندوسى . وهؤلاء المنبوذون يريدون التخلص من هذا البلاء ، فهم يقتربون من الإسلام وكثير منهم اعتنق الإسلام فعلاً . وهو يعلم أنه يعرض حياته للموت بأيدى أولئك المتعصبين . وهناك مدينة اسمها مراد أباد فى ولاية انترابرادش فى الهند ، حدث أنه فى يوم عيد الفطر اجتمع المسلمون فى مصلاهم فجاء هؤلاء الهندوس وأطلقوا خنزيراً بين المصلين تحدياً وإثارة لهم . فطرده المسلمون وأخرجوه ، فكان جواب الهندوس أن الشرطة الذين يفترض فيهم المحافظة على أرواح الناس قتلوا من المسلمين ألفين ، هذا كان قبل ثلاث سنوات عندما كنت فى الهند .

ومذبحة آسام مثل مذبحة مراد أباد ، والذين يقومون بعملية القتل هم الجنود .. لأنهم يريدون أن يمحقوا الجنس الإسلامى نهائياً ، فهم يعتبرونهم رجزاً ويعتبرونهم أعداء ، وكل مجموعة من الهندوس بينهم مسلمون ينبغى أن يقضوا عليهم حتى تخلو لهم الأرض ، خشية من زيادة عدد المسلمين وخشية أن يصير هؤلاء قوة كبيرة ، فلا حاجة لأن يكون المسلم مذنباً حتى يقتل ، أو حتى يحرق بيته .. ويزعم هؤلاء الظالمون فى آسام أن المسلمين دخلاء على تلك المنطقة تسللوا إليها من بنجلادش (باكستان الشرقية) المجاورة وهو ادعاء باطل فنده علماء المسلمين ، ولقد وقف أحدهم فى البرلمان الهندى يخطب عن تلك المذبحة فيقول : يزعم هؤلاء الكاذبون أن هؤلاء المسلمين دخلاء وأنهم جاءوا من بنجلادش من أجل أن يزاحموهم فى حياتهم وبلادهم . وليس هذا بصحيح ، هؤلاء أبناء البلاد وأسماؤهم مسجلة فى الدفاتر ، ولكن الجنود أحرقوها حتى يضيعوا هوية المسلمين .. فلو استطاع الهندوس أن يذبحوا كل المسلمين ما تأخروا قط ، لأن الإسلام مقبول عند الطبقات المنبوذة والمظلومة التى تتلهف للدخول فى الإسلام ، ولكنهم يخافون الهندوس ولو كان هناك حرية للفكر ما بقى من هؤلاء أحد إلا دخل الإسلام . ومن الأشياء التى ذكرتها فى كتابى عن الهند أن الهندوس ليس لديهم عبادة جماعية .. يدخل أحدهم المعبد ليقف أمام الصنم ، مطبقاً يديه أو بالأحرى كفيه ، يتمتم ببعض الكلمات ثم يلقى بالقروش ويمشى ، وكل يعبد على طريقته . وإذا ذبح مسلم بقرة ينبغى أن يذبحوا مقابلها ٥٠٠ مسلم والبقرة التى تسير فى الشارع تأكل ما تشاء من المعروضات دون أن تجد رادعاً . وكذلك القرود ، ويوجد منها فى كلكتا ثمانية ملايين لا يتركون بيتاً إلا دخلوه وأكلوا طعامه ولو مات أصحاب البيت من الجوع .

* هل هناك كلمة تود توجيهها إلى الشباب المسلم ؟ .

ـ الكلمة التى ينبغى أن أقولها أنا وغيرى . دائماً : أيها المسلم عد إلى دينك وعد إلى ربك ، وهذا لا يكون أبداً إلا بالثقافة الإسلامية وبالوعى الإسلامى .. المشكلة أن معظم المسلمين قد أصبح مقطوع الصلة بدينه إلا عن طريق الهوية . فإذا ماتوا ندفنهم ونصلى عليهم بمساجد المسلمين . وربما كانوا لا يصلون ولا يصومون . وتسألهم عن دينهم فلا يعرفون شيئاً عنه . وهم مع ذلك محسوبون على الإسلام ... أقول للمسلمين اقرأوا كتاب ربكم . حاولوا أن تفهموه ، اقرأوا سيرة نبيكم . وحاولوا أن تتخذوا منه القدوة كما أمركم الله . وبذلك تستعيدون سيرة أسلافكم الذين وضع الله فى أيديهم

أزمة الدنيا حين أسلموا وجوههم إليه .. أجل على الشباب أن يعود إلى دين الحق حتى نسترجع مكاننا تحت الشمس .. لأن الله تعالى لن ينصرنا مادمنا عصاة له ، على أنى أحس بأن هناك جيلاً على مستوى رفيع جداً من الإيمان ولله الحمد ، ومن التقوى ومن السلوك الرفيع ، لكنى أخشى عليه الحضارة الغربية لأنها سموم تهب علينا من الخارج ، كما يأتينا الطعام المعلَّب . أنا لا آمن الحضارة الغربية حتى فى هذه المعلبات المستوردة . إن على المسلمين أن يكدحوا فى سبيل الاكتفاء الذاتى حتى ينتهوا إلى اليوم الذى يستغنون به عن عدوهم الظاهر والمستتر ، فيأكلون من إنتاجهم ويلبسون من نسيجهم ، ويتسلحون من مصانعهم ، وإن لم نفعل ذلك فلن نزداد إلا بُعداً عن الطريق الصحيح .

* مجلة الدعوة ماهو انطباعك عنها ؟ .

ـ أنا مسرور جداً من مجلة الدعوة إذ تسد فراغاً كبيراً فى نطاق الجهد الإسلامى ، وحبذا لو أمكن زيادة عدد صفحاتها ، وأن تضم لاقلامها المضيئة بعض الأقلام النيرة الأخرى . وهى غير قليلة فى هذه البلاد ولله الحمد ، فهناك دكاترة نقرأ لهم المعجب المطرب . وثمة شباب يقفزون بسرعة نحو القمة بفضل ما يمتازون به من حوافز الإيمان والمواهب ، ومثل الدعوة أحق بهم وبإنتاجهم الصالح .

* ما رأيك فى إتهام البعض لمحمد عبده وجمال الدين الأفغانى وبعض إخوانهم بأنهم ماسونيون ؟ .

ـ الذى أثار هذه المشكلة عليهم هو المرحوم الدكتور محمد محمد حسين . قبله لم يكن الناس يعرفون شيئاً عن هذا ، وليته لم يفعل لأنه أثار مشكلة لم نستفد منها شيئاً سوى التشكيك بكبار روادنا ، وكل مشكلة تثار لا بد أن تنطوى على جانبى الخير والشر .. وأنا شخصياً قرأت كل ما قاله المرحوم الدكتور محمد محمد حسين فى هؤلاء فلم أجد ما يقنعنى باتهامهم ، ومهما يقل فى تجريحهم ففى مخلفاتهم الباهرة ما يدفع عنهم كل سوء . أماالماسونية فلا أرى الا أنهم قد حاولوا استغلالها للمصلحة الإسلامية فلما يئسوا من محاولتهم نفضوا منها أيديهم . هذا فضلاً عن أنها كانت من الأشياء المستوردة فى أيامهم ، فلم يكن قد انكشف عوارها وبدت فضائحها كشأنها فى هذه الأيام .

ومعلوم أن الحكم فى الشىء فرع عن تصوره ،ولا يصح عزل الإنسان الذى نريد استكشاف حقيقته عن مؤثرات بيئته ، فرب عمل نستنكره بمقاييسنا الراهنة نجده مقبولاً فى ضوء ظروفه الخاصة . وهكذا الأمر بشأن أولئك الرواد . لقد كانوا فى معركة مع الاستعمار البريطانى تستدعى حشد كل الطاقات ، وكانت الماسونية بنظر الكثيرين رباطاً إنسانياً يعمل لنصرة المظلومين ولتحرير الشعوب المستعمرة ، فأقبلوا عليها للإفادة من طاقاتها فى سبيل قضيتهم ، فإذا هم يواجهون الحقيقة فيستيقنون أن هذه المنظمة ليست سوى عميلة للاستعمار واليهودية العالمية ، فلم يلبثوا أن تحرروا منها وراحوا يكشفون أسرارها ويحذرون من شرها ، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى

* * *

استطلاع حول الأدب الإسلامي
مع "مجلة المجتمع"

س ١ هل ترون للأدب الإسلامي شخصية متميزة ؟

ج ١ هذا السؤال من النوع المركب ، ولا بد فى جوابه من الإشارة إلى عدة جوانب أوجزها فيما يلى :

أ) الأدب الأصيل تعبير صادق عن ذات الأديب بما تنطوى عليه من فكر ومشاعر وتطلعات .

ب) والأديب الحق هو الذى توافرت له هذه العناصر الأساسية فى تعاون متكامل ، ثم أوتى قدرة التعبير عنها بالأسلوب الصحيح البليغ ..

ج) والأديب إنسان مطبوع على التفاعل مع عوامل البيئة طبيعية أو ثقافية أو اجتماعية ، فلا مندوحة له من التأثر بها سلباً أو إيجاباً على الوجه الفائق للمعتاد فى الآخرين ..

د) والتفاوت بين أديب وآخر قائم على أساس من خصائص القوة والضعف فى كل منهما ، فهناك المنفعل الذى يستسلم للواقع على طريقة الشاعر الجاهلى القائل :

هل أنا إلّا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

فأكاد لولا بعض أرباب النهى   منهم أصنفهن مع الأعجام

فلا يستحسن إلا ما استحسنه الناس ، ولا يستهجن إلا ما استهجنوا .. وهنالك الأديب المتميز الذى سلمت فطرته واستشعر مسئوليته ، فهو كالنحلة لا تأخذ إلا الطيب ، ولا تعطى إلا الطيب ، ينفعل بما حوله من الناس والأشياء والمعارف ، ولكن انفعال الناقد الذى يتلقى الأحسن ويوجه إلى الأصلح . ولن يتوافر هذا الضرب من الشخصيات الأدبية إلا فى الإنسان المسلم ، الذى يؤمن أن عليه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ويزن عمله قبل أن يوزن عليه .

وهكذا يتضح بلا تردد أن للأدب الإسلامى شخصيته المتميزة حتما ، بحيث يفرق القارىء بينه وبين سواه من ضروب الآداب ، لأنه يدل على نفسه بخصائصه البارزة فى مؤثرات العقيدة التى تطبع سائر تصرفات الأديب بألوانها الفارقة ، فلا تختلط بغيرها من الصفات الخاصة بالكافرين والزائغين والضائعين..

س٢ هل استطاع الأدب الإبداعى المعاصر التعبير عن الشخصية المسلمة تماماً ؟

ج١ نعم دون شك ، وذلك فى الشخصيات الإسلامية التى اتَّزنت رؤيتها إلى الإنسان والكون والحياة من منطلق الروح الإسلامى ، ويلاحظ هذا جلياً فى العديد من حملة القلم المسلم خلال عصر النهضة ، كالإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا ، ومصطفى كامل ، ثم أحمد محرم ، والرافعى ، والعقاد فالشهيد سيد قطب ـ فى القسم المضىء من حياتها ـ ومحمد قطب ، ومصطفى السباعى ، وسعيد حوى ، ويوسف القرضاوى ونجيب الكيلانى .. والكثير من تلاميذ هذه المدرسة ، التى تزداد كل يوم ولله الحمد نجاحاً وإنتاجاً واتساعاً ..

س٣ لماذا نلاحظ ركوداً فى حركة المشاركة الأدبية من قبل الأدباء الإسلاميين ؟

ج٣ لكل من الأدباء الإسلاميين ظروفه الخاصة التى تنطوى على عذره ، ولعل من أسباب ما يسمونه بالركود فقدان الحوافز المشجعة على الإنتاج ، وانشغال الأديب الإسلامى بالكدح لضرورات الحياة ، التى تتوافر بيسر للآخرين .. وأخيراً ذلك الجو الرهيب الذى يحيط به فى معظم أرجاء الوطن الإسلامى ، حتى ليجد نفسه مضطراً فى سبيل التصريح بالحقيقة للتضحية بالكثير من أمنه بل ودمه أحياناً .. وتستطيعون ملاحظة ذلك من خلال السجون المشحونة بأهل الإسلام ، ثم من خلال الأسماء المستعارة التى يذيّل بها غير قليل من عيون النتاج الإسلامى فى هذه الأيام ...

وما أرانى بحاجة لتذكيركم بمكر الليل والنهار الذى تشنه وسائل الإعلام فى العالم العربى أو الإسلامى أو العالمى ، على الفكر الإسلامى النقى ، حتى لتحاول إقناع القارئين والناظرين والسامعين بأن مجرد انتماء الإنسان لهذا الفكر ملحق إياه بأدنى دركات المجرمين .. كل هذا دون أن يجد هذا المفكر ولياً من الناس ولا

نصيراً . فكأن المعرى لم يرد سـوى التعبير عن واقع هذا الإعلام الظالم وهذا البرىء المظلوم حين قال :

إذا قلت المحال رفعت صوتى وإن قلت الصواب أطلت همسى

وليغفر الله لدعبل الخزاعى بما يصوره من حياة هذه الثلة من المضطهدين فى بيته الرائع الحزين :

بنات زياد فى القصور مصونة وآل رسول الله فى الفلوات !

وأخيراً أليس هذا نفسه واقع الحال الذى يصفه رسول الله ﷺ بقوله (الصابر ـ فيهم ـ على دينه كالقابض على الجمر) .

وهل يكلف قابض الجمر أن يرفع صوته بأكثر من كلمة « آه » ..

س ٤ متى سيصل الأدب الإسلامى إلى إيجاد (مجلته) المتخصصة المتميزة ؟

ج ٤ قضية المجلة الإسلامية المتميزة هى فى الواقع إحدى قضايا الساعة التى تشغل بال دعاة الإسلام ، وليس ذلك لانعدام الصحافة الإسلامية بل لتأخرها عن الصورة التى يتطلبها العصر. ومعلوم أن المظهر الجمالى لأى صحيفة قد بات من العناصر التى لا غنى عنها فى اجتذاب القارىء ، ولعل سواد القراء من الجيل الحديث ـ طلاباً أو طالبات ـ لا يكاد يتجاوز هذا الضرب من الصحف المزيَّنة عند إقباله على الشراء أو المطالعة ، وقليل منهم أولئك المعنيون بالموضوعات الجادة وبخاصة إذا كانت معروضة فى أردية « الدروشة » التى لا تزال ويا للأسف هى الصفة المميزة للمجلات الإسلامية ، لا يستثنى منها سوى القلة التى تحاول الجمع بين الشكل والمضمون ، وإلا تلك المجلات التى اقتحمت ميدان الصحافة أخيراً باسم الإسلام ، وليس فيها من الإسلام أكثر من الذى نراه فى بعض المجلات الأخرى التى تعمد إلى استرضاء القارىء المسلم ببعض الكلمات المقبولة ، لتستر بها الحملات المركزة التى يشنها كل عدد منها على جوهر الإسلام ..

ونحن حين نركّز على العنصر الجمالى فى المجلة المنشودة لا نغفل أهمية المضمون لأنه المادة الرئيسة التى نريد إيصالها للقارىء ، وهو أمر لم يفارق القلم الإسلامى منذ فتح له الطريق إلى حلبة الصحافة ، على الرغم من كل العقبات التى

تصادمه . ونظرة واعية إلى هذا الميدان ترينا العديد من المجلات الإسلامية التى نهضت بالعبء الكبير فى الذود عن الإسلام وتوكيد حقائقه فى مواجهة التيارات الدخيلة . أذكر منها على سبيل المثال مجلة المنار ، ثم الأزهر أيام قوتها ، ثم الرسالة فى عهدها الأول . ولقد ورث تلك المجلات ولائد لهنّ لم تزل تكافح فى الطريق نفسه ، ولكن لا مندوحة من الاعتراف بأن حظها من العمق وسعة الأفق أضيق مما عرف فى سابقاتها ، يضاف إلى ذلك تخلفها الملموس عما أحرزته المجلات غير الإسلامية فى نطاق التطور الفنى ... وهو نقص لا مندوحة كذلك من الاعتراف به ، ولا بد من تداركه للحاق بالموكب العالمى ... وطبيعى أن السبيل إلى ذلك موقوفة ، بعد الوعى والعدة الفكرية ، على توافر المال الذى به نحصل على الخبرات المتقدمة ، وبه نستقطب الأقلام ذات المردود الفعال فى مختلف الاختصاصات المثرية للأدب والعلم .

س ٥ أين النقد الأدبى القائم على أصول إسلامية ، ومتى سنوجده ؟

ج ٥ عندما تستحكم الأصول الإسلامية فى وعى الأديب المسلم يوجد ها النقد الذى تسألون عنه ، ذلك أن الناقد الحق متذوق ومقوّم ، فبالذوق يستشعر جمال العمل الأدبى وبالمعايير الموضوعية يحدد مكانته .. وإنما يتألف هذان العنصران فى الناقد الإسلامى من ممارسته للقيم الإسلامية ، ومن تفاعله مع موحيات الوحى ، اللذين يمدانه بالكلمة التى تفرق بين الحق والباطل ، فلا يرى الجمال والخير إلا فى العمل المنسجم مع الحق ، وما عدا ذلك فلغو من عمل الشياطين ..

ولقد ولد النقد المنشود مع إشراقة الإسلام الذى غير من مفهومات الجاهلية للجمال وفق مقاييسه الخالدة ، ثم جعل هذا النقد يتطور تبعاً لتطور البيئة التى تنشئه ، فمر خلال القرون بشتى المؤثرات من فارسية ويونانية ، حتى انتهى إلى ماهو عليه اليوم من ألوان لا تحصى ، شرقية وغربية وصليبية ويهودية ووثنية .. بيد أن النقد الإسلامى الأصيل لم يُخل الطريق لأىّ من أولئك المؤثرات ، بل تمكن بأصالةٍ من البقاء بإزائها ، ومن مصاولتها والكشف عن عوارها ... والأمل كبير فى أن يكون هذا النقد فى المستقبل القريب أكثر استقراراً وأعلى صوتاً إن شاء الله .

س٦ ما رأيكم فى ما يطرح فى المنتدى الثقافى من قضايا ، ولماذا لم تشاركوا فيها ؟

س٧ ما ملاحظاتكم العامة حول المنتدى والمجلة ؟

ج٦ و٧ إن المشاغل التى تثقلنى ليل نهار تحول بينى وبين الاطلاع على كل ما يكتب فى هذه الأيام ، فأكتفى بالنظر فى أهم المشكلات المثارة ، لذلك أعتذر عن الإجابة على هاتين الفقرتين.

س٨ أية مقترحات أخرى ترونها لازمة ومناسبة ؟

ج٨ أهم ما أتمناه للمجتمع مواصلة طريقها الراشد فى خدمة القضايا الإسلامية ، ثم مضاعفة العناية بتاريخ الإسلام ولا سيما فى صدره الأول .. وأخيراً أن تولى لغة القرآن مزيداً من الرعاية حتى تسلم منشوراتها من مشوّهات البيان ..

ولكم أخلص تمنياتى وأحر دعواتى بالتوفيق إلى ما يحبه ربنا ويرضاه ، والسلام عليكم أولاً وآخراً ورحمة الله ..

س١ و٢ وحوار حول القصة

ج ـ القصة إحدى وسائل التعبير الطبيعى عن ذات الإنسان وعن أحداث الآخرين ..

فهى إذن من أقدم فنون الأدب وفى ظنى أن الأديب المسلم أحرى الناس بالإقبال على هذا الفن بما يمنحه من صور الأحداث وعواقبها وعبرها.

ومن هنا كانت القصة ـ على تعدد صورها ـ أحد روافد الأدب العربى منذ الصدر الأول حتى اليوم استعان بها الخطباء وتمثل بها الشعراء وتأنق فى عرضها أساطين الكتاب ... ولئن اضطربت مسيرتها خلال القرون فمرد ذلك إلى الاضطراب فى مسيرة المجتمع نفسه ما بين الركود والانطلاق والهبوط والصعود .. وكما انتظمت حركة الأدب فى طرائقه الجديدة استأنفت القصة تحركها على النسق نفسه فكان منها المتعثر والمتقدم والخسيس والنفيس .. وكان للصحوة الإسلامية أثرها العميق فى انطلاقة القصة الإسلامية وتطورها الآخذ فى النمو والازدهار والمنبىء بمستقبل لها رفيع إن شاء الله.

وبقليل من التأمل فى أشهر ما كتب بالعربية من القصص فى هذا القرن يتضح للمفكر المنصف أن القصة الإسلامية لا تنزل عن مستوى أحاسنها فناً وروعة

وإمتاعاً .. ولكن ثمة واقعاً لابد من الإشارة إليه وهو قلة الإقبال على القصة الإسلامية بإزاء القصص الأخرى .. ولا عجب فى ذلك فمعظم الجيل الحاضر مأخوذ بالمؤثرات الدخيلة بمقدار ضآلة محصولة من التصور الإسلامى ...

أما من حيث النظرة العالمية إلى هذه القصة فطبيعى أنها محكومة بنظرة غير المسلمين إلى الإسلام نفسه وهى نظرة لم تصل بعد إلى حدود الإنصاف ، فضلاً عن أن القارىء الغربى ـ مثلاً ـ لا يكاد يعرف عن القصة الإسلامية شيئاً إلا عن طريق المستشرقين الذين لا يتجاوزون قول الشاعر :

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً عنى وما علموا من صالحٍ دفنوا

س٣

ج ـ قد يصح هذا الحكم بالنسبة إلى طلائع القصة الإسلامية الحديثة إذ كان أكثر ما كتبه الإسلاميون فى حدود الأحداث التاريخية ، وهى ظاهرة طبيعية حفزهم إليها شعورهم الحاد بابتعاد المسلمين عن مصادر تراثهم الحضارى فكان على هؤلاء الكتاب أن يعيدوا اتصالهم بماضيهم ، ليوقدوا فى صدورهم مشاعر العزة ، التى هم أحوج ما يكونون إليها فى مواجهة الهجمات الشرسة التى يقودها الإستعمار وأذنابه ، من المبشرين والمستشرقين وصنائعهم من أبناء المسلمين..

ثم لا ننسى أننا أمة الرسالة التى تتدفق مسيرتها من أصول ذلك الماضى ، الذى فيه الأسوة والمنهج ، فلا يسعها مفارقته قِيدَ شعرة وكل دعوة إلى (تحويلها) عن طريق الخط النبوى إنما هو استجرار لها إلى فقدان هويتها الربانية ، ثم إلى الانسلاخ من رسالتها السماوية . وهو ما يركز عليه أعداء العرب والإسلام بل أعداء الإنسانية ، حين يزعمون أن (ثبات) المسلمين على تلك الأصول مجمّد لطاقاتهم وحائل بينهم وبين الإبداع ، وهم يعلمون راغمين أن ثبات المسلمين على محور الوحى هو الذى فَجَّر مواهبهم ، فجعل منهم خير أمة أخرجت للناس استمساكاً بالحق واندفاعاً فى مجاهل العلم ، حتى أقاموا للدنيا أكرم حضارة عرفها تاريخ الإنسان ، وإنما عراهم الجمود فالخمود منذ تسللت إليهم أمراض الأمم الجاهلية فأفرزت لهم تلك الفرق ، التى تحولت عن طريق الإسلام إلى مستنقعات الضلالات والآثام ...

وعلى هذا فلن نتصور أن القصة الإسلامية ستقطع صلتها بروافد الماضى العريق ، الذى لا تنفد كنوزه المضيئة ، وإلا كانت كالشجرة التى اجتثت جذورها فلا تلبث أن تذبل وتموت ...

بيد أن من الخطأ القول بإعراض القاص المسلم عن واقعه السياسى والاجتماعي ، فهناك قصص لا تحصى تتدفق فى هذا المصب ، ولعل من حق الاستشهاد على ذلك من خلال قصصى الزائدة على المئتين ، وفى كل منها الدليل المقنع بهذه الحقيقة . وفى روايات الأخ الدكتور نجيب الكيلانى نماذج رائعة فى هذا الميدان حسبي أن أشير منها إلى رائعته (رحلة إلى الله) التى تحفظ للأجيال سجلاً وافياً لعهد جمال عبد الناصر سواء من الناحية الاجتماعية أو السياسية ....

س ٤

ج ـ لا تخلو المكتبة الإسلامية من نماذج روائية صالحة .. وفى روايات الدكتور الكيلانى بعض الجواب المنشود .

وأعترف بقلة ما كتبت فى هذا الجانب ، وعذرى فى هذا شعورى بقلة صبر القارىء المعاصر الذى أرهقه جو السرعة المسيطرة على كل ما حوله ، فبدافع من هذا التوقع ألزمتُ نفسى الوقوف غالباً عند عمل القصة القصيرة ، لأنى أريد أن أُبلِّغ أفكارى أكبر عدد من القراء ، ولن يتحقق لى ذلك إلا عن طريق هذا الضرب من القصص الذى لا يكلف القارىء من الوقت أكثر من دقائق محدودة .. يحصل خلالها على المتعة والفكرة والعبرة جميعاً .

على أن من الحق الاعتراف أيضاً بأن الرواية الإسلامية لا تزال فى طور البداية .. ولا أدرى متى تبلغ المرتبة التى حققتها الرواية الأجنبية التى تصور مختلف جوانب الحياة ، وتكاد توفر للقراء ــ على اختلاف مستوياتهم ــ الغذاء الفكرى العميق الذى يغنيهم عن مراجعة المؤلفات الكثيرة فى فنون الثقافة الاجتماعية والعلمية والسياسية والنفسية .. ومن هنا كان إقبال الجماهير على اقتنائها رافعاً عدد طبعاتها إلى العشرات وعدد مطبوعها إلى الملايين ..

س ٥

ج ـ الأدب التمثيلى وافد حديثاً على العربية ، ولا بد له من الوقت اللازم للتوطن

والاستقرار ، ومع ذلك فقد تقدم خطوات واسعة فى طريق النضج ، ومع أنه بدأ بزوغه من الشام فقد بلغ أشده فى مصر .. وفى رأيى أنه سيظل يراوح بين الجمود والحركة حتى يستقر الجو السياسى فى بلاد العرب على الوضع الذى يفسح المجال لحرية الكلمة .. ويومئذ فقط يستأنف هذا الفن مسيرته نحو المستوى المنشود ..

لقد بدأ المسرح العربى تقليداً للمسرح الغربى حتى فى مضمونه ، ثم جعل يتجه نحو البحث عن الذات ، فكانت التمثيليات التاريخية والاجتماعية والشعبية ، وكان للمضمون الإسلامى بعض الأثر خلال هذه المرحلة ، سواء على المسرح أو شاشة الخيالة (السينما) ثم زاد هذا الاتجاه ، بما يُعرض اليوم فى التلفاز من مسلسلات تحمل اللون الإسلامى إلى حد مقبول ، ولكن ميدان التمثيل ظل خالياً مما يمكن تسميته بالمسرح الإسلامى . ولا أتوقع ملء هذا الفراغ فى موعد منظور مادام الفكر الإسلامى نفسه مصادراً فى معظم الدول العربية والإسلامية إلا من رحم الله ..

أما من حيث مشروعية التمثيل وعدمها فالحكم فى هذا الأمر تابع لنوعية المضمون وأسلوب العرض والمسرح . والمسرحُ الإسلامى ــ حين يوجد ــ لن يقبل من المضمون إلا ما يقره الكتاب والسنة ، ولا يرتضى من الأساليب إلا النظيف اللائق بدين الله .. ومن الإنصاف أن نذكِّر هنا بما قدمه بعض الكتاب الإسلاميين من مسرحيات تصلح لأن تكون أنموذجاً للفن الإسلامى ، لو أُتيح لها أن تنتقل من الكتاب إلى المسرح أو وسائل العرض المنظور على اختلاف أشكاله .

وأخيراً فإنى أمروٌ أعتقد أن من حق دعاة الإسلام ، بل من واجبهم أن يملئوا كل زاوية من ميدان الإعلام لتوصيل صورة الإسلام النقية إلى كل سامع وقارىء ومشاهد .. وكل قصور منهم فى هذا الميدان معرِّضُهم للحساب أمام الله يوم يُسأل كل امرىء عن عمره فيم أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل به ..

س ٦

ج ــ ذلك لأن وراء الفكر اليسارى تنظيمات عالمية تتعاون على نفخ الأقزام وتشويه

الأعلام وبخاصة إذا كانوا من رجال الإسلام .. وما هذه المؤتمرات التى تقام فى ظلال الحكومات الثورية سوى بعض التلميع لتلك الدُّمى التى يراد بها خداع العامة وأشباههم . وطبيعى ألَّا يكون لأهل الحق والجد حظ فى هذه التظاهرات الغوغائية .. على أن مما يثلج صدور المؤمنين أن الصحوة الحديثة قد عمت مجالات الفكر الإسلامى ، فهو يتحرك هذه الأيام فى مؤتمرات وندوات تُبحث فيها قضايا المسلمين وتُدرس أثناءها مهمة الأدب الإسلامى وخصائصه فى أكثر من قطر إسلامى ، ولقد كان فى التوصيات التى أصدرتها (ندوة الأدب الإسلامى) المنعقدة فى الجامعة الإسلامية أخيراً ، وهى امتداد للندوة التى أقامتها (ندوة العلماء) فى لكهنوء بالهند ، ضرورة إخراج مجلة خاصة تعنى بفنون الأدب الإسلامى ، وإقامة مركز وثائق يحفظ نتاج هذا الأدب فى تصنيف منظم يسهل الوصول إليه ، ويساعد على رصد تطوره .. فإذا تم ذلك تحقق ما تريدون من دراسة للأدب الإسلامى وتعريف به على مستوى العالم الإسلامى بأسره .

س ٧

ج - أهم الوسائل المحققة لما ترغبون من تنشيط لحركة الأدب الإسلامى بنظرى اثنتان ، أما الأولى فقيام دور لنشر هذا الأدب وترجمته بخاصة إلى ألسنة الشعوب الإسلامية ، ثم توزيعه على مستوى هذه الشعوب بأدنى سعر ممكن ، مع العناية اللازمة بحسن الإخراج .

وأما الثانية فتكثير جماهير القراء لهذا الأدب ، ولا سيما فى أوساط الطلبة على اختلاف مراحلهم الدراسية .. ومما يساعد على ذلك إقامة مسابقات حول بعض المنشورات الإسلامية يقدم جوائزها ذوو الغيرة من موسرى المسلمين .. ولقد كنا ولا نزال نشكو قلة القراء للكتاب الإسلامى ، ثم جاءت المبشرات بتزايدهم يوماً بعد يوم عن طريق الإقبال المتزايد عليه فى معارض الكتب .. وهذا يستدعى من القادرين تكثيف الجهود فى هذه السبيل بكل الوسائل المتاحة ..

س ٨

ج - بين يدىَّ عدة من المؤلفات فى العديد من الموضوعات الأدبية والاجتماعية والدينية ، إلى جانب مذكرات أضمنها تجارب عشرات السنين فى مختلف

الأمكنة ، وفى ظل الكثير من الأحداث التى لا ينبغى أن تُنسى ، وكلها مما أحاول إنجازه قبل هجوم الأجل ، وهى التى وقفتْ نشاطى فى ميدان القصة حتى توقعت أن يكون آخرها هو المجموعة التى صدرت قبل أيام بعنوان (اللقاء السعيد وقصص أخرى) وآمل أن يعقبها قريباً كتبى الثلاثة عن مشاهداتى فى العالم الإسلامى ..

وأما الشعر فإلى جانب ديوانىَّ السابقين (نار ونور) و (همسات قلب) أُعد للنشر ثالثاً بعنوان (آلام وأحلام) وما أدرى إن كان سيقدر له الظهور فى ما تبقى من حياتى .. ومعظم ما يتضمنه هذا الديوان الثالث هو القصائد التى أترجم بها مشاعرى بإزاء المآسى التى يعانيها الإسلام فى معظم دياره ، ومن أجل ذلك سيكون الشعار الذى يُتَوَّج به هو قولى فى ختام إحدى قصائده :

يا خليليَّ . خليانى وأشجا ... نى أناجى أطيافَهنَّ وحيدا
قد عصتنى الدموع لكن قلبى ... فى جحيم الأسى يذوب وئيدا
وجراح الإسلام من كل صوبٍ ... قاتلاتى وإن بدوت جليدا

س ٩

ج ـ لعلى أول الداعين إلى تشكيل هذه الرابطة ، فقبل خمس عشرة سنة بدأتُ هذه الدعوة فى محاضرة ألقيتها فى (رابطة العالم الإسلامى) بمكة المكرمة ونُشِرتْ مع غيرها فى كتاب (أفكار إسلامية) ثم كررت ذلك فى البحث الذى قدمته إلى ندوة العلماء بالهند حول (الأدب الذى يريده الإسلام) وقد أقر المجتمعون هذا الاقتراح أساساً فى توصياتهم التى تولَّت متابعتها تلك المؤسسة الإسلامية المجاهدة .. وفى الكلام عن المركز الوثائقى الذى أشرنا إليه من توصيات الندوة الأخيرة فى الجامعة الإسلامية ما يتصل بذلك .

وفى تصورى أن (المجتمع) وأخواتها هنَّ المسئولات عن ملاحقة هذه المقررات والمقترحات حتى يتحقق المأمول منها إن شاء الله ، وقديماً قيل : (مالا يدرك كله لا يترك جله) .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

حوار واستطلاع
مع جريدة عكاظ

س ١ ما هو عمل الشيخ المجذوب حالياً وسابقاً . وما هى مؤلفاته ونشاطاته الأدبية والفكرية على الساحة المحلية أو العربية ؟ وفى الصحف المحلية والعربية .

دعنى أولاً أعرب لك ـ أيها الأخ حسين ـ عن عميق تقديرى وإعجابى بهذه الأسئلة التى تناولت أهم الجوانب من الحياة الفكرية بالنسبة إلى العرب والمسلمين . وأرجو أن أوفق للإجابة عنها بما تستحق ، وبخاصة فى غمرة الصوم التى من شأنها أن تضيق مجال الرؤية الفكرية .

ج ١ هذا السؤال الأول يقتضينى تلخيص مراحل حياتى العملية خلال ستة من العقود على الأقل ، وهو أمر عسير بسطه لذلك سأعمد إلى الإيجاز الذى أرجو أن يكون بليغاً ومفيداً .

أنا الآن ، وبعد عشرين سنة من العمل فى خدمة الجامعة الإسلامية مدرساً ومحاضراً ، أجد الفرصة التى طالما تمنيتها للعيش مع القلم الذى لم أستطع التفرغ له من قبل ، فأنا فى ظل هذا التفرغ أكتب فى العديد من كبريات المجلات العربية والإسلامية ، وأقوم بتسجيل أفكارى وخواطرى فى عدد من المؤلفات التى بلغت قرابة العشرة خلال هذه الفترة ، قدم بعضها للنشر ، والبقية فى الطريق إليه لتنضم إلى ما سبق من مؤلفاتى التى قاربت الخمسين حتى الآن .

س ٢ بصفتك أحد المهتمين بالقضية الأفغانستانية ، وسبق لك الاجتماع بالمجاهدين الأفغان والاطلاع على أحوالهم عن كثب ـ هل لنا أن نعرف السبب الذى دفعك للإهتمام بهذه القضية ـ ومتى بدأ هذا الإهتمام به وماذا قدمت حتى الآن للمجاهدين ؟

قضية فلسطين ـ قضية العرب الأولى ولا تقلُّ فى مأساتها عن قضية أفغانستان ـ فلماذا لم تبد نفس الإهتمام بها ؟ !

ج ٢ إنه السبب نفسه الذى يدفع الأستاذ حسين إلى توجيه هذا السؤال . إنه الإسلام الذى يجعل الإهتمام بشئون المسلمين فرض عين على كل مسلم ومسلمة . ولعل أصدق تعبير عن ذلك هو قولى فى نهاية إحدى القصائد :

يا خليليَّ خلِّيانى واشجا	فى أُناجى أَطيافهن وحيدا
قد عصتنى الدموع لكن قلبى	فى جحيم الأسى يذوب وئيدا
وجراح الإسلام من كل صوب	قاتلاتى وإن بدوتُ جليدا

وتسألنى عن موقفى من قضية فلسطين ، وحسبى فى الجواب عن ذلك أن أحيلك إلى مالا أحصى من الكتابات التى نشرتها ولا أزال أنشرها بشأنها منذ أكثر من نصف قرن فى صحف سورية ولبنان والكويت ، سواء فى نطاق المقالات أو القصائد أو القصص .. وسترون نماذج من ذلك فى كتابى (من وحى الأحداث) والكتاب الآخر (من القصص التمثيلى) والديوان الثالث (آلام وأحلام) التى آمل أن تأخذ سبيلها إلى النشر قريباً إن شاء الله .

س ٣ أميركا .. أيضاً تقدم الدعم للمجاهدين الأفغان .. فهل تعتبرها مناصرة للمجاهدين وداعية لنصرة المظلوم .. فى الوقت الذى تقدم دعمها ـ لليهود ـ ضد العرب والمسلمين .. كيف يفكر الشيخ المجذوب فى هذا الموضوع ؟ !

ج ٣ أميركا هى وارثة الأحقاد الصليبية على الإسلام ، وهى ـ كالشيوعية ـ قائدة الهجوم الشرس الخفى والظاهر على كل ما هو إسلامى ، وقد ثبت أخيراً أنها وراء كل الضربات النازلة بالدعاة إلى الإسلام وإلى تطبيق شريعة الله المنقذة فى سائر أرجاء العالم الإسلامى ، فمحال إذن أن ننتظر من أميركا أى عون جاد لقضية الأفغان ، ولكنها مجرد تصريحات تريد بها مساومة الغزاة السوفيات لتحقيق مصالحها الخاصة . وحسبنا دليلاً على ذلك ردود قادة الجهاد الأفغانى الذين لا ينفكون يكذبون ادعاء أميركا معونتهم فى قتال أعدائهم .. وكيف نصدق مزاعم أميركا بدعم قضية الجهاد الأفغانى وهى التى تجعل إسرائيل منطلقها لمحاربة

كل تحرك إسلامى ، وهى تسمع فى الوقت نفسه تصريحات قادة الجهاد بأن الخطوة الأولى بعد تحرير أفغانستان هو الاتجاه لتحرير فلسطين ! ..

س ٤ محمد المجذوب ككاتب ومفكر إسلامى ـ لو طلب منك المشاركة فى وضع حل للتسيب السياسى العربى والإسلامى فى سبيل توحيد صف الأمة .. فماذا تقترح ؟ !

ج ٤ يقول ربنا تبارك اسمه فى كتابه الحكيم ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضنكا ..** ﴾ وهو القائل سبحانه كذلك ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقْه من حيث لا يحتسب ...** ﴾

فإعراض العرب والمسلمين عن سبيل الله قد انتهى بهم إلى آلاف المآسى التى عصفت ولا تزال تعصف بهم خلال القرون ، حتى أصبحوا كالخائض فى مستنقع غوّار كلما حاول تخلصاً ازداد غوصاً ... وذلك هو أحد القانونين الذى لا مخلص منه إلا بالقانون الثانى الذى يحدد المخرج من الضياع بالعودة إلى الله ..

ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ...

س ٥ الشيخ محمد المجذوب .. كأديب ـ هل تؤيد مسمّى أدب عربى ـ وأدب إسلامى .. علماً بأن هناك من يفصل فى بعض جامعاتنا بين الأدب العربى .. والأدب الإسلامى ، وهل يعنى هذا الفصل أن الأدب العربى لا يدخل فى إطار الأدب الإسلامى ؟ !

ج ٥ لقد تركت لنا الجاهلية العربية ثروة ضخمة من الأدب شعراً وخُطَباً وحِكَماً وأمثالا لا تزال بحاجة إلى مراجعتها والتضلع من أساليبها للحفاظ على لغة القرآن ، وعلى أصالة البيان ، ولكن ليس ثمة من يسمى هذا الأدب إسلامياً بل هو الأدب العربى الجاهلى ..

ثم جاء الإسلام ليفجر المواهب وليسمو بالروية العربية الضيقة إلى الآفاق الإنسانية العليا ، ويجعل من شذاذ الجاهلية المتقاتلين أبداً فى سبيل المفاخر الذاتية ، خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ...

فطبيعى إذن أن يكون الأدب الذى انتجه التصور الإسلامى لمعانى الرسالة

العالمية الخالدة هو الأدب الإسلامي الذي لم تعرفه العربية من قبل ..

وهكذا نجد اليوم واقع الأدب المكتوب بلسان العرب ، إما جاهلي الطابع لا يتصل بالمعاني الإلهية من قريب أو بعيد . وإما إسلامي يحمل خصائص القلب المؤمن الذي قبس روحه من أنوار القرآن العظيم والسنة النبوية .. فهو يشع بهذه الأنوار على مَن حوله هدى وحكمة ورحمة وحباً ودعوة إلى الحق ، والتزاماً بالأصالة التي تحفظ على العربية طابعها المشرق ولا سيما في هذه الفترة العصيبة التي انطلقت منها الشعوبية الجديدة تحاول تمزيق الوشائج ، وإفساد السليقة الأصيلة بالدعوة إلى أنواع من الأدب لا تمت إلى الخلق الإسلامي ، ولا إلى الأساليب العربية الرصينة إلا بأنها كتبت بالحرف العربي .

ولا أذيع سراً إذا أنا قلت : لعلي من أوائل الداعين إلى الأدب الإسلامي ـ إن لم أكن أولهم ـ وذلك مما كنت أنشره في مجلة (حضارة الإسلام) الصادرة بدمشق قبل ثلث قرن . ثم في مجلة الحج ـ التي تحمل اليوم اسم رابطة العالم الإسلامي ـ بمكة المكرمة قبل عشرين سنة . وقد نقلت تلك الفصول إلى كتابي (مشكلات الجيل) . ثم لم أنفك ملحاً على تلك الدعوة حتى لقيت القبول لدى سماحة الأخ الجليل أبي الحسن الندوي فقام بالدعوة إلى مؤتمر للأدب الإسلامي عقد في ندوة العلماء في مدينة لكهنوء بالهند ، ومن ثم جاء المؤتمر الثاني في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . ثم الثالث الذي عقد في الرياض من قبل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قبل عام ..

وقصارى القول أنه لا مندوحة عن التمييز بين الأدب المنطلق من ينابيع الخير والحق والجمال ، وهو الأدب الإسلامي النقي ، وذلك الأدب الآخر الذي تجرد من كل هذه المميزات ، واكتفى بالركض وراء كل ناعق ولا أرى له مسمًّى أصدق من (أدب الضياع) .

س ٦ ترجمتك لبعض الأعمال الأدبية الفرنسية ـ هل يعني تأثرك بالآداب الفرنسية في مرحلة من مراحل حياتك ؟

ج ٦ في الأدب الفرنسي كغيره من آداب الأمم جوانب من الخير والجمال لا تتناقض مع معاييرنا الذوقية والفكرية ، بل من شأنها أن تزيد من خصبها ومساحتها . وبالنسبة

إلىَّ أشعر بأنى وجدت شيئاً من ذلك أثناء اطلاعى على بعض الأدب الفرنسى فى حدود معلوماتى القصيرة ؛ وهذا شىء طبيعى يقوم على التأثر والتأثير الذى تتناوله آداب الأمم ، ولا ننسى أثر أدبنا الأندلسى فى آداب الغرب ، وأثر الطبيعة الأندلسية فى أدبنا والأثر الذى تبادلته آدابنا مع آداب الأمم التى احتكت بها أو امتزجت بها .

غير أن ثمة نقطة لابد من إضاءتها هى أن نكون على بينة ووعى فى كل ما نأخذ وما نذر ، ومعلوم أن المسلمين قد أخذوا من فلسفة الأغريق دون أدبهم ، وذلك لأن الفلسفة عمل عقلى محض ، وأما الأدب فعصارة التصورات الشعورية المميزة لعقائد الشعوب وعاداتها وأساطيرها ، والأدب اليونانى مشحون بالمواريث الوثنية المنافية للتصور الإسلامى ، فكان لابد للفطرة المسلمة من رفضه واحتقاره ...

س٧ هناك مَقُولة متداولة فى العالم مفادها أن فرنسا أول من أضاء مشعل الحرية للإنسانية ـ ما وجه الحقيقة فى هذه المقولة ؟ !

ج٧ هذا الذى يسمونه (مشعل الحرية) لا يعدو ظاهرة الثورة الفرنسية التى كانت فى أبعادها من إيحاآت اليهودية التى لا يقر لها قرار حتى ترى النار تلتهم الشعوب .. وبقليل من التأمل فى أحداث هذه الثورة وما رافقها من الكوارث التى أغرقت فرنسا بسيول الدماء ، يتضح أنها كانت فى الحقيقة منطلق البلاء على العالم ، إذ لم تلبث أن سرت عدواها إلى كل مكان فأفرزت كبار الطواغيت الذين أحالوا المدن قبوراً والرياض الغناء قفراً يبابا ...

على أن أكبر مآثر فرنسا هى التخلص من طغيان التسلط الكنسى ، الذى أراد القضاء على الفكر والبحث فكان رد الفعل هو القضاء على تلك القيود الظالمة ، ومن ثم انطلاق العقل فى عالم البحث الحر الذى أعطى الكثير من الخير وغير قليل من الشر...

س٨ الشيخ المجذوب ـ كشاعر ـ كيف يفكر فى المرأة ؟ !

ج٨ يقول ربنا تبارك اسمه : ﴿ **المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...** ﴾ فهاهنا تقرير إلٰهى حاسم يتساوى الجنسين فى

مسئوليتها نحو المجتمع وبذل الجهد فى سبيل تصحيح مسيرته على الوجه الذى يحدده الله .

وطبيعى أن المرء ـ ذكراً أو أنثى ـ غير مؤهل لتحقيق هذه المسئولية إلا بعد التزود بالعلم الصحيح الذى يفرق بين الخير والشر والمعروف والمنكر ، وإذن فعلى المسئولين فى المجتمع الإسلامى ، أن يؤمّنوا مورد العلم المنير للرجل والمرأة .

ومعلوم أن من العلم ماهو أساسى لا مندوحة عنده لمعرفة الحقائق التى يكون بها المسلم مسلماً ، وذلك هو الذى يتساوى فى الحاجة إليه كل فرد من الجنسين ، ثم تتطور الحاجة حتى يكون العلم التخصصى الذى ينال منه كل منهما ما يتفق مع طبيعته ، ويؤمن فى الوقت نفسه حاجة المجتمع .. فإذا واصل كل من الجنسين طريقه المناسب تكاملت عوامل التقدم على الوجه الأكمل .. فلا تنافس ولا تزاحم ولكن تعاون تام على كل خير يتطلبه صالح الجماعة ...

ومن هنا كان لا مندوحة من صيانة المؤمنة عن التعرض للمزالق التى تتعرض لها المرأة الأخرى التى جُرّتْ إلى غير اختصاصها ، فجنت على نفسها ومجتمعها ..

فأنا إذن أنظر إلى المرأة من خلال هذا النظام الإسلامى ، الذى يحث على توفير كل الوسائل التى تجعل منها آمرةً بالمعروف ناهيةً عن المنكر داعيةً إلى الله ، أمًّا وزوجاً وأختاً وبنتاً .. أما أن نحيطها بالمغويات ونزيّن لها المغريات ، حتى تكون داعية للشيطان ، تستحل ما حرم الله ، وتستبيح ما حظرته شريعته المطهرة من أفانين الأعمال والأقوال ، فذلك ما يرفضه كل عاقل يتبع سبيل المؤمنين ، ويوقن بأنه مسئول أمام الله ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم ..

س ٩ معروف أنك تُعِدّ لكتاب عن شخصيات أدبية عرفتَهم من ضمنهم الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار .. فهل لنا من نبذة عن شخصية العطار .. الأديب من وجهة نظرك ؟

ج ٩ خير ما أعرف به العطار هو أن أهديك القصيدة التى ختمت بها ترجمته فى المجلد الثانى من كتابى (علماء ومفكرون عرفتهم) وقد وُجِّهَتْ أصلاً إلى اللجنة التى كانت قد أُلِّفَتْ لتكريمه ، وإليكها :

يـاعصبـةَ الأدب الأصيل ، وإخوةَ الضادِ الأثير .. تحيةَ الإكبار
أكرمتم القلمَ الذى قد طالما سحر النهى بروائع الأفكار

وبذلتمو حسن الثناء لمحسنٍ | ما انفك يبدع خالدَ الآثار
أبلى سنيه على الكفاحِ ولا يزال | يصارع الغمرات دون قرار
ذَوداً عن الذكرِ الحكيم ونصرةً | للحق تصفع أوجه الأغرار
أو غضبةً لله تدفع عادياً | ركب الهوى عن سنّة المختار
فجزاكم الرحمنُ عن تكريمه | ما تستحق صنائعُ الأبرار
لا غروَ أن يجدَ البيانُ بظلكم | أهلَ الوفاء وصفوةَ الأنصار
فأولو الحجى والذوق دون سواهمُ | أدرى الورى بنفائس العطار

س ١٠ أنت أحد أدباء المدينة المنورة .. والمدينة واجهة دينية ـ وحضارية إسلامية هامة ـ فهل أدى أدباء المدينة رسالتهم بالنحو الذى ينبغى ؟ !

ج ١٠ لا جرم أن فى المدينة أدباً وفيها ثروة من الشعر الأصيل ممثلة فى نخبة من هواة الأدب ، وهم بما يكتبون وما يصوغون من الشعر يثبتون فضل هذا البلد الحبيب باستمرار عطائه الذى لم ينقطع قط ..

ومع ذلك كله لا أزال أرى أن حق المدينة الحبيبة على أهلها أكبر مما نرى ، وما أتوقع من قدرةَ أدبائها على الوفاء بحقها عليهم مهما بذلوا من الجهود والعطاء ، ولا غرو فهى مهبط الوحى ومثوى خير خلق الله ..

فهل للمحدود أن يطمح إلى اللحاق بغير المحدود ! ...

س ١١ قضية حرب الخليج .. أيضاً من القضايا التى أضحت تهم المسلمين لماذا لم تحاول أن يكون لها موقع فى خارطة اهتماماتك السياسية والإسلامية ؟

ج ١١ وماذا يستطيع المسلم أن يقول فى هذه الحرب الظالمة ، وهو يرى إلى جحيمها يلتهم مئات الألوف من شباب الإسلام ، ومئات المليارات من أموال المسلمين ، تنتزعها مخالب تجار السلاح من الصليبيين واليهود وهم يقهقهون فرحاً وشماتاً بانشغال المسلمين فى أنفسهم عن أعدائهم ، الذين يزدادون قوة وضخامة على حساب ضعفهم وخسائرهم المستمرة ! ..

أجل .. لقد كتبتُ الكثير فى هذه الملحمة ولكن المصيبة أكبر من طاقة القلم .. ومن المحن ما يعجز الألسن البليغة فلا تطيق سوى الصمت المحرق ...

على أن من فواجع المحنة أن تخفق كل الجهود فى محاولات التقريب بين المتحاربين فلا يزدادون إلا تباعداً وإصراراً على الموت والخراب ...

وإذا كان لمثلى من رأى فى هذه الحالقة فهو العودة إلى حكم الله فى سورة الحجرات حيث يقول سبحانه ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينَهما ، فإن بغتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ...** ﴾

ولكن من الذى يستطيع جمع المسلمين على أمر الله ، وكل ما يعانونه من النكبات إنما هو بعض عواقب معصيته وانصرافهم عن أمره ! !

س ١٢ كثرت فى أيامنا هذه التيارات الفكرية فى العالم العربى والإسلامى. ومع اختلاف هذه التيارات بتوجهاتها المتعددة . كيف نميز بين أبعادها الحقيقية ـ علماً بأنها جميعاً تكاد .. تنادى بوحدة صف الأمة العربية والإسلامية ومناصرة قضاياها ؟

ج ١٢ فى صحيح مسلم أن أعرابياً قال : يا رسول الله .. الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ . فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله : « من قاتل **لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله** »

إن فى هذا الحديث الصحيح لأحكم جواب عن سؤالك فى موضوع هذه التيارات التى تخضُّ العالم الإسلامى من أدناه إلى أقصاه ، فالدعاة على أبواب جهنم اليوم كثير ، ولكل منهم لافتاته ومروّجاته ، ولن يملك الإنسان قدرة على التمييز الحاسم بينها إلا فى ضوء الوحى الذى لا يأتيه الباطل ، وها هو ذا رسول الله يصدر حكمه الباتَّ فى شأنها فيريك أن ليس فى أى مذهب أو تيار خير إلا ما قصد به إلى إعلاء كلمة الله .. فاسأل أصحاب هذه الدعوات أيكم يريد وجه الله ، ويجاهد لإعلاء كلمة الله ! !

أما مزاعم القوم بأن هدف دعواتهم توحيد صف الأمة فلا تشغل نفسك بسماعها ، وحسبك أن تنعم النظر فى ما يقومون به من تدمير لبقايا هذه الوحدة ، لتعلم يقينا أن لا وحدة ولا نصرة ولا عزة إلا تحت راية الإسلام ..

س ١٣ الإعلام العربى والإسلامى هل أدى دوره المناط به على المستوى الإسلامى ؟

ج ١٣ لم يعد دور الإعلام فى مسيرة البشرية بالأمر المجهول ، ولكن الإعلام ، على تعدد مظاهره واختلاف ألوانه لا يزال فى حاجة إلى مزيد من التفصيل فى بواعثه وأغراضه .

ونظرة واعية إلى واقع الإعلام فى الأمم الرائدة اليوم تكشف للمفكر ما وراءه من الخفايا التى توجه ظواهره ..

وحسب القارئ أن يتذكر من ذلك أثر اليهودية العالمية فى وسائل الإعلام ، وبخاصة فى ميدان الصحافة التى لها مطلق السلطان على تكوين الاتجاهات العامة . فالجمهور الأعظم من قراء تلك الأمم إنما يستقى أفكاره من محتويات الصحف وبخاصة مقالاتها الافتتاحية .. وعندما نتذكر كذلك خضوع أولئك الكتاب لموحيات المنفعة وتوجيهات المؤشرات غير المنظورة، ندرك بيقين أن تلك الجماهير ليست سوى الضحية الأولى للتضليل الموجه .. هذا مع اعترافنا بأن فى تلك المجتمعات أقلاماً نظيفة لا تنفك تناضل فى سبيل الحقيقة ، غير أنها من القلة بحيث لا تكاد تسمع أو تُرى ..

ذلك هو واقع الإعلام الغربى وما تأثر به من إعلام الأمم المقلدة له .. فما موقف إعلامنا فى هذا التيار الذى يغطى السهل والجبل من هذه الكرة ؟؟

الحق إنه لا يزال فى دور التدريب ، يتأثر بكل ظاهرة جديدة ، ويحاول اللحاق بالركب العالمى فى الكثير من مظاهره ، فهو إذن نسخة مكررة وغير تامة لذلك الإعلام العملاق السباق ..

بقى أن نتساءل : إلى أى مدى يمثل إعلامنا هذا مقوماتنا الأصيلة التى تميزنا عن سائر الأمم ! ..

أول هذه المقومات مراقبة الله فى كل ما نكتب أو نعرض أو نؤلف .. ونظرة واعية أيضاً إلى الوقائع الغريبة التى تطل علينا فى المقروء أو المنظور أو المسموع تكفى للتأكد بأننا مقصرون جداً فى هذا الميدان . ففى المكان الواحد تقرأ كلاماً فى الدعوة إلى فضائل الإسلام ، ثم تفاجأ بما يناقضه من ترويق لكل ما يتنافى مع هذه الفضائل .. ولولا النزر

اليسير من النتاج الإسلامى الواقف عند حدود الله لأصابك اليأس من كل أمل بالتصحيح والإصلاح ..

وأخيراً .. إننا فى مسيس الحاجة إلى تصحيح الكثير من أوضاعنا الثقافية والاجتماعية من أجل الحفاظ على ذاتيتنا المميزة . وفى مقدمة ذلك أن يكون لدينا الإعلام الإسلامى المستقل ، الذى يحاسب نفسه قبل أن يحاسب . ويزن أعماله قبل أن توزن عليه ..

وليس تحقيق ذلك بعزيز على أولى العزم من أهل الإيمان والإحسان .

والله الموفق والمستعان .

* * *

أنا والشعر

استطلاع باسم جريدة المدينة

س ١ كيف تمر بكم لحظات الإلهام الشعرى وما إحساسكم بها لحظة الصياغة الشعرية ؟

ج ١ لا شك أن ثمة فرقاً بين العملية الشعرية وكتابة النثر ، فبينا نرى الكاتب يستطيع استحداث الفكرة التى يريد ساعة يريد ، ليكب على إخراجها بالصورة التى يريد ، نجد الشاعر مقيداً بلحظة الانفعال التى تهزه فتدفعه إلى المحاولة .
ولا بد للانفعال أن يكون مسبوقاً بحدث ذى إيحاء ذاتى ، فرب ظاهرة يمر بها الناس دون أن تثير بهم أى اهتمام تكون باعثاً للشاعر إلى العطاء المبدع ، على حين أن عشرات الظواهر قد يعبر بها فلا تحرك منه ساكناً .. ولك أن تُسمِّى ذلك بلحظات الإلهام والانفتاح الشعورى أو الجلوات الروحية .. وأكتفى أنا بتسميته الانفعال المحرّك .

وغير ضرورى أن يكون الحدث الباعث للمحاولة خارجياً دائماً بل كثيراً ، ولعله أكثر ما يكون داخلياً ينطلق من ملف الذكريات فلا يزال يتنامى ويتحرك حتى يأخذ على الشاعر مذاهبه فلا يجد مناصاً من تصويره بالكلمات المنغومة الحية .
وهكذا تمر الخاطرة الفاعلة بقلب الشاعر فتهزه فتدفعه إلى التعبير الجميل ؛ كما يفعل الغيث بالأرض الهامدة ، ما إن يخالطُها حتى تهتز بقدرة الله فتربو فتنبت من كل زوج بهيج .

وطبيعى أنى أريد بذلك الشعر الحى الأصيل وحده .. أما ما عداه من ألوان النظم فلا يعدو شأن البناء اللفظى ، الذى لا يكلف أكثر من الإلمام بصياغة الكلام .. ولكنه يظل كالتمثال تنقصه الروح .. والزهرة الصناعية لا يتجاوز أثرها العين ..

س ٢ ما الإطار الفكرى لاتجاهكم الشعرى وبعبارة أخرى : ما الأهداف الفكرية التى

تسعون إليها من وراء إبداعكم الشعرى ؟

ج ٢ في هذا السؤال تركيز على الفكرة فهو بذلك ألصق بالكتابة منه بالشعر ، الذى له أبدا مجاله الشعورى الخاص ، ولكن صلة له بالفكر من زاوية الشعور . ولا أعنى بذلك أن الشاعر كالعصفور الهائم في الموسيقى (لا فرنتين) لا هدف له سوى الإنشاء أثناء الصيف .. كلا بل هو إنسان له مقوماته الذاتية التي يصدر عنها ، ومن منظور نتاجه الأصيل تحدد خصائصه تافهة أو عالية . وأنا امرؤ مؤمن ألمح جلال ربي من خلال كل منظور ومفهوم ، فإذا فكرت أو شعرت أو تصورت فمن منطلق الرؤية الإسلامية .. ومن هنا كان لشعرى ونه الخاص المتميز ..

س ٣ الطابع الوجدانى ملموس في ما تبدعون من شعر (على تعدد أغراضه) ـ فما تعليقكم على ذلك ؟

ج ٣ قد أجبت على هذا السؤال في ما أسلفت ، وأزيد عليه أن الشعر بالنسبة إلىَّ ليس ألهية للتسلى ولا صنعة للتحدى ، بل هو أصداء لتفاعلات نفسية كل عملى فيها هو إخراجها من الباطن إلى الظاهر في الصورة التي ترضيني .. وبتعبير آخر أقول : قد تمر الخاطرة بنفسى فستهوينى فأهتز لها فأترجمها بالصورة المناسبة ، فتكون المقطوعة أو القصيدة ، وأحيانا يسبق الانفعال الخاطرة ، فلا أتمالك أن أستجيب لها . وأنا لا أزعم أن العملية الشعرية إلهامٌ محض ينبثق من أعماق المجهول .. بل هو مخاض يمتزج فيه التصور بالانفعال بالصناعة فإذا هو كائن سويٌّ ، يجسد الرؤية العابرة التي رسمت خطوطه وملامحه ثم امحت ، تاركة صورتها ماثلة تتراءى من وراء الكلمات .

س ٤ المسرحية الشعرية ، أو الحوارية الشعرية كما تسمونها ، من الأبواب التي لا يلجها أكثر الشعراء المعاصرين ، فما تفسيركم لهذه المعضلة ؟

ج ٤ لم تعد قليلة تلك المحاولات التي عالجت الحوارية الشعرية ، وكثير منها بلغ مستوى جيداً من الصياغة الفنية ، إلا أنها ـ في تقديرى ـ سيظل مكانها في الشعر العربى دون غيرها من ضروب الشعر الوجدانى ، لأنها في أصولها محاولة لتصوير ذوات الآخرين ، فهى ألصق بأسلوب الملاحم منها بغيره ، ومهما تألق فيها الجانب التعبيرى فلن يعوض ما يلابسها من الفقر الوجدانى .. هذا على تفاوت في مقدار

هذا الفقر بين شاعر وآخر ، من حيث القدرة على تقمص الذوات المراد تصويرها ..

أما إسهامى فى هذا المجال فقليل ، ومرد قلته إلى رأيى فى شعر الحوارية وفى ديوانى الثانى (همسات قلب) بعض من هذه الحواريات يظهر أنها أرضت بعض النقاد .

س ٥ من الشاعر الذى ترونه النموذج الأمثل فى صناعة الشعر وما الأسباب ؟

ج ٥ لا أعرف شاعراً استوفى مثاليات الشعر جميعاً ، وإنما هى مواهب شاء الله أن تكون موزعة على رواد هذا الفن ، كتوزيعه المواد الخام فى أرضه . فكما أن لكل بقعة مقوماتها ومدَّخراتها .. كذلك لكل شاعر مميزاته وطاقاته .. وقديماً صنف النقاد الشعراء على أساس من اتجاهاتهم ، فهذا أشعرهم إذا رهب ، وذاك إذا ركب وذاك إذا رغب .. إلى آخر ما هناك من تقديراتهم القائمة على ملاحظة مواضع الإجادة أو بواعثها ..

ثم إن سؤالك عام لا ينصب على عصر بعينه ، وعلى هذا أجيبك بأن ثمة طائفة من عباقرة الشعر العربى يمكن اعتبارهم بمجموعهم ممثلين للنموذج الأمثل الذى تريد .

وفى ظنى أن الثلاثة الذين اختارهم نقاد الأدب لكل من عصور الجاهلية والأموية والعباسية لا يزالون هم المفضلين ، على تباين الخصائص وتباعد الأزمنة . وأضيف إليهم من العصر الحديث شوقيا وأحمد محرم وحافظ إبراهيم .. من الأموات ، وفى الأحياء كبار لا أتحدث عنهم لأنهم لم يكملوا عطاءهم بعد .

س ٦ أحب أن أعرف رأيكم فى الشعراء المعاصرين الأعلام الذين تنعقد لهم إمارة الشعر فى بلادهم ـ فمن هم ؟ (خمسة على الأقل ـ ولا مانع من المزيد) .

ج ٦ لا أدرى ما مرادكم بإمارة الشعر .. فقد أوضحت لكم فى الجواب الخامس ما أراه من الاستحالة الحائلة دون اجتماع مقوّماته فى واحد بالغاً ما بلغ من التفوق . بقى أن يكون المراد هو الشاعر الذى أحرز القبول فى معايير المعاصرين من أولى المعرفة ، وهؤلاء كثر ولله الحمد ولكل منهم خصائصه المميزة ..

وأُفضّل أن أمسك عن ذكر الأسماء لما فى ذلك من الإحراج .

آراء في الأدب والأدباء
مع صحفي ليبي

ج ١ بدأت حياتي الأدبية بالشعر ، فقد صغت أولى بواكيره قبل خمسين سنة . إلا أن هوى الأدب قد غُرس في نفسي قبل ذلك ، إذ نشأت على حب المطالعة منذ طفولتي ، حتى لأسهر على الكتاب إلى وقت متأخر ، في مهب العواصف ، وفي ضوء السراج أحياناً . وكان لوالدي (رح) أثر في ذلك ، إذ كثيراً ما كان يترنم بالشعر ، وكان له فيه محاولات تنم عن تذوق .

ج ٢ فكرة الإلتزام استغرقت الكثير من الأخذ والرد ، وما أراها على هذا القدر من الغموض . فأنا لا أستطيع أن أتصور أديباً على الحقيقة غير ملتزم ، لأني أفهم الالتزام صدق التعبير عن واقع النفس والفكر ، ومن هنا يكون الالتزام إنعكاساً للذات . وليست الذوات سواء ، بل فيها المصلح والمفسد ، والواضح والمهزوز ، وتبعاً لذلك تتفاوت ألوان الالتزام ، فيكون أديب صالحاً وآخر فاسداً . وكل منهما ملتزم في نطاق صدقه في التعبير عن ذاته .

ج ٣ نحن أمة منكوبة ومهددة في كل شئ .. وقد نسينا رسالتنا نحو أنفسنا ونحو البشرية . والأديب الحق هو الوتر الأكثر حساسية في كيان هذه الأمة ، فهو أحق أفرادها بالتفاعل مع واقعها وتطلعاتها . فإذا بلغ هذا المستوى من الوعي فلن يجد في وقته متسعاً لغير كلمة الجد . تلك هي مهمة الأديب العربي ــ المؤمن ــ في هذه المرحلة من مسيرة أمته .

ج ٤ مجموعاتي القصصية تزيد على خمس عشرة ، وقد صدرت أولاها قبل أربعين سنة ــ فيما أذكر ــ بعنوان (قصص من الصميم) وآخر ما ظهر منها حتى الساعة (اللقاء السعيد) وهي إحدى حلقات السلسلة التي تنشر في إطار (قصص لا تُنسى) وما أعرف واحدة من قصصي ــ حوارية أو وصفية ــ تنطلق هائمة في متاهات الضياع . إن لي وراء كل قصة غرضاً أو أغراضاً ، هو التوجيه إلى الأعلى

فى خدمة الخير والحق . وقلما تقرأ لى أقصوصة ندّت عن هذا الضابط . حتى فى القِصص التى يكبر فيها عنصر الخيال والتسلية ، فإنما هى رموز لأحداث وأشياء يتعذر التصريح بها .

ج٥ الذين أعجب بهم من أدباء العالم الإسلامى كثيرون ولله الحمد ، ومرد إعجابى بهم ما يحمله أدبهم من نفحات الخير ، ومن طوابع الوعى الإسلامى . ولهذا يتفاوت مكانهم من قلبى ، فكلما كان صواب أحدهم أكثر ، وانفعاله بحقائق الإسلام أكبر ، واهتمامه بلغة القرآن أوفر ، كان عندى أعلى وأغلى . وطبيعى أن إعجابى بنتاج الأديب ينصب على هذا الجانب المضئ ، فإذا أسفّ كرهت إسفافه . فمن هؤلاء الذين أستطيب صحبتهم من الراحلين إقبال ـ فى شعره دون فلسفته ـ وشوقى ومحمد عبدالمطلب ومحرم فى إسلامياتهم الروائع ، والأمير شكيب ومصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى السباعى ومالك بن نبى ـ فى معظم ماكتب ـ والشهيد سيد قطب رحمهم الله . ومن الأحياء أبوالحسن الندوى ، ومحمد قطب ، ومحمد الغزالى ، ومحمد محمد حسين وأنور الجندى .. ومن سلك سبيلهم من ذوى الأقلام الحية الذين يستشعرون مسئولية الكلمة .

ج٦ غير واحد من كتاب القصة العربية قد أتيح له النفاذ إلى النطاق العالمى ، إذ ترجمت قِصَصه إلى أكثر من لغة .. غير أنى لا أتوقع مثل هذا الحظ لكل قصاص عربى بالغاً ما بلغ من التوفيق . فميدان الأدب العالمى خاضع لسلطات غير منظورة لا ترضى برواج أى فن إلا ضمن مواصفات معينة ، وليس الفكر الإسلامى منها . على أن القصة العربية ذات المنطلقات الإسلامية ستجد طريقها إلى كل لغة حية عندما يصبح المسلمون فى المستوى الذى يفرض وجوده فى العالم . والظاهر أن طلائع ذلك اليوم قد شرعت ترسل مبشراتها بفضل الله .

ج٧ التطور من علائم الحياة فى كل شىء ، والفن القصصى كغيره من الظواهر الخاضعة للتطور . هذا إلى أن من التحكم الغبى أن يفرض على الكاتب التزام منهج محدود فى حبكة القصة ، إنما المهم فى الكاتب والشاعر وغيرهما من أهل الأدب ، أن يتوافر لهم الزاد الكافى من الثقافة ، ودقة الملاحظة ، ونفاذ البصيرة ، وملكة البيان ، إلى جانب الثقة بمواهبهم ، فإذا تحقق لهم ذلك انطلقوا

للتعبير عن ضمائرهم في مساحة من الحرية ، ومن هنا يتجه كل منهم سبيله إلى التجديد والإبداع .

ج ٨ هذه المشكلات أكثر من أن تحصى ، وليست خاصة بالأديب ، بل إن مشكلة الأديب العربي جزء من المشكلة الكبرى التي يعانيها العالم الإسلامي جميعاً . ولها دائماً أوجه ومسارب وأشكال تستعصي على الحصر ، وأخطرها مدى فقدان الرؤية السليمة في بصائر معظم الساسة الذين يقبضون على أزمة التحرك الاجتماعي والثقافي لشعوبهم ، وقد أصبح جل اهتمامهم من العرب أن يفرضوا طغيان الفوضوية حتى على الفكر والعلم والدين . فلا حرية إلا للمنافقين والساعين في مراكبهم ، ثم لا عودة للوعي إلا بعد خراب البصرة .

ج ٩ بين يديّ عدة من الكتب أحاول إنجازها . منها القصصي والتاريخي والاجتماعي — إلى جانب مذكرات أضمنها تجارب عشرات السنين في مختلف الأمكنة ، وفي ظل الكثير من الأحداث التي لا ينبغي أن تنسى . وكل ما أتمناه هو أن أوفق إلى الفراغ من هذه المؤلفات قبل وقوع الأجل . وأن تكون مما ينفعني يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ج ١٠ إذا صح أن الأدب مرآة الأمة . فمستقبل الأدب العربي رهن بمستقبل أمته ، وهو مستقبل شديد الغموض . لأن الطريق إليه كثير التعاريج . وفي يقيني أنه سيظل كذلك حتى نهتدي إلى حقيقتنا ، وهي أننا أمة ذات رسالة من غير هذه الأرض ، ولكن فيها الشفاء من كل شقاء يعانيه سكان الأرض .

ج ١١ الأدب الحق هو الأدب الذي يسير إلى أهدافه الواضحة من منطلقات الإسلام .

فى الأدب الإسلامى أيضاً

١ ـ كُتُبَ للتلفاز

الدعوة إلى الأدب الإسلامى من الظواهر الحديثة ، لم يكد المعنيون بشؤ ن الأدب العربى يعرفون لها ذكراً قبل منتصف القرن العشرين ، وقد بدأ الحديث عنها مع بروز ما يسمى اليوم بالصحوة الإسلامية ، ذلك لأنها فى الحقيقة جزء منها لا ينفصل عنها . ومعلوم أن هذه الصحوة إنما كانت ردّ فعل بوجه التيارات الغريبة المنصبّة على الوسط الإسلامى فى مختلف مناحى الحياة ، وهكذا كان الأدب الإسلامى المنبثق من هذه الصحوة أداةَ التعبير الطبيعية عن مضمونْ هذه الدعوة بوجه عام .

ولنلق الآن نظرة سريعة على مسيرة الأدب العربى إلى ما قبل النصف الثانى من هذا القرن ، لنتمكن من رصد الفروق بين ماضيه الطويل ، وحاضره الراهن . وسنرى أن هذا الأدب شعراً ونثراً ، وعلى اختلاف مضامينه ، كان جارياً على السَّنن الأصيل من حيث أساليبُه وإنسجامُها مع أصالة البيان العربى .

فى عصور الحضارة الإسلامية ، فتحت العربية صدرها لاستقبال الثقافات الأجنبية على تعدد مجاريها ، إلا أنها لم تسمح قط للأدب الوثنى أن يقتحم معاقلها ، خشية تلوّث الفكر الإسلامى ، واعتزازاً بأدبها الدافق من منابع الوحى والقيم العربية الأصيلة . وقد استمر هذا الاتجاه المتميز فى طريقه خلال الأحقاب حتى أوائل الخمسينات . ولكن هذا الاعتزاز شرع فى الاهتزاز منذ أخذ الجيل الحديث يتطلع مبهوراً إلى التفوق الغربى فى نطاق العلوم المادية ، وبذاك انفسح المجال لتسلل التيارات الغازية إلى حمى الأدب الإسلامى على اختلاف لغاته ، وإذا نحن تلقاء جيل يكاد يعلم كل شىء عن أدب الغرب ، ويجهل كل شىء عن الإسلام ولغة القرآن .

وكما يحدث عندما يقتحم الوباء حصون الجسم الحىّ فتتداعى طاقاته للدفاع عن كيانه ، هكذا تدافع حملة الفكر الأصيل للوقوف بوجه هذا الغازى الذى يريد تغيير البنية الأصيلة للقيم الإسلامية والبيان العربى العريق .

ولقد بدأت هذه اليقظة مقالات متفرقة بأقلام العلية من حماة التراث ، يُفَنِّدون بها أباطيل المستشرقين والمبشرين وأذنابهم من دعاة التغريب . ثم ما لبثت هذه اليقظة أن استحالت تياراً ما زال يتنامى حتى تميزت ملامحه ، وأخذ يستقطب كل ذى غيرة على هُوية أمته من العرب والمسلمين بعامة . وليست الندوات الثلاث التى جمعت أساطين الأدب الإسلامى فى لكهنؤ ـ بالهند ـ عام ١٣٨١ هـ ، ثم فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٨٢ هـ ، وأخيراً فى الرياض ١٣٨٥ هـ إلا مظهراً بعيد الأثر من ذلك التيار الذى أثبت وجوده فى نطاق الفكر الرشيد والبيان الأصيل .

وإذا كانت مساحة الدقائق الثمان لا تتسع للكثير مما ينبغى تناوله عن موضوع الأدب الإسلامى فلا أقل من الإشارة إلى بعض مقوماته الأساسية التى تميزه عن سائر ملامح الآداب البشرية الأخرى .

إن أولى هذه المقومات هى ارتباطه الوثيق بعقيدة التوحيد التى تفرض نفسها على كل تصرفات المؤمن فتعين هدفه ، وتحدد صلته بما حوله من الكون والحياة ، فهو يعلم لماذا وجد ، وما مهمته فى الأرض وما يَحسن وما يَسوء ، فيحاسب نفسه قبل أن يحاسَب ، ويزن عمله قبل أن يوزن عليه .. وبديهى أن إنساناً له هذه الخصائص لا يتسع وقته للتوافه التى تستهوى سواه من عبيد الشهوات ، فهو معنىً أبداً بإشاعة الحق والجمال ، حتى فى ميدان اللهو يختار الأليق بعقيدته من المرفهات النظيفة التى تسمو بالحياة وتضاعف مساحة الخير .. وطبيعى أن الأدب الذى ينبثق من وجدان هذا الإنسان الممتاز لن يكون إلا صورة من مشاعره النقية الوضيئة ، المانجة بشذى القرآن وعبير النبوة .

وذلك لعمرى هو الأدب الإسلامى الذى نؤمن به وندعو إليه ... وشتان بين أدب تنطلق جذوره من أعالى السماء ، فينشر الحب والخير والضياء .. وأدب ينبثق من التراب ، ويستمد غذاءه من أعماق الأوهام والسراب ، فلا يزيد الحياة إلا ضياعاً إلى ضياع ، وشقاء إلى شقاء ! ..

* * *

الحداثة ومدلولها الفنى واللغوى

٢ - كُتِبَ للتلفاز

موضوع الحداثة يكاد يكون موضوع الساعة فى الصحف والمجلات والمؤلفات المعنية بقضية الأدب ..

ومجرد هذا الاهتمام بأمر الحداثة دليل قاطع على اختلاف الأفكار حول مدلولها ، إذ أصبح هذا المدلول على غاية من الاضطراب بين الخائضين فى الكلام عنه .

ويمكن تقسيم هؤلاء فريقين مميزين ..

أما أحدهما فينظر إليها من خلال الأصالة ، إذ يرى أنها ذلك التطور الذى يرافق الأدب والفكر خلال مسيرتهما وفق السنن الطبيعية التى لا تقبل الجمود على وضع نهائى ، ولكنها لا ترضى الانفكاك عن القيم التى تحفظ لها هويتها الأصيلة على اعتبار أنها المحور الذى حوله تدور كل التفاعلات والتطورات العقلية والأدبية والاجتماعية ..

ثم يأتى الفريق الآخر وهو المخالف عن هذا المفهوم ، إذ يعتبر الحداثة بمنظوره الخاص انصرافاً كلياً عن طريق الأصالة ، فهم يتعاملون معها بكل استخفاف ، ويحاولون جاهدين تغيير بنية الكلمة العربية بتحويلها إلى القالب الغربى غير عابئين باختلاف الخصائص الفنية بين أمة وأمة ! .

وبدافع من الحماسة لمفهومهم هذا يمارسون تقديمه فى ضجة ثورية صاخبة ، يريدون بها إخفات صوت الفريق المقابل حتى لا يَدَعوا له مجالاً لعرض مفهومه المغاير .

وهكذا تتباين الرؤيتان إلى قضية العربية وآدابها ، وتتسع دائرة الصراع حولها بين الفريقين فلا يكادان يلتقيان ..

ولكى تتضح لنا حقيقة كل من النظرتين لا بد من عرض وجيز مركّز لموضوع الأصالة ومسيرتها خلال التاريخ ، وعندما نفعل ذلك بوعى حصيف ندرك أنها كانت ولا تزال منطلق التصور الصاعد ، الذى يستفيد من كل المعطيات الإنسانية الصادرة

عن منابع الخير والجمال ، فتشكل المنهج الأقوم الذى يجمع بين القِيمَ الثابتة والتطور المأمون المعقول .. على حين يظل الفريق المواجه دائباً فى ثوريته الصاخبة ضد كل الثوابت الأصيلة فى ميدان الفكر والقِيمَ والبيان ، حتى الدين نفسه لا يرضيه منه إلا أن يأخذ سبيله من التغيير الذى سلكه من قبل قادة التيارات المنحرفة ، التى يتعذر عليها أن تفهم الدين على غير الوجه الذى تتصور من كونه مجرد إفرازات بشرية ، يراد بها ترويض الجماهير على ما يدبرونه لها ..

وتقفز الساعة إلى مخيلتى ذكرى أحد المؤتمرات التى ناقشت أوضاع العربية ومسئوليات الجامعات نحو المجتمعات ، فكانت فرصة لبعض المشاركين من دعاة التغريب ، إذ حاول أحدهم أن يحطَّ من شأن العربية فراح يرميها بكل نقيصة ، فهذا يقرر أنها لا تصلح لدراسة العلوم ، وذاك يستهزئ من عنايتها بالجمال الأسلوبى ، الذى بنظره يحول بينها وبين تحديد المضمون الذى يتوافر فى لغات الغرب وبخاصة الإنجليزية ! ..

وغير بعيد عنا حديث أحدهم عن مفهومه للأسلوب الفنى المفضل على أنه ذاك الذى يقوم على الرمز والغموض والتعبير غير المباشر..

وطبيعى أن مردود ذلك كله إنما هو التشكيك فى صلاحية العربية للإسهام فى بنيان الحضارة ، ثم الترويج للطرائق الغربية التى تجعل من الشعر لغزاً مغلقاً على الجماهير ، لا يفقه له حلاً إلا أولئك الذين أشربت نفوسهم عشق الأدب الغربى الذى شغفوا به حتى اعتبروه ذروة القمم الفنية ، وحتى ليبلغ بأحدهم ذلك العشق إلى أن لا يرى فى عدد من قصائد الأصالة سوى بيت واحد بهره ما احتواه من التوافق مع شعر الغموض والرمزية والتعبير غير المباشر ! ..

وقد نسى هؤلاء الإخوة ، هدانا الله وإياهم ، أن هذه العربية التى يتنكرون لها هى التى حملت رسالة الله إلى العالمين ، وهى التى سحرت أولى المواهب من صيارفة الأدب والفن ، وهى التى بعثت فى لغات الغرب تلك الحيوية التى أَهَّلتها لممارسة الحضارة العلمية والأدبية ..

ونسى دعاة الرمزية والتعبير غير المباشر كذلك أن هذين الفنين من ثمرات هذه العربية ، التى حفلت بكل ألوان التعبير الجمالى خلال الأحقاب ، ولكنها أعطت لكل

مقام ما يلائمه من الأساليب المؤثرة ، منذ حددت مفهوم البلاغة العليا بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال فللأسلوب الخطابى مكانه الذى لا يصلح فيه سواه ، وللأسلوب الذاتى مقامه الذى لا يتفق مع سواه .

وإنها للحقيقة التى بدأت تأخذ سبيلها إلى السواد الأعظم من حملة الأقلام ، بعد أن استوفت اندفاعة الحداثة المستغربة طاقتها ، وتوشك أن تتوقف لتسترد أنفاسها الحرى بعد لهاثها الطويل . وكدأب الحقيقة فى كل مجال سيظل التطور المأمون المعقول هو المنتصر فى النهاية بمشيئة الله ..

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

* * *

الحصانة الفكرية للأجيال المسلمة

٣ - كتب للتلفاز

فى حياة الأمم مرتكزات أساسية ، على مدى التزامها يتوقف استمرارها فى مسيرة التطور السليم ؛ وكل تهاون بهذه المرتكزات مؤدّ إلى انمحاء هويتها وذوبانها فى المجموعات البشرية الأخرى .

والأمة المسلمة أعمق أمم الأرض أصالة فى هذه المرتكزات ؛ لأنها بشهادة الله : ﴿ خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .. ﴾ فهى الوحيدة بين أصناف البشر المؤهلةُ لهداية الناس إلى السبيل الأقوم ، الموصل إلى رحاب الأخوة الإنسانية والحياة الكريمة .

ولكن أهليتها للقيادة العليا مشروطة بالتزام الأصول التى تميزها عن سائر الشعوب ، وفق التوجيه الربانى الذى يقول للمؤمنين : ﴿ .. وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .. ﴾ .

فها هنا موقفان لا مندوحة عن التحقق بهما للحفاظ على هوية هذه الأمة ؛ أولهما : الاعتصام بحبل الله الذى هو الصراط المستقيم ، وهو المنهج الذى خطه رب العزة لسلوك المؤمنين على امتداد هذه الحياة ..

وثانى الموقفين : هو التميز التام عن مسالك الآخرين ، الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ، إذ أعرضوا عن وحى الله ، فراحوا يتخبطون فى ظلمات الجاهليات ، وشتانَ بين بصير جعل الله له نوراً يمشى به فى الناس ، ومَن مَثَلُه فى الظُلماتْ ليس بخارج منها ؛ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وعلى ضوء هذين الموقفين يتضح الطريق الذى يضمن للأجيال المسلمة نوع الحصانة التى تقيهم الانزلاق فى مهاوى الضلال ، وتعصمهم من الانسياق وراء كل ناعق ، إذ تغرس فى قلوبهم اليقين بأنهم الأمة الوسط المسؤولة عن هداية الزائغين والضائعين ، بما أولاها من الشهادة على الناس ، فلا مناص لها من القيام بإرشادهم

وتبصيرهم بالرسالة التي اختيرت لحملها في العالم . وكل انحراف عن صراط الله هذا ؛ مؤدٍ بها وبالإنسانية إلى الدمار والتبار..

وهذه حقيقة تؤكدها وقائع الحياة اليومية في كل مكان من عالم اليوم ، إذ تكشف لكل ذي بصيرة أن الحضارة المادية ، التي أنزلت الإنسان على القمر ، وتكاد تفتح له أبواب كل شيء ؛ قد عجزت عن أن تكشف له حقيقة نفسه ، وأن تمنحه لحظة وعي يستمتع فيها بنعمة الأمن على كيانه وأهله وماله . بل لقد زجّته في متاهات متجددة أبداً من الشقاء ، حتى أصبح علمه وسيلته إلى تدمير نفسه وجنسه ! .

وما أشبه واقعَ الإنسان في هذه الحضارة بتلك الجماعات التي يحدثنا عنها كتاب الله بقوله الحكيم : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ _ الأنعام : ٤٢ _ ٤٤ .

فنحن هنا أمام أمم ضلت طريق النور فأصابها سيئات ما كسبت من البأساء والضراء ، ولكنها بدلاً من أن تتفطّنَ لواقعها فتتوبَ إلى بارئها ضارعة مستغفرة ، أوغلت في ضلالها فكانت عاقبة أمرها أن مكّنها الله من كل ما سعت إليه من شهوات الدنيا ، حتى إذا صرفها الغرور عن كل شعور بالمسؤولية فاجأتها ضرباته القاصمة ، فإذا هي ضحية غرورها وعبرة لكل مَنْ ألقى السمع وهو شهيد ..

على أن مخاطر هذه الحضارة قد بدأ يوقظ أولي البصائر من أقطابها الكبار ، وها هم أولاء يكدحون في طلب الحقيقة التي لا نجاة للإنسانية إلا عن طريقها ، وقد كافأ الله بعض هؤلاء على إخلاصهم في سعيهم الجاد ، فهداهم إلى الإسلام ، وإذا هم يكدحون من جديد لتوجيه أفكار الضائعين إلى هذا الخير العظيم الذي صاروا إليه .. وهذه بحوثهم ومؤلفاتهم تنتشر اليوم في كل مكان ، وبمختلف اللغات ، داعية إلى دين الله الحق ، مُهيبة بالأفراد والأمم : أيها الناس ، من هنا الطريق ..

ولكن أعجب العجب ، هو أن نرى إلى جانب أولئك المهَديين أفواجاً من أبناء المسلمين قد أصمّوا آذانهم ، وعطلوا أبصارهم ، فأعرضوا عن مواريثهم من كنوز

السماء . وراحوا يتسقطون الفتات من موائد المضللين من ضحايا الحضارة المادية ، فيدمرون أنفسهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ..

فمثل هؤلاء التائهين هم الذين فقدوا الحصانة العاصمة وهم أحوج الخلق إلى الأخذ بأيديهم إلى ساحة النور ، لكي ينضموا إلى موكب الخير الذى يموج هذه الأيام بالصفوة الراشدة من أجيال الصحوة الإسلامية ، التى عرفت طريقها إلى الحق وإلى الصراط المستقيم . والحمد لله رب العالمين .

* * *

فهرس الكتاب

البحث	الصفحة

من آثار المؤلف المطبوعة

فضائح المبشرين
المرشد فى الأدب العربى (مع آخرين)
نار ونور . شعر الديوان الأول
قصص من الصميم
صور من حياتنا
الأدب العربى للسنة الأولى من الجامعة الإسلامية (بالاشتراك)
الأدب العربى للسنة الثانية من الجامعة الإسلامية
دروس من الوحى
مشكلات الجيل فى ضوء الإسلام
تأملات فى المرأة والمجتمع
مشاهد من حياة الصِّديق
همسات قلب ـ شعر الديوان الثانى ـ
قصص من سورية
قصص لا تنسى ـ للشباب والطلاب ـ
بطل إلى النار
الآيات الثلاث
بطل من الصعيد
دماء وأشلاء
من تاريخنا
الألغام المتفجرة
اللقاء السعيد
تحفة اللبيب من ثقافة الأديب
مع المجاهدين والمهاجرين فى باكستان

مشاهداتى فى ربوع الهند
ذكريات لا تنسى / من الفلبين وأندونيسية وتركية وقبرص /
أضواء على حقائق
نظرات تحليلية فى القصة القرآنية
كلمات من القلب
كلمات مضيئة
أفكار إسلامية
علماء ومفكرون عرفتهم ج ١ و ٢
فى ظلال الإيمان
من وحى الأحداث
علماء ومفكرون عرفتهم ج ٣
ردود ومناقشات
أدب ونقد
خواطر ومشاعر

يصدر قريباً إن شاء الله

آلام وأحلام / شعر الديوان الثالث /
من القصص التمثيلى
فصول من الحياة / مذكرات /

* * *

مطبوعات نادي المدينة المنورة

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ ـ	ذكريات طفل وديع	عبد العزيز الربيع
٢ ـ	الشعر الحديث في الحجاز	عبد الرحيم ابو بكر
٣ ـ	شعراء من أرض عبقر ج ١	د. محمد العيد الخطراوي
٤ ـ	شعراء من أرض عبقر ج ٢	د. محمد العيد الخطراوي
٥ ـ	في ظلال السماء	محمد هاشم رشيد
٦ ـ	على دروب الشمس	محمد هاشم رشيد
٧ ـ	على ضفاف العقيق	محمد هاشم رشيد
٨ ـ	همسات في أذن الليل	د. محمد العيد الخطراوي
٩ ـ	غناء الجرح	د. محمد العيد الخطراوي
١٠ ـ	ترانيم العودة	ناجي محمد حسن وفوزان الحجيلي
١١ ـ	الفيصليات	عبد الحميد ربيع
١٢ ـ	رعاية الشباب في الإسلام	عبد العزيز الربيع
١٣ ـ	جرح الأباء	أحمد فرح عقيلان
١٤ ـ	أضواء على حقائق	محمد المجذوب
١٥ ـ	بيت وشاعر	خالد اليوسف
١٦ ـ	الحفل المسرحي	اعلامي عن النادي
١٧ ـ	جداول وينابيع	عبد الرحمن رفه
١٨ ـ	الجناحان الخالدان	محمد هاشم رشيد
١٩ ـ	على طلال ارم	محمد هشام رشيد
٢٠ ـ	ثلاثة أعوام مع مسابقة حفظ القرآن الكريم المدينة المنورة	دخيل الله الحيدري ومحمد وهبه الجبالي
٢١ ـ	رسالة إلى ليلى	أحمد فرح عقيلان
٢٢ ـ	في رحاب الجهاد المقدس	إبراهيم العياشي
٢٣ ـ	بعث الشيخ محمد بن عبد الوهاب	مسلم الجهني
٢٤ ـ	في موكب الضياء	أبوزيد إبراهيم سيد
٢٥ ـ	الفنون التعبيرية	عبد العزيز الربيع
٢٦ ـ	أباريق النور	محمد عادل سليمان
٢٧ ـ	في غيابة الجب	علي الفقي
٢٨ ـ	المدينة المنورة في التاريخ	عبد السلام هاشم حافظ
٢٩ ـ	ذكريات طفل وديع ط ٢	عبد العزيز الربيع
٣٠ ـ	رعاية الشباب في الإسلام ط ٢	عبد العزيز الربيع

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٣١ —	حروف في الرماد	محمد صالح البليهشي
٣٢ —	هموم عربية	للأستاذ أبو عبد الرحمن الظاهري
٣٣ —	المدينة اليوم	للأستاذ محمد صالح البليهشي
٣٤ —	لمحات عن حياة الربيع	للأستاذ محمد صالح البليهشي
٣٥ —	على ضفاف الذكريات	للشاعر مجدي خاشقجي
٣٦ —	مبضع الجراح	للأستاذ إبراهيم العياشي
٣٧ —	صور وذكريات عن المدينة المنورة	للأستاذ عثمان حافظ
٣٨ —	قصص لاتنسى	للشيخ محمد المجذوب
٣٩ —	تحفة اللبيب	للشيخ محمد المجذوب
٤٠ —	مع المجاهدين في باكستان	للشيخ محمد المجذوب
٤١ —	المجموعة الشعرية الكاملة	للشاعر عبد السلام هاشم حافظ
٤٢ —	مسيرة ٨ أعوام لنادي المدينة الأدبي	محمد صالح البليهشي
٤٣ —	طيبة وفنها الرفيع	المهندس حاتم عمر طه
٤٤ —	أدب ونقد	الشيخ محمد المجذوب

★ ★ ★

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٨٤٥/٨٨

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
ت : ٧٧٣٢٢١